قلـوب منهكـة

روايـــة

كمـال رُحيِّـم

إلى ... سوزان وياسمين ...

وأحمد وطارق

ومن قبل .. إلى رفيق طفولتى وصباى ..

إلى الروح الطاهرة .. روح أخى الملازم محمد رُحيّم

الذى فقدناه منذ حرب التحرير .. حرب أكتوبر

(١)

لم نعرف بوفاة أبى إلا بعدها بشهر !

سمعنا طرقتين على شراعة الباب فالتويت بجسدى محاولا الإفلات من أم حسن ، إلا أنها دفعتنى بمرفقها دفعة خفيفة إلى داخل حجرها . لم أستجب لها ، وأطحت برأسى إلى الوراء وعيناى تتبسمان لهذا القادم . كنت أحسبه جدى .. فإذا هى واحدة من معارف أمى ترتدى فستاناً وشالاً أسودين ، جاءت تعزينا فى أبى ففوجئت بأنه لا أحد فى البيت سمع بهذا الخبر.

جلست على الكنبة تقلب النظر فينا وتتعجب من أننا لا نعلم بشىء حتى الآن ، وأمى تحدق فيها ووجهها يزوى لحظة بعد لحظة.

قالت : إنها لم تعلم بالأمر هى الأخرى إلا مصادفة ، أبلغها به قريب لزوجها كان يزورهم أول أمس . قال لها : إن أبى وبعض رفاقه من الفدائيين كانوا يستقلون قارباً فى بحيرة المنزلة متجهين إلى بورسعيد. كان عددهم كبيراً .. ضعف الحمولة تقريباً ، ومعهم أكل وسلاح وعتاد.. انقلب بهم فى عرض البحيرة ، وراح أبى واثنان معه .

وأخذت تحكى لأمى ما قاله قريب زوجها عن جدى شيخ البلد.. وصيوان العزاء .. والخلق الآتين من كل مكان ، على الأقدام أو فوق الحمير .. والنساء الباكيات فى البيوت .. وأمى ذاهلة وعيناها منكستان .

لم ترفع عينيها وتتكلم إلا بعد برهة . قالت بصوت مخنوق :

- وأيه اللى وداه هناك . ومالنا ومال الحرب .أعمل أيه أنا دلوقتى . أروح فين وآجى منين ..

انحنت عليها الضيفه تحتضنها وطفقت أمى فى البكاء ، وهبت أم حسن واقفة وأنا ما أزال بين يديها . مالت على أمى تربت على رأسها وتقول :

- الصبر ياحبيبتى الصبر .

- صبر أيه ! الصبر لما يكون فيه أمل . دا أنا بقالى سنة معرفش عنه حاجة وفضلت صابرة وساكتة . إنما دلوقتى صبر أيه بأه .. إخص عليك يا محمود تفوتنى كده وتفوت إبنك اللى لسه مشفتوش .

نظرت الضيفه نحوى وهى تقول لأم حسن :

- بسم الله الرحمن الرحيم .. هو ده إبن محمود !!

فرددت أمى بصوت مبحوح :

- أيوه هوه . هو ده جلال . أروح بيه فين دلوقتى . كل حاجة فى الدنيا معاكسانى . ظروف العيشه وظروف جوازى وظروف أهلى .. ألاقيها منين ولا منين.

وكان صوت الراديو يأتى عالياً من المطبخ حيث جدتى تخبط وترزع فى الأكواب والملاعق والأطباق وكل ما يقع عليه نظرها ، وتسعل بين الحين والحين.

صاحت أم حسن :

- ياست إيفون . يا أم إيزاك .

فأشاحت أمى بيدها :

ـ بلاش . بلاش دلوقتى يا أم حسن .

ـ ما هى لازم تعرف يا كاميليا !

ـ سيبيها واسمعى الكلام . سيبيها أنا مش ناقصة مرار .

عادت أم حسن إلى جلستها وانحنت علىّ . قالت : بسم الله الرحمن الرحيم بصوت خافت ، وأعطتنى ثديها فتمنعت . أخذت تربت على ظهرى حتى استجبت ، وبدأت ألوك اللبن المتقطر فى فمى متلذذا ولا أبتلعه عامداً فيتسرب من بين شفتى وينسال حتى أطراف عنقى . وساد صمت كئيب لم يعد يعكره إلا سعال جدتى الآتى من المطبخ ، بعدما أغلقت الراديو أول ما دقت الساعة الثامنة وبدأت تلاوة قرآن العشاء.

ويبدو أنى أحسست بالأمر أو هالنى وجه أمى المدفون فى صدر المرأة التي تزورنا ، وأنفاسها التى تخرج بصوت مسموع ، فرفعت بصرى إلى وجه أم حسن مستفسراً. وجدت عينيها هى الأخرى حمراوين ودمعة عالقة برموشها على وشك السقوط على جبهتي . لفظت حلمة ثديها على الفور وشببت خائفاً . أمسكت بي أم حسن من السروال إلا أني أفلت من يدها وارتميت على أمي . ولما شعرت بأنها تعيد المحاولة لإرجاعى، لم أجد حلا إلا التشبث بعنق أمي والصراخ بأعلى صوت أقدر عليه .

قالت لي أمي بعد أن كبرت : إن هذه كانت عادتي ، فما أن يطرأ أى شئ على البيت .. شيء محزن .. أوحتى مفرح .. كنت أترك الدنيا كلها . اللعب . الأكل . الرضاعة . كل شيء . وألقي بنفسي على صدرها ، فتحتويني وتدخل كف يدها أسفل ملابسي وتظل تملس على ظهري العاري حتى أستكين.

تريثت أم حسن لحظة ثم أدخلت ثديها في صدر الجلباب ، وشدت طرحتها السوداء عليه .أمي وضيفتها كانتا مشغولتين بالكلام عن أهل أبي . أنا وحدي الذي كنت منتبهاً لها. انحنيت ببصري أتابعها وهي تعدل فردة حذائها المقلوب بطرف إصبع قدمها الكبير ، وعندما مالت بكتفيها لتسحب الفردة الثانية من تحت الكنبة عرفت أنها تتهيأ للقيام، لكن أمي تدخلت في آخر لحظة. ضغطت على ركبتها ضغطة خفيفة لتبقى قليلاً وتكمل لي الرضعة ، وعندها تقوست بظهري وبدأت في إعادة حساباتي مرة ثانية.

قالت أمي للضيفه وهي تربت على كتف أم حسن : إنها جارتها وأختها التي تعرف كل أسرارها وأنها مهما فعلت لن تستطيع رد جميلها ، فقد تطوعت لارضاعي مع ابنها حسن بعد أن جف اللبن في صدرها . ارتخت أهداب أم حسن - بلا وعي منها - وبقى فمها مزموماً برهة قصيرة ، ثم اقتربت من أمي وربتت على يدها معزية .. وأمي تبادلها النظر وعيناها ممتنتان .

وانتصبت أنا واقفاً في حجر أمي ألاعبها وأشاغلها. أشدها من أذنها ومن ياقة الجلباب وأضربها بكفيّ الصغيرين على عنقها ووجنتيها. ولم أغفل بالطبع عن تحركات أم حسن . لم أبدأ في الزمجرة إلا لما رأيتها تزيح الطرحة وراء ظهرها . فهمت ما عقدت العزم عليه ، فانثنيت بركبتي محاولاً الإفلات من تحت ذراع أمي إلا أنها كانت الأسرع . جذبتني بحركة خاطفة وأنا أعافر وأشهق من حدة البكاء ، وهي تهدهدني وتؤرجحني ثم احتوتني بذراعيها وضمتني إليها وأخذت تعلو وتهبط بصدرها وأنفاسها تختلط بأنفاسي . كنت أشبه باللعبة بين

يديهـاوأدركت أنه لا فـائدة مـن المقـاومـة ، فـاسـتـكنت بين أحضـانهـا وأمسكت بالحلمة معاوداً الرضاعة وعيناي على أمي. ولما غلبني النعاس أراحتنى على الكنبة وانصرفت .

لا أعرف كم انقضى من الوقت ، ربما دقيقة أو ساعة !

لا أدري.. كل الذي أتذكره أني قمت مفزوعاً على صوت جدتى.

كانت خنفاء وكلامها سريعاً . لا يمكن لأحد فهمه أبداً إلا إذا تأهب له جيداً ودقق السمع.

يبـدو أن الخبـر وصل إلى المطبـخ فـأتت مـسرعـة . وقـفت بقـامـتـهـا القصيرة وشعرها المشوب بالحمرة ، تمسح يدها في المريلة التي ترتديها على جلباب البيت ثم أشارت إليّ قائلة :

ـ أمال مين اللي هيربي المحروس .

لم ترد أمي .. وأحسـت الضـيـفـه بـالحرج . قـامت نصف قـومـه كى تنصرف ، إلا أن أمي أمسكتها من ذراعها وأعادتها إلى الكنبة .

أردفت جدتي وهي تشيح بيدها.

ـ البابا هو اللي هيـربي . دا بيـصلح سـاعـات ورزقه يوم بيـوم . وأنا خلاص نظري راح وبطلت خياطة . وهيـه ـ أشارت إلى أمي ـ خاليـة شغل من ساعة لما خلاها تسيب بنك صيدناوي.

وفكت المريلة . كورتها وألقتها بضيق على مقعد مجاور وجلست إلى جانبي . جاءت ركبتها بجوار رأسي تماماً ، وكنت أنا راقداً على ظهري فـالتمست الحيـطة . تزحزحت قليـلاً حتى ابتعدت عنها عدة بوصات ، وقلبت عيني إلى الوراء لأتمكن من رؤيتها.

للوهلة الأولى بدا أنفهـا مـن الزاوية التي أنظر منـهـا أكـبـر قليـلاً من

المعتاد ، لكن هذا لم يشغلني . الذي أثار انتباهي هو الرعشة التي أصابت زاوية فمها اليسرى .. أعرفها .. دائماً تجئ لها كلما تأهبت للدخول في مشاجرة ، ووجدت نفسي بعدها منجذباً نحو ذراعيها ، لا تعرفان السكات أبداً .. ظلت عيناي تدوران معهما وهما يعلوان ويهبطان وأصابعها التي تَنْثني وتنفرد إلى أن أشاحت بكفها نحوي فجأة. حسبت أنها تسدد لطمة إلى وجهي فانتفضت خائفاً . أظن أني انقلبت ساعتها على وجهي ، وكدت أسقط من على الكنبة لولا أمي . هبت إليّ وخطفتني خطفاً من أمامها وهي تشير لها بعصبية أن تهدأ .

لم تبال جدتي بها . إستدارت قليلاً نحو المرأة التي تزورنا وهي تقول :.

ـ قلتلها يا بنتي الشخص ده مش لنا . اقبلي سوسو ابن خالتك ولا مكرم جارنا اللي في أول الشارع ومفيش فايدة . راسها ناشفة زي أبوها. كان فيه أيه اللي اسمه محمود ده ! والله ما كان يدخل فى ذمتى بنكلة .

ردت المرأة وبادرة غضب تفوح من كلامها .

ـ الله يرحمه بأه يانينه . دا شهيد ومقامه كبير عند ربنا .

ـ شهيد !!

أجابتها أمى بغضب .

ـ أيوه شهيد .. مش كان رايح يدافع عن بلده .. يبقى شهيد .

ـ أنا لا بتكلم دلوقتى عن الرحمة ولا الشهادة . كان فيه أيه يا عين أمك علشان تتجوزيه . دا لكان مننا ولا من دينا .

يبدو أن جدتى شعرت بأنها أوقعت الضيفه فى حرج ، فتداركت:

ـ الدين لله يا بنتى .. أنا مش قصدي .. مش قصدي والله .

وساد الصمت إلى أن قالت الضيفه :

ـ معلش يا تانت . ما انتى حضرتك عارفه قد أيه كانت كاميليا بتحبه ومتعلقه بيه .

ـ بتحبه ! وجالنا أيه من الحب . أهو ضيع البنت معاه .

ـ نصيب يا تانت . نصيب .

مالت جدتى برأسها بعيداً وكادت تفر دمعة من عينيها ، ثم غمغمت تكلم نفسها .. بتقول نصيب .. نصيب أيه ! أقولها ضيع البنت .. تقولي نصيب .أقولها .. تقولي نصيب .

زفرت أمي .

ـ ماما . ويعدين .

لم تلتفت جدتي إليها . شدت علبة النشوق من أسفل شلتة الكنبة . دست قليلاً منها فى فتحتي أنفها وأعادتها إلى موضعها . عطست عدة مرات قبل أن تميل على الضيفه وتهمس برتمها السريع .

ـ أربع سنين يا بنتي واحنا نقار في نقار . يبجي يوم ويغيب شهر . ولما يبجي تبقى فرحانة وبتتنطط وتقولى الدنيا مش سايعاني النهارده يانينه . مش عارفه أيه يانينه ولا أبصر أيه يانينه . أقوله يا ابني شوف لك شقة تلمك إنت ومراتك بدل الأوضة اللي إنت واخدها فوق السطوح.. يهز رأسه .. يا ابني قلت للبابا والماما إن مراتك حامل .. يهز راسه . يا إبنى .. يهز راسه . لا أنا عارفه قال ولا مقلش . يا ابنى خلى البابا والماما يزورونا.. يهز راسه . طب نزورهم إحنا .. يهز راسه . أقوله ..

يهز راسه . أقوله .. يهز راسه .

انسلت أمي إلى غرفتها . كنت أسمع بكاءها . بادلتها البكاء أنا الآخر وجاهدت للنزول من فوق الكنبة أحبو خلفها .

وفي منتصف الليل أتى جدي .. أبلغته جدتي بالخبر وهو على باب الشقة .

أطرق رأسه وقال :الأرزاق على الله .

وفتح علينا باب الغرفة وعيناه مهمومتان .

* * *

(٢)

لم يكن بصالة الشقة التي نسكنها سوى كنبتين بلدي متقابلتين ومكسوتين بقماش كيرتون مشجر به حروق سجائر صغيره ومتناثره ، وخاصة في الموضع المخصص لجلوس جدي .

وعلى أول الطرقة المؤدية إلى المطبخ مقعدان من الخيزران ، يحجبان جانباً من ماكينة خياطة ماركة (سينجر) موصدة منذ زمن . وكليم قديم من الصوف يشغل بالكاد المساحة التي تفصل بين الكنبتين ، تتوسطه دائرة سوداء تتفرع منها خطوط بكل الألوان ، وفي أحد أطرافه رقعتان لم تفلح جدتي في رتقهما بعد أن طعنت في السن وتبدوان من أول نظرة للكليم .

أما الجدار فلا لون له تقريباً .

تقول أمي : إنها منذ أن وعت على الدنيا لا تذكر أن يداً أمسكت بالفرشاة وقامت بدهانه ، وبه ثقوب كانت من قبل موضعاً لبراويز تحمل صور أفراد العائلة . خالي إيزاك الذي رحل ولا نعرف عنه شيئاً .. وخالي شمعون الذي أخذ صورته ليعلقها في شقته الجديدة .

الصورتان المتبقيتان لخالتي بيلا وهي واقفة بملابس المدرسة ، وإلى جوارها جدتي جالسة على مقعد من الجلد ذى مسندين .. والأخرى لجدي زكي في برواز ذهبي تآكلت حروفه ، ووجهه فيها مكفهراً على غير

عادته في الطبيعة .. والطربوش مائلاً إلى اليسار ويبدو جانباً من ياقة الجاكتة الكحلي والكرافتة الرمادي ، اللتان لا يرتدي غيرهما إن كنا في الشتاء أو حتى في الصيف .

وعلى يمين الصالة غرفتان إحداهما لجدي والثانية لي أنا وأمي، وأمام كل واحدة منهما فروة غنم بلون بني . فلم يكن غيرنا في الشقة ، خالي شمعون يسكن في أول الشارع هو وزوجته سارة . وخالتي بيلا غادرتنا السنة الماضية بعد أن تزوجت وتعيش الآن في بورفؤاد مع زوجها وابنتهما راشيل التى كانت حاملا فيها قبل الزواج . وبقية أهل أمي أكثرهم هاجر ولم تبق إلا عائلة تعيش بالقرب من محل (بريموس) بالعتبة ، وأخت لجدتي تقطن بمفردها في شارع شيكولاني بشبرا .

جدي هو أول من يستيقظ في البيت ..

أشعر بحركته في الصالة وهو يمر متجهاً إلي الحمام ..

أنظر لأمى فأجدها نائمة . وعندها تبدأ محاولاتى للتدلى من السرير. غالباً ما تنجح . إلا أني كنت أسقط أحياناً على ركبتيَّ أو تلتوى ساقي ، فأنطلق في صراخ حاد لا أخفف منه إلا لما أجد يدين تحملاني من الأرض وتهدهداني وقبلات متتالية على موضع الألم حتى أرضى . غالباً ما تكون يدا جدي زكى ، فقد كان يسرع إليَ من أي مكان بالشقة وقبل حتى أن تنتبه أمي.

بعد مناوشات مع أمي ومحاولات فاشلة منها لإعادتى إلى السرير ، أجتاز باب الغرفة زاحفاً فأجده جالساً على الكنبة . يتبسم لي فأزيد من سرعتي في الحبو حتى أصل إلى قدميه . كنت أندهش من حجمهما الكبير وأجلس على مؤخرتى قبالتهما مفكراً في الذي أفعله بهما . أبدأ

أولا بضربهما بلكمات سريعة ثم تجذبني الشعيرات السوداء النابتة على الأصابع فأنحني محاولاً اقتلاع واحدة منها ، تستجيب الشعرة وتنساب بين أصابعي ولكنها سرعان ما تفلت .

أحاول مرة ثانية وثالثة وسابعة حتى ينتابني الملل ، فأضطر لفعل الأشياء السهلة .. أخربش بأظافري في باطن القدم ، أو أضع أى شيء ألقاه أمامي بين فتحات الأصابع . عود كبريت . رباط حذاء . بقايا حبه كراملة تكون في جيبي . يرفعنى جدي إليه ضاحكاً ويعدل من ملابسي، وعندما يجد سروالي مبلولاً يبحث في الدولاب أو أسفل المقاعد وأحياناً في أدراج التسريحة عن واحد آخر نظيف وأمي لا تزال تغط في النوم .

بمجرد استيقاظ جدتي يتغير مزاجي وأبدأ في التحفز ..

أراها خارجة من غرفتها منكوشة الشعر . غالباً ما تكون ممسكة ببنسة بأطراف أصابعها . تقف لحظات بالقرب منا وتشبكها في شعرها، وأكف أنا عن الحركة . أركن ظهري على حافة الكنبة وعيناي عليها . تلقي التحية على جدي وتقول له كلمة أو كلمتين وتمضي . لم تكن تبالي بوجودي وكنت أتحاشاها أنا الآخر ، وإن تصادف واحتك ذيل جلبابها بي أثناء مرورها أمامي أعتبر هذا تحرشاً بي وأبدأ في الزمجرة . يلحقني جدي . يرفعني من الأرض ويضعني في حجره ، أو يلقي بي في الهواء ويتلقفني . أو يسرع ويضع أمامي كل ما هو متوافر في البيت من كراكيب ليشغلني بها . أغطية زجاجات . أستيك ساعة . صفارة قديمة . طبق مكسور . بعض الفوارغ .

أترك اللعب فجأة وأتوجه صوب الشرفة .

فعندما تناديني كنت ألقى ما بيدىّ وأحبو نحوها ، ولا أستجيب أبداً

لأية محاولة تبذل لسحبى بعيداً عنها .

ينادون عليّ فلا ألتفت إليهم . يلقون أمامي بالمسخوط الذي أحبه كي أعدل عما في رأسي ولا فائدة ، يشدونني من خصري وقدميّ فأستمر زاحفاً علي يدىّ . تضربنى أمي علي مؤخرتي فيعلو صراخي ولا أتنازل أبداً عن مطلبي . وعندما يملوا مني يتركونني، لكن عينىّ جدي بالذات لم تكن تغفل عني .

وأول ما أجتاز باب الشرفة كنت أتوقف ثانية أو ثانيتين لأستريح ، وتروح عيني عادة إلى الجدار فإن وجدت ذبابة أو صرصاراً أو رؤوس الثوم المعلقة في الزوايا تهتز بفعل الهواء أتابع ما أرى . وعندما أتذكر المهمة التي أنا قادم لها أفيق إلى نفسي ، إلا أني كنت أنظر خلفي أولاً عسى أن يكون هناك من لا يزال يقتفى أثري . أعافر بعدها لأدخل جانباً من رأسي بين القضبان الحديدية للشرفة وتنتابني نشوة كأنها السحر . أرى الناس . الأولاد والبنات . ودكان عم مرزوق الفطاطري . وعطارة الحاج محمود زوج أم حسن . وفرن أبو عجوة . وبقالة الخواجة كافورس .

وساعات كنت ألمح أم حسن سائرة في الطريق ..

أعرفها عن بعد فأناغى عليها وتنساب الريالة من فمي على (البافته) المتدلية على صدري ، وإذا رفعت عيناها مرة ورأتني تشير إلىّ فأضحك بصوت عال وأضرب بلاط الشرفة بقدميّ .

والذي كان يخلب لبي محل عصير القصب المواجه لعمارتنا . كنت أعشق رؤياه خاصة عندما تأتى غبشة المغرب ، وتضيء واجهته باللمبات (النيون) البيضاء والحمراء والخضراء . تظل تضيء وتنطفيء على نحو

متتال وأنا أتأملها مشدوها وجسدي كله تنهشه اللذة ، ولا يقدر أحد وقتها على أخذي إلى الداخل. كنت أبكي وأحول البيت إلى مناحة . يتركوني حتى أستسلم للنعاس ويحملوني بحذر بعدها إلى الفراش .

طالما حكت لي أمي عن هذه الأيام ، خاصة تلك الليلة التي أراد جدي وجدتي الاحتفال فيها بعيد زواجهما فى البلكونة . اشترى جدي دستة جاتوه من حلواني بميدان الجيش وبسكوت محشو بالعجوة وغريبة وبيتى فور وبقسماط بالسمسم وكيسين فول سوداني ولب . وبناء على طلب جدتي أتى من بقالة كافورس بزجاجة بيرة (استيلا) من الحجم الكبير . ووضعت أمي الشاي باللبن في الأكواب ورصوا كل شيء على المنضدة ، غير أن جدتي لم تستسغ وجودي ومحاولاتي الدؤوبة للوقوف على حجر جدي للمشاركة في هذه الوليمة ، فحلفت بكل غال عليها ألا يبدأ الاحتفال إلا بعد أن تأخذني أمي إلي السرير ، وتقوم بتنييمي ولو قسراً . ولما خفت صوتينا أنا وأمي استبشرت خيراً .

هى ربع ساعة وفوجئا بعودتي إليهما زاحفاً ، والبزازة تتأرجح أمامي. أمي هي التي نامت ! ضحك جدي ضحكة عالية وطويلة وخطفنى من على الأرض ووضعني على ركبته .

كانت ليلة سوداء على جدتي ، أشد الطبق الذي أمامها مرة وأقذفها مرة ثانية ببقايا قطعة الجاتوه التي في يدي . أما كيسي الفول السوداني واللب فقد أطحتهما على الأرض بضربة واحدة من يدي .

وعندما بدأت جدتي في احتساء البيرة قطعت النفس تماماً . أرمقها بوجه مشدود وهي ترفع الزجاجة وتصب منها في (الشوب) الذي في يدها ، يطش السائل فتتسع حدقتا عيني وأظل أترقب. تعلو الرغاوي

بصوت خافت حتى تسيل من حافة (الشوب) فأفقد صوابي ، ولا تستطيع يدا جدي كبح جماحي . أقفز بثلثي جسدي على المنضدة وأشد منها (الشوب) فتدور معركة بيننا .

لم تنته الليلة على خير ولحقت الخسارة بالطرفين ، قرصتنى في ذراعي قرصة ازرق بسببها أسبوعاً ، وكسرت أنا لها (الشوب) خمسين قطعة.

أقسمت جدتى بعدها ألا تدخل البيرة في البيت حتي أكبر . استبدلتها بالنبيذ الأحمر .

* * *

(٣)

جاء خالي شمعون لزيارتنا ..

فتحت أمي له الباب وطارت إلى غرفتها . دخل ومعه ضيف وجلسا متجاورين ، وخرج جدي وجدتي وراء بعضهما من الغرفة الثانية .

كان جدي حليق الذقن على غير عادته في يوم الإجازة . المنشة فى يده ، ويرتدي الجاكت الكحلي على جلباب أبيض وعلى رأسه الطربوش. نفس اللبس الذى يذهب به إلى المعبد أيام السبت . وجدتي عليها الفستان القطيفة النبيتي الذي تدخره للمناسبات . جلسا على الكنبة المواجهة لخالي والضيف . أمي هي التي بقيت في غرفتها .

كنت فى الصالة ساعتها وأمامي مجموعة لا بأس بها من الكراكيب ومزاجى رائقاً للعب . ألكم المسخوط عدة مرات في رأسه ثم أنحنى عليه وأعضه عضة طويلة في بطنه لعله يبكي أو يصدر عنه أي شيء ولا فائدة ، فأنحيه جانباً وأبدأ في النفخ في زجاجة فارغة أو دحرجتها أمامي جيئة وذهاباً ، أو الدق بقبضة يدي على ساعة قديمة من مخلفات جدي .

فجأة وأنا فى حموة اللعب شدنى منظر مثير .

فردة شبشب جدتي .. الفردة البرتقالي أم فيونكة حمراء من أعلى التي كانت ترفعها في وجهي وتهددني بها فأطير خائفاً .. الملعو

كعب (مبري) التي كنت أعمل لها ألف حساب ، خرجت كلها من قدمها اليمنى وتعلقت بالأصبع الكبير ، وجدتي المشغولة بتفحص الضيف تؤرجحها إلى أعلى وأسفل بحركة رتيبة متتالية .

استفزني المشهد !

وبلا وعي أو تخطيط وجدت نفسي أحبو بحذر نحو جدتي ، وأخطفها خطفاً من قدمها وأرجع مسرعاً إلى موضعي الأول وعيناي تلمعان ببريق النصر . وأول ما أخذت نفسي ألقيتها بكل عزمي ناحية باب الشرفة ، ثم انهمكت في اللعب ثانية وكأن شيئاً لم يحدث . ضحك خالي شمعون على فعلتي وتبسم الضيف، أما جدي فلم يملك نفسه . انفتح في نوبة ضحك عالية ورأسه وكتفاه يهتزان . لم يتوقف إلا لما رفعت جدتي حاجبها الأيسر ونظرت له ، ويبدو أنها ـ وبدون أن نشعر ـ وخزته بشيء حاد في مؤخرته . ربما إبرة أو دبوس . إذ رأيته يهب فجأة إلى الأمام ، ثم يتقلقل على الكنبة مبتعداً عنها وهو يضع يده على موضع الإصابة .

واحتراماً للضيف وكي لا تعطيه جدتي انطباعاً سيئاً عنى لم تشخط فيّ ، اكتفت بالإشارة إلى خالي بأن يحملنى إلى الداخل أنا وكل متعلقاتى فأسرعت إلى جدي محتمياً . وضع يده على رأسي ولم يرفعني إلي جانبه أو يضعني في حجره كعادته . عرفت بالغريزة أن الموقف ليس في صالحى ، فمكثت بجوار قدمه .. يداي متدليتان في حجري وهادئاً لا أتحرك حتى لا أثير حفيظة جدتي أكثر من ذلك .

قال خالي شمعون لجدي وجدتي ، وهو يشير إلى الضيف .

ـ الأستاذ لبيب قطاوي .

ردا فى صوت واحد .

- أهلاً وسهلاً .

أردف خالي .

- حضرته بيشتغل صراف فى محل (شملا) ووالده عنده فابريكة بسطرمه فى الفجالة .

تأنى لحظة وأضاف :

- وكان كلمنى على كاميليا . هو عارفها من أيام ما كانت بتشتغل فى صيدناوي قبل لما ...

وأحجم عن الكلام ..

تداركته جدتي . تبسمت للأستاذ لبيب وسألته : إن كان يقرب لجماعة القطاوية الذين يسكنون في العباسية الشرقية . قال : إنه لا يعرفهم . قالت : إنها لا تقصد عائلة قطاوي باشا وإنما جماعة القطاوية الذين يعملون في سباكة الفضة . لم يجب . رفع شفته السفلى وسكت . تنحنحت جدتى وسكتت هي الأخري .

كان الأستاذ لبيب خفيف الشعر ، راح الثلث الأمامى من شعره تقريباً رغم أنه لا يزال شاباً . وقصيراً بشكل لافت . قامته تزيد قليلاً عن قامة الولد الكبير ، لذا لم تأخذ قدماه راحتهما على الأرض . بوز الحذاء هو فقط الذي كان يصل إلى الكليم ثم يعود ويرتفع بمقدار بوصة أو بوصتين تقريباً . اضطر الأستاذ لبيب إلى التزحزح قليلاً إلى الأمام حتى هبطت قدماه على الأرض واستراحت .

نظر تجاهي فوجدني أنظر إليه ، فأشاح بوجهه مقلباً عينيه فى محتويات الشقة . ساعة الحائط . رأس ماكينة الخياطة . وصرصار من

الحجم الصغير كان يهبط على الستارة المعلقة على أول الطرقة المفضية إلى المطبخ ، إلا أن أكثر شيء شد بصره هو صورة جدي المعلقة على الجدار المواجه له . دقق النظر فيها ثم نزل بعينه إلى جدي القابع أسفل منها ويرمقه من طرف خفي هو الآخر . بدا الأستاذ لبيب لبرهة وكأنه مشغولٌ بعقد مقارنة بين الأصل والصورة . أرخى رأسه بعدها ولم تعد تصدر عنه أية حركة حتى حسبت أنه نام .

وقامت جدتي .

نقرت على باب غرفتنا وكلمت أمي كلمتين من فتحة الباب ثم أسرعت إلى المطبخ . وقبل أن تغلق أمي الباب لمحتني وأنا أتطلع إليها بدهشة . تبسمت لى فرددت عليها بضحكة لها صوت . كان وجهها غريباً بعض الشيء وليس الذى اعتدت عليه . البشرة أكثر تألقاً بفعل البودرة والمساحيق ، وأذناها الصغيرتان تحملان حلقاً كبير الحجم على هيئة نجمة سداسية الشكل .

أتت جدتي بصينية عليها دورق ماء وزجاجتى مياه غازية وأكواب فارغة ، أخذ الأستاذ لبيب الزجاجة ذات اللون الأحمر ومد خالي يده للزجاجة الثانية .

كنت أحب اللون الأحمر فهببت على قدميّ دفعة واحدة وخطوت خطوة ثم انكفأت على وجهي . كانت هذه هي المحاولة الأولى للوقوف وجاءت عفواً . لم أعبأ بالسقطة أو أفكر في بكاء . انطلقت حبواً كما الريح نحو الضيف لأعاركه على الزجاجة . شاطت النار في جدتي وأنا أزداد تصميماً ، بقيت تحت أقدام الرجل أشده من جوربه ليعطينى إياها .

ربت على ظهري وتركها لي ، فعدت إلى موقعى الأول أمام

الكراكيب وهى تتدحرج أمامى وقد فرغ نصف محتواها على الكليم ، وأسرع خالي إلي المطبخ وأحضر زجاجة ثانية .

قال وهو لا يزال واقفاً يرفع غطاء الزجاجة بفتاحة فى يده .

ـ الأستاذ لبيب معرفة قديمة . فين من أيام مدرسة الخديوى إسماعيل لما كنا ساكنين في الناحية التانية من شارع الخليج .

هز الأستاذ لبيب رأسه متبسما وخلع نظارته الطبية ، نفخ في زجاجها عدة مرات والتفت إلي خالي يسأله عن ورقة (بافرة) فأتى له بدفتر كامل . شد ورقتين من الدفتر وانهمك فى تنظيف زجاج النظارة .

وقالت جدتي :

ـ فكرتني بأيام زمان يا شمعون . كانت أيام حلوة . صحيح العمارة كانت قديمة ولجوه إنما سكانها كان ربعهم يهود والعيشة مرتاحة . مش البلاوى اللي معانا في العمارة .

قال جدي محاولاً تغيير وجهة الحديث :

ـ يا ستى هنا ولا هناك آهي كلها عيشة وكلنا ولاد آدم وحوا . أهلاً وسهلاً يا أستاذ لبيب .

وأسرع خالي :

ـ الأستاذ لبيب عايز يتقدم لخطبة كاميليا .

تحسس جدي طرف شاربه وهو يقول بصوت هادئ ورزين :

ـ ويا ترى حضرته عارف ظروفها .

ـ ظروفها !!

قالها الأستاذ لبيب بصوت خافت وهو يميل برأسه ناحية جدى ،

وكانت أمي قد فتحت باب غرفتها فرفع الجميع رؤوسهم نحوها. سلمت بإيمائة خفيفة وجلست بين جدي وجدتي .

قالت على الفور وبصوت ومتوتر :

- أنا عارفه لبيب وشفته قبل كده بدل المرة عشرة وموافقه عليه بس الولد ؟ المهم الولد .

تطلع إليها الأستاذ لبيب مستفسراً عن هذا الولد ، ولمعت عيناه وهو يرمقني بنظرة خاطفة . وبعد برهة صمت نظر إلى خالي والقلق بادياً على وجهه ، إلا أن جدتي صرفت الإنتباه إليها لما أدخلت يدها أسفل شلتة الكنبة وأخرجت علبة النشوق . لكزها جدي بمرفقه كي ترجئ الأمر فلم تكترث به وهمت بفتح العلبة ، لكنها أعادتها إلى موضعها على الفور عندما لمحت الأستاذ لبيب يتابع ماتفعل.

هرشت رأسها وقالت :

- وماله الواد . دا يتيم ومحتاج الرحمة . وإذا الرب أذن وتم بخير شوية عندي وشوية عندكم .

ثم مالت نحو الأستاذ لبيب وأردفت :

- ولا أيه يا أستاذ ؟

فرد بدهشة :

- الولد . واد أيه !!

- الواد جلال ابن كاميليا . المفعوص دهه - وأشارت إليّ - شوف وشه عامل زي الملايكه إزاي .

قال وعيناه وأنفه تشمخان إلى أعلى :

- آه . .

ـ مش كده برضه يا ابني ؟

امتقع وجه الأستاذ لبيب وأدرك أنه إن لم يتصد لجدتي فلا محالة سوف يشرب مقلباً ، غير أن وسائل دفاعه لم تسعفه برد فآثر الصمت . انحنى برأسه قليلا وازداد إنتباهاً .

واسترسلت جدتي :

ـ الكام شهر الأولنيين ضروري هيكون عندي . وبعدها أمه تاخده وأنا جاهزة في أي وقت لما تحب تجيبه .

وتبعها خالي :

ـ ضروري . ضروري في الأول يكون عندك يانينه علشان حتى الرضاعة .

ثم ابتلع ريقه وأضاف وعيناه تتحاشيان الأستاذ لبيب :

ـ وهو يقدر يسيب أم حسن لحد ما يتفطم.

بقي جدي صامتاً يراقب ما يجري ويتنقل بعينيه بين المتكلمين . سكنت المنشة في يده فجأة ، وقال بصوت قاطع :

ـ اسمع يا ابني . الولد مسلم وأبوه متوفي وأمه مش قادرة تستغنى عنه . يناسبك الوضع ده .

انطلق لسان الأستاذ لبيب عالياً وهو ينتفض واقفاً:

ـ أيه ! بتقولوا أيه !

ثم التفت إلى خالي :

ـ أنا مكنتش فاكر الحكاية كده ياسي شمعون . مقلتليش ليه من الأول . مخلفة عيل دي لوحدها حكاية وإن اتبلعت تتبلع بالعافيه .إنما

مسلم ! عايزني أربي عيل مسلم في بيتي ! آدي اللي ناقص.

قال خالي وبودار حدة تفوح من كلامه:

ـ فيه أيه يا لبيب . عاملها حكايه كده ليه. ما إنت عارف إن كل اللي بييجي من بطن يهودية يبقى يهودي.

وساد الصمت ، حتى أنا الآخر كففت عن اللعب متابعاً ما يجري . ويبدو أن الأستاذ لبيب شعر بأنه خرج عن حدود اللياقة بما قال ، فعاد إلى الكنبة والكل يتطلع إليه منتظراً بقية كلامه.

قال بهدوء وعيناه في عيني جدي:

ـ إذا كنت يا عمي بتسألني عن الوضع ده يناسبني ولا لأه . أنا بقول لأه وألف لأه . وأنا بصراحة عايز كاميليا وبس . خلى الولد عندكم . كل واحد أعلم بحاله وأدرى بظروفه.

وغمغم محدثاً نفسه .. يا خبر أسود دي كانت الماما تروح فيها.

قالت جدتي:

ـ حيلك يا أستاذ لبيب . الحكاية عايزة شوية تفكير . وبقولك إنه في الأول حيفضل الواد معايا وفين بأه لحد ما يتفطم.

نظر إليها بضيق:

ـ لا رضاعة ولا فطام خلوا الولد عندكم . دي مسألة مبدأ لا فيها كلام ولا فصال .

ـ طب يا ابني شاور نفسك ورد علينا بعدين.

قال وهو يجفف عرقه:

ـ أشاور نفسي ! آه أشاور .. قوى قوى أشاور نفسي !

وعندما خرج قالت جدتي لأمي بغضب:

- يعني كان لازم تجيبي سيرة الزفت ده أول ما تطلعي من الأوضة .

- كفاية بأه يانينه . كفاية .

وأسرعت باكية إلى غرفتها وأنا وراءها على أربع وأبكي لبكائها.

مال بخت أمي بسببي ، فلم يرجع الأستاذ لبيب طبعاً ولا أي من خطابها اليهود الذين أتوا بعده ، فما أن يراني أحداً منهم إلا وينقلب الأمر في غير صالح أمي.

* * *

(٤)

كبرنا معاً أنا وبعض أولاد العمارة . حسن أخي فى الرضاع وفهمى ابن الأستاذ حسني باشكاتب المحكمة وعلي ومصطفي الأخوين التوأم ونادية بنت مدام السبكى.

نجحوا جميعاً فى إقناع أمهاتهم بالنزول إلى الشارع ، وأتوا إلى أمي.

وقفوا على بعد خطوات من الباب يلحون عليها كي أنزل معهم وهي ترفض ، فلم يكن أحد من الأولاد يجرؤ على الدخول إلى شقتنا . كلامهم معنا كان من على الباب فقط ومن مسافة ، فشقتنا ليست كأي شقة فى العمارة وإنما كان لها دائماً وضعها الخاص ، وأول ما يقترب منها الأولاد - الصغار منهم بالذات - كانت تنتابهم الرهبة وكأنهم مقدمين على عالم سري محفوف بالغموض ، لكنه وعلى أي حال غموض جذاب يشوقهم لمعرفتنا على حقيقتنا . ماذا نأكل وماذا نشرب وماالذي نلبسه أو نفعله عندما نكون بمعزل عن الناس ، وما الذي في بيتنا وليس في بيوتهم .

كانوا لايستطيعون كبح جماح فضولهم أبداً ، وعيونهم رغماً عنهم كانت تتسلل دائماً من فتحة الباب وهم يكلموننا لعلهم يلمحون شيئاً من أشيائنا المستورة.

المهم أن مشكلة نزولي مع الأولاد حلت ، فجدي لم يكن قد خرج وبعد مشاورات وأخذ ورد بينه وبين أمي وافقت.

اختارت لنا الأمهات أحد أيام الجمعة حيث تهدأ الحركة في الخارج ، على أن يراقبوننا من الشرفات وكانت سلسلة التعليمات التي ألقيت علينا طويلة . حفظها كل واحد منا على أصابع يده وسمّعها لأمه . أولها أن نمسك في أيادي بعضنا البعض ونمشي في تشكيل أشبه بالطابور وراء الست شوق زوجة البواب ، وآخرها أن نصعد على الفور وبلا أي تلكؤ أول ما ينادوا علينا.

كانت الساعة العاشرة صباحاً هي ساعة الصفر..

تجمعنا كلنا على بسطة السلم المواجهة لشقة أم حسن التي في الدور الثاني ، وعندما شرعنا في التحرك أمسك مصطفى بجلباب الست شوق كما أوصته أمه ، فنهره أخوه منبها إياه إلى أن تصرفه هذا سوف يقلل من قدرنا أمام الناس في الشارع . وأيدناه كلنا مستهجنين من أخيه فعلته الطفولية.

كنا جادين ساعتها وحسبنا أننا أصبحنا رجالاً بالفعل ، لكننا انكشفنا أمام أنفسنا أول ما خرجنا من باب العمارة. أصابتنا رجفة من الوسع والحركة والأصوات العالية ، ووقفنا كالكلاب الصغيرة التي تضع ذيولها بين أرجلها عندما تواجه موقفاً صعباً. لم نكن نعرف أي اتجاه نسلك ، وأول ما كنا نرى أولاداً كباراً مارين من أمامنا نرجع تلقائياً عدة خطوات إلى الوراء حتى يبتعدوا . لم نفعل ذلك مع الرجال والنساء.كنا ننظر إليهم على أنهم مثل آبائنا وأمهاتنا . الأولاد هم الذين خشيناهم بالغريزة ومن أول نظرة.

تقدمتنا الست شوق ونحن وراءها كما الدجاج شابكين أيادينا في أيادي البعض ، وننظر إلى أنفسنا غير مصدقين . تلكأنا أمام الفترينات واشترينا سميط وغريبة وكعب الغزال من فرن أبو عجوة ، وانطلقنا كالسهام على المشروبات الغازية . فمنا من شرب السينالكو أو الأورانجو أو الإسباتس ، وعندما تحرش بنا صبي الخواجه كافورس تصدت له الست شوق وأوقفته عند حده.

لم تزد الجولة عن مائتي متر عدنا بعدها مكرهين ، بعد أن تبادلت امرأة البواب الإشارات مع أمهاتنا اللائي في الشرفات . وأخذنا نصيح ونقفز على السلم وندبدب بأقدامنا من الفرحة كأننا عائدين من غزوة .

طلبت من أمي بعدها أن أخرج مع الأولاد . قالت : انتظر لباكر فغداً إجازة جدك وسوف تخرج معه.

كان اليوم يوم سبت .. وجدي جالس في موقعه المعتاد على الكنبة يقرأ في كتاب غلافه أسود منقوش بزخارف بارزة ، وسعال جدتي يأتي متقطعاً من داخل غرفتها.

لم ينتبه إلينا لما تسحبنا وجلسنا قبالته.

سألت أمي عما يقرأ . قالت بصوت خافت : الكتاب المقدس، ووضعت إصبع السبابة على فمها المزموم مشيرة لي أن أسكت.

عندما كنت أسير مع أمي أو جدي في الشارع أو وأنا واقف في الشرفة، كنت أسمع الأولاد يحلفون بالقرآن. ملت برأسي نحوها وسألتها بصوت كالهمس إن كان هو الذي يقرأه . سكتت برهة وقالت : لا ، وطلبت مني إغلاق فمي.

يبدو أن جدي كان يسمعنا.

أنزل عدسات النظارة قليلا إلى أسفل وبدت تقطيبة على جبهته ، وكأن شيئاً غريباً يطفو على وجهه . ولم تكف عيناه عن بعث رسائل مشفرة إلى أمي ، والتي كان واضحاً أنها تعي ما يقال لها وعيناها ترد وتتكلم بدلاً عن فمها المغلق .ظلا عدة لحظات يتحدثان بلغة لا أفهمها . لغة تخصهما وحدهما.

أغلق جدي الكتاب المقدس وهب واقفاً وأخذني ونزل . مشى بي خطوات قليلة وتوقف أمام محل عصير القصب ، فخرج إلينا المعلم حبيب صاحب المحل وأعز صاحب لجدي في الشارع.

كان نحيفاً منتصب العود والشارب ، وفيه كبرياء وعزة نفس أهل الصعيد . وعمامته شالها بياضه ناصع ولها ربطة مهيبة ليست لأي عمامة في الشارع . وعندما يكون هناك نقص في عمال المحل ، كان الرجل يشمر جلبابه حتى أعلى الفخذين ويلف هذا الجزء المشمور مخرجاً إياه من فتحة السيالة ويدخل إلى جوف المحل للمساعدة . تبدو ساقاه عندئذ بلون أفتح قليلا من بشرة وجهه ومعوجتان بشكل لافت . ولا أعرف ما هذا الذى يطرأ على عمامته .. تفقد وقارها ويبدو المعلم حبيب كشخص آخر غير الذي أراه جالساً يضع ساقاً على ساق أمام المحل ، أو خلف البنك يحصل أسعار المشروبات.

نادى على مقعدين لنا (وشوبين) من عصير القصب ، ثم حملق فيّ قليلاً وقال :

ـ مش هوه ده إبن المحروسة .

هز جدي رأسه بالإيجاب.

قطب المعلم حبيب ما بين حاجبيه وقال:

ـ برضه لسه مفيش أخبار عن بسلامته جوزها.

أومأ جدي صامتاً وهو يحيط ذقنه بأصابع يده .

فقال المعلم حبيب :

ـ جري إيه يا أبو إيزاك. هو أنا كل ما أفتح معاك الموضوع ده يركبك الهم وتسكت .

رفع جدي رأسه وقال وهو يتحسس شعري بيده.

ـ لسه ! الغايب حجته معاه.

ـ وأهله يا عم زكي ! مش كنتوا تسألوهم ! دي الحكاية كده يبقي فيها إنا !

ثم أشاح بكفه في الهواء ،وقال بعد أن رجع بعينيه من لفتة سريعة على مدخل المحل:

ـ الأصول كده يا عم زكي . ضروري تعرفوا راسكم من رجليكم . دا غايب بقاله كتير . دي سنين مش حكاية شهر ولا اتنين.

قال جدي وأصابعه تجري على صفحة عنقي:

ـ يصح برضه .. يصح..

وطأطأ رأسه بكآبة إلى الأرض ينظر إلى فردتي حذائه الكالحتين ، وأغمضت أنا عيني برهة لأريحهما من وهج الشمس وانتابتني رغبة مفاجئة في أن أرجع إلى البيت وأنام.

نادى المعلم حبيب على أحد صبيانه وطلب منه إحضار كوب الشاي الذي تركه على البنك . رشف منه رشفة وقال لجدي وهو يطرق بأصابعه على فتحة علبة السجائر البلمونت مستخرجاً واحدة:

ـ مش ياترى برضه عارفين أهله مين.

ـ عارفين ! أيوه عارفين ! بلد كده في ضواحي الجيزة.

ـ يعني عارفينها .

ـ أمال ! عارفينها ونص .

ـ طب وساكت ليه يا عم زكي . دلوقت الأمور اختلفت والغيبة طالت.

ثم مال على جدي مكملاً بصوت أخفض قليلاً:

ـ إلا انتم طلعتم شهادة ميلاد لجلال.

قال جدي بدهشه:

ـ شهادة ميلاد ! أمال أيه يا معلم . دي طالعة من ساعتها . وعندي عقد جواز كاميليا من أبو جلال على يد مأذون ومتسجل ومكتوب فيه أسماء الشهود.

التقط جدي أنفاسه وأردف:

ـ إنت عارف الحاج محمود العطار آهو هو الشاهد الأول . ولبيب الصرماتي اللي فاتح على الناصية هو الشاهد الثاني.

رجع المعلم حبيب بظهره قليلاً إلى الوراء ، وقال وهو يسوي شاربه:

ـ أما أمرك غريب يا عم زكي . طب وليه السكات لحد دلوقتي . ماتروح تسأل عليه عندأهله .

أجاب جدي بفزع:

ـ أنا !!

ـ أيوه إنت ولا إبنك شمعون . ولا انت عايز أم جلال هيه اللي تروح لوحدها .

وقلت أنا بلهفة وجذعي يهب إلى الأمام:

ـ هو انت تعرف بابا يا عم حبيب.

ربت على رأسي:

ـ أمال . أعرفه ونص وياما شرب عصير قصب من عندي هو وماما.

لمعت عيناي:

ـ وشكله أيه يا عم حبيب ..

نقر بأصابعه على جبهته . بدا كأنما يتذكر شيئاً بعيداً:

ـ شكله .. شكله .. شكله أيه يا واد يا حبيب . آه . شكله شكل راجل محترم . طول بعرض وحاجة كدة تفرح.

ثم استأذن لحظة لتصريف بعض أشغاله ، فانتهزها جدي فرصة وانصرف وأنا في يده . لم يكمل الجولة التي وعدتني بها أمي ، وعاد بي إلى الشقة دون أن يفتح أحداً منا فمه بكلمة .

وفي الليل سألت أمى عن أبي .

قالت : ذهب إلى الحرب ولم يعد .

قلت : متى يعود ؟

قالت بشيء من الحدة : لقد مات . مات . مات.

شددت ذراعي من يدها وأسرعت إلى السرير وطفقت أبكي ، فأتت ورائي تخرج رأسي المدفونة أسفل المخدة وتضعها فى حجرها . وبعد أن خفت نوبة البكاء والشهيق رفعت رأسي إليها ، فوجدت دمعاً ينسال على خديها .

احتضنا بعضنا وأنا أقول لها بصوت مبحوح : إن جدي لايعلم بموت أبي وسوف يذهب للسؤال عنه عند أهله ، قالت وعيناها لا تزالا تدمعان : جدك رجل كبير ولا يعى ما يقول .

وبدأت التفكير في أبي الميت ، لكنني كنت صغيراً ولا أعرف من أين أبدأ وليس من مجيب على التساؤلات التي تملأ رأسي .لا أمي ولاجدي. أما خالي وجدتي فلم تكن لي بهما صلة . كل ما استطعته هو صنع صورة لأبي في مخيلتي . لكنني حتى في هذا الأمر كنت مشوشاً ، فبعد أن أستقر على أنه كان طويلا وعريضاً كما قال المعلم حبيب ، أعود وأتخيله سميناً أو قصيراً . ومرة له وجه مثل وجه جدي ، وأحياناً كثيرة أصنع تقاطيعه بنفسي وأغيرها من وقت لآخر ، فأمي سامحها الله لم تقل لي عنه إلا القليل أو حتى وصفته لي عندما طلبت منها ذلك. وأم حسن كانت في حرج منها وكلما سألتها عنه إما أن تغير الحديث أو يكون جوابها بالحساب .. الذي عرفته فقط أيامها ،إن أبي كان طالباً فى كلية الحقوق وأنه التقى بأمي مصادفة عندما ذهبا لشراء قطعة صوف لأبيه من محل صيدناوي ، وتحابا وتزوجا بعدها بشهرين في غرفة على سطوح إحدى عمارات الشارع .

وشيئاً فشيئاً أخذت أصنع عالما يخصني وتكون لي فيه أسرار.وقد أسمع كلمة عن أبي فأشّيد منها معمارا في الخيال أهيم فيه ، ليس فقط في أوقات قبل النوم حيث تهدأ الحركة في البيت وإنما وأنا في عز انشغالي باللعب أو محاطاً بالناس .

لاحظت أمي ذلك فكانت تشغلني بالحكايات . تحكي لي مرة عن شمشون الجبار ، ومره عن شاؤول الذي هزم أهل كنعان وأذاقهم الويل . والحكايتان اللتان كانت تكثر من روايتهما كانتا حكاية سيدنا موسى الذي فلق البحر بعصاه والناس الذين أحرقوهم بالنار، سألتها : من هم . قالت : أهلنا المساكين .

* * *

(٥)

أغلق جدي الكتاب المقدس أول ما رآنا أنا وأمي بملابس الخروج . انتصب واقفاً وبيده الطربوش ، وظلت جدتي محنية على كتاب قايضت عليه بائع الروبابيكيا بأربعة زجاجات فارغة . كتاب من كتب الجيب المترجمة عن امرأة سفاحة في الريف الإيطالي ، أزهقت عشرين روحاً دون أن يطرف لها جفن .

طلب منها جدي أن تعيد التفكير وتأتى معنا فما زال فى الوقت متسع. قالت له : لا ! دون أن ترفع عينيها من على الكتاب . وعلى مقربة منها كانت توجد صينية مملوءة على آخرها بالبصل ، وبجوارها سكين له نصل حاد وطويل.

سعل جدي سعلة خفيفة.

- يللا يا إيفون . دا إنتي هتنبسطي خالص من الفيلم.

التفتت إليه.

- فيلم أيه ده . فيه ضرب وخناقات يعني . حاجة كدة من بتاعة فريد شوقي.

- ضرب أيه وخناقات أيه . دا فيلم هادي ورقيق وكله مشاعر.

- يبقي مينفعنيش .

وشمرت أكمامها ثم أمسكت بالسكين ، وأغلقنا نحن الباب عليها.

خرجنا من شارع زغلول حيث نسكن بحي الظاهر واخترقنا شارع الخليج المصري فالمذبح الإنجليزي ، وأنا أمسك بيد جدي مرة وبيد أمي مرة ثانية حتى وصلنا إلى شارع الجيش.

توقف بنا جدي أمام دراجة بصندوق أمامي مرسوم على أحد جانبيه صورة بالحجم الكبير لميكي ماوس وهو يغمز بعينه . وعلى الجانب الآخر صورة ثانية له ، لكن بحجم أصغر وهو يغافل قطة كبيرة مغمضة العينين ويربط ساقيها الخلفيتين بحبل في يده.

كان صاحب الدراجة رجلاً كبيراً في السن ولايكف عن التلفت حوله ، وأول ما يرى أطفالاً مارين أمامه أو حتى آتيين من بعيد كان يزعق بأعلى صوته:

- الجيلاتي الساقع .. الساقع ..

اتأمله فيلحظني ويعاود النداء بصوت أعلي مثيراً نشوتي:

- أيوه الساقع .. الساقع ..

اشترى لي جدي بسكوته جيلاتي بستة مليمات.

لم أقتنع بها. رددتها إلى الرجل وأنا أقول له محبطاً:

- دي صغيرة يا عم .

تبسم لي وأعطاني واحدة أخرى أكبر حجماً ، وأبى أن يأخذ من جدي فرق الثمن .

ورغم ذلك قلت :

- وكمان لحسه..

قلتها كما كان يقولها الأولاد الكبار لبائع الجتيلاتي الذي يمر في شارعنا . ضحك جدي وانحني عليّ يقبلني ويقول:

ـ أيوه كده . ابني بصحيح . آهو كده الشغل يا جلجل.

توقفنا ثانية أمام مقلة لب وأخذنا قرطاسين مملوءين باللب والسوداني، وبدأ جدي في التهيؤ لعبور الشارع .

تشبثت بيده جيداً ، فقد كان الترام بجلجلته المدوية آتياً من بعيد وأنا أعمل له ألف حساب وأتطلع إليه دائماً بمهابة وخوف ، منذ أن رأيته مرة يدهس دراجة تركها صاحبها سهواً على حافة القضيب ويدحرجها أمامه كالكرة.

كنا أمام سينما مصر الساعة العاشرة بالضبط ، والناس تتأهب للدخول .. وفى المدخل لوحة خشبية كبيرة عليها ملصق تحتل أغلبه صورة لبطلة الفيلم ليلى مراد ، وفي الفراغ المتبقي صورة لنجيب الريحاني وعلى رأسه طربوش وأخري لأنور وجدي يرتدي بدلة طيار . أما على اليسار فتوجد لوحة أصغر قليلاً عليها صورة لأولاد العم سام يرتدون القبعات والبنطلونات الجينز وفي أيديهم مسدسات يتقاتلون بها على امرأة نصف عارية ، وفى خلفية الصورة واحداً منهم ملقى على الأرض وتسيل منه الدماء.

لم يدفع جدي سوى ثمن تذكرتين.

تمكن من إقناع العمال الذين على الباب بأني صغير ولا أفهم فى الأفلام ، وأننا عادة لا نشاهد إلا فيلم واحد ونترك بعدها مقاعدنا لإدارة السينما تتصرف فيها كما تشاء . لم يكن جمهور الحفلة الصباحية كبيراً والمقاعد نصفها خال تقريباً ، فتسامحوا مع جدي وقال واحد منهم ضاحكاً : إنه يعرفنا وأن جدي يقول هذا الكلام دائماً ولا يشتري أكثر من تذكرتين مهما كان العدد الذي معه.

وجلسنا أخيراً في الصالة نشاهد الجريدة الناطقة.

كانت كلها عن الثورة ورجال الثورة ، وكلما ظهر الرئيس جمال عبدالناصر على الشاشة كانت الناس تصفق ولا يخلو الأمر من واحد يصفر عالياً ويصيح قائلاً « شد حيلك ياريس »، فيرد عليه آخر « أيوه كده يا أبو خالد.. آدى الهمة ». وافتتنت أنا الآخر بالرئيس ووجدت نفسي أصفق له مع الناس وألكز أمي بمرفقي كي تفعل مثلنا ، وهي ترمقني بدهشة ثم تميل على أذن جدي . وعندما بدأ فيلم (غزل البنات) ، سكنت الحركة تماماً في السينما وتعلقت كل الأبصار بليلى مراد . وكان جدي متأثراً بأداء نجيب الريحاني.

مال على أمي وقال لها : إنه مسكين . مات فجأة . أهلكته جرعة علاج زائدة أعطوها له لما أصابه مرض التيفود ، وحصد غيره العز والمال. وانفتح بعدها في الكلام عن ليلى مراد ، قال: إنها من عائلة كلها فنانين . أخوها منير وأبوها زكي مراد يا سلام على صوته !

وتنهد ..

- يا سلام كمان لو سمعتي أغنية (حيرانه له) اللي لحنها لها الأستاذ داوود حسنى..

قالت : إنها لم تسمع من قبل بهذه الأغنية ولا بداوود حسنى..

هز رأسه ساخراً وقال :

- لما أروح أبقى أقولك مين هو داوود حسني.

تململ الجالسون خلفنا من الشوشرة التي يحدثها جدي ، قال له واحد منهم :

- سمع . هس .

وأضاف آخر بتأفف :

- صوتك شوية يا عم الحاج . إحنا جايين نتفرج مش نتحاكى مع بعضنا وبعدين يا عمنا لو سمحت اقلع الطربوش اللي على راسك ده .دا أنا شوية آجي يمين وشوية آجي شمال علشان أشوف لما عنيه إحولت.

التفت جدي ربع التفاتة إلى الوراء ثم خلع الطربوش ووضعه على حجره ، ولم تصدر عنه أية همسة حتى انتهى الفيلم.

وعندما أضيئت أنوار الصالة للاستراحة قبل عرض الفيلم الأجنبي ، تحجج جدي بالصداع وخرجنا وأمي تعاتبه.

يوم السبت الماضي كانت معنا جدتي وشاهدنا كلنا فيلم (غرام وانتقام) ، وأول ما بدأ الفيلم الأجنبي عملها جدي أيضا . قال : إن النظارة لاتسعفه في قراءة الترجمة.

وخرجنا وجدتي تعاركه طول الطريق ، لأنه ضيع عليها مشاهدة فيلم من أفلام الأكشن التي تحبها.

أما السبت الذي قبله فخرجت أنا وجدي وحدنا.

ركبنا الأتوبيس من شارع الجيش حتى شارع سبيل الخازندار حيث معبدنا . معبد (القرائين) . زحاماً خفيفاً على الباب ويهود كبار ينزلون من العربات الأمريكاني الكبيرة الفورد والكاديلات والشيفورليه ، يرتدون البلاطي الموهير والفساتين والبدلات الكحلي والرمادي وربطات العنق الفرنسية وفى أيديهم أطفال صغار شعورهم مصففة وبأطقم ثياب تؤهلهم لاحتلال أغلفة مجلات الأزياء والأناقة . يمرقون من باب المعبد شامخي الرؤوس ولاينظرون إلى أحد . والباقون غلابه مثلنا ممن يشترون ملابسهم من محلات الموسكى وشارع كلوت بك أو ربما من الحواري التي

تباع فيها الملابس المستعملة ،وامرأتين أو ثلاثة من العجائز مازلن يحتفظن بنجمة داوود على صدورهن.

وأول ما بدأت الصلاة سلمني جدي إلى رجل من معارفه يعمل في نظافة المعبد . وضعني الرجل بين جمع من الأولاد يجلسون صامتين وأمامهم كاهن يتلو عليهم (سفر الخروج) . وعندما فرغ بدأوا كلهم في ترتيل (مزامير داوود) من الذاكرة وبصوت له إيقاع. شعرت بالغربة أول الأمر إلا أني شيئاً فشيئاً بدأت أجاريهم . أحرك شفتيّ وأهز رأسي كما يفعلون.

قال لي جدي ونحن في طريق العودة:

ـ انبسطت ياجلجل.

أجبته بلا مبالاه:

ـ آه انبسطت . بس لو كنا رحنا السيما كان أحسن.

ربت على كتفي:

ـ السبت الجاي كلنا رايحين . حتى ماما لو مرضيتش تيجي معانا هنكتفها أنا وأنت بحبل كبير هيلا بيلا وناخدها معانا .

انفجرت في الضحك وقلت:

ـ ولو نامت في السيما زي المرة اللي فاتت نسيبها على الكرسي ونروح احنا على البيت.

ـ ضرورى . علشان تحرم.

باغتني بعدها:

ـ وحفظت حاجة من مزامير داوود.

- مين داوود دا يا جدي.

- داوود . وحد ميعرفشي داوود . دا نبي من أنبيائنا.

أردف بعدها :

- وزكريا كمان نبي . ويعقوب وإسحاق وموسي . كل دول أنبيا وغيرهم كتير.

ثم تأملني وأضاف بلهجة عتاب خفيفة:

- مش لازم تعرف الحاجات دي يا جلال .

سألته :

- وسيدنا محمد هو كمان راخر نبي .

انحني بقامته نحوي ، وقال بصوت أقرب إلى الهمس:

- بتقول أيه ! سيدنا مين !

- سيدنا محمد ياجدى ! أصل أنا بسمع الأولاد في الشارع بيتكلموا عنه. وبيحلفوا بيه كمان .

شمخ برأسه قليلا إلى أعلى ثم التفت إليّ وهو يهرش أسفل شاربه:

- ولا تزعل يا أستاذ جلجل . ومحمد كمان نبي.

* * *

(٦)

كبرت قليلاً فأصبحت المختص بشراء الفول المدمس بدلاً من إمرأة البواب.

تناديني أمي بصوت عذب منغم:

- جلال . واد يا جلال . يا جلجل.

تظل تنادي عليّ حتى أفتح عيني فأري أشعة الشمس قد تسربت من بين فتحات شيش النافذة المغلق ، وتمددت على الجدار المواجه لي.

وأتذكر الفول فأقفز في الحال من الفراش . ثانية واحدة في الحمام ، ثم تضع لي أمي الشبشب في قدميّ ، وتشمر لي بنطال البيجامة ثلاث شمرات على الأقل . وساعات كانت تثنيه عدة ثنيات من عند موضع الأستك ، أو ترفعه كله من الوسط حتى يصل إلى أول صدري . فجدي كانت له سياسة خاصة بشراء ملابسي . يشتريها دائماً بمقاسات أكبر لتكفيني من ثلاث إلى أربع سنوات ، ولا يهم أن أبدو فيها كالعبيط.

تسلمني أمي السلطانية والقرش صاغ . وتنبه عليّ أن أمشي على الرصيف . وألا أكلم أحد ، وبعد أن يفرغ عم محمد من وضع الفول أطلب منه مغرفة إضافية .

كانت فى الأول تشدني من أذني وهي تحفظني هذه التعليمات .

توقفت بعد ذلك عن هذه العادة بعدما أثبت لها جدارتي بهذه المهمة .

الحق أن الأمر كان في بدايته مشكلة .

ففي أول يوم نزلت فيه حاملاً السلطانية فوجئت بزحام حول دكان الفول . حلقة أشبه بحدوة الحصان مؤلفة من صبيان وبنات . وناس بجلاليب أفرنجي وبيجامات . ونسوة وبوابين . الكل يحيط بالطاولة الرخامية للمحل ، والحال ما بين زغد وشتائم خفيفة وضرب بالكوع .

لم أجرؤ على الاقتراب . وقفت كالتائه برهة طويلة بل وفكرت فى أن أعود.. لا أعرف من أين أتتني الحمية مرة واحدة ودخلت فى المعمعة أنا الآخر . أخذت أعافر بجسدي متخذاً من السلطانية ساتراً أحمى به رأسي ، ومن لطف الله أن كانت المنطقة التي تسللت منها بعيدة عن الصراعات وضربات الأكتاف ، فأستغليت نحافتي وقصر قامتي وفتحت لي ثغرة بين الأفخاذ والركب نفذت منها حتي وصلت إلى عم محمد. وكللت مهمتي بالنجاح عندما شببت على أمشاط قدمي ووضعت ذقني على حافة الطاولة الرخامية ،لأجد نفسي وجها لوجه أمام قدرتَى فول مهيبتين.

صحت بوجهي المدهوش وصوتي الرفيع:

- بقرش فول يا عم .

تأملني ثانية واحدة ، وقال بصوت نافذ الصبر:

- حط السلطانية علَى البنك وجنبها القرش .

ولما فعلت أردف بصوت متعجل :

- فول ساده ولا بزيت . والزيت طيب ولا حار . ولا الفول بالسمن.

لم يكن هذا الأمر ضمن التعليمات التي تلقيتها ، فأدركت أني في

ورطة ، وكعادتي في مثل هذه المواقف قطعت النفس والكلام. اكتفيت بالنظر ببلاهة فى وجه عم محمد إلي أن التقطت عيناي شاربه فاستقرت عليه . كان والحق شارب مسخرة ومركز جذب لطفل مثلى.. محروقاً حرقاً طازجاً ومنكوشاً شعرة هنا وشعرة هناك ، ومساحة لا يستهان بها ممسوحة تماماً وليس بها شعرة واحدة . والشارب كله ليس بنفس اللون الأسود ، الأطراف خصوصاً تميل إلى اللون الذهبي القاتم . ربما أتت المشاكل التي يعاني منها هذا الشارب ، من صهد نار الموقد ولسعات زيت الطعمية التي لا ترحم.

صاح فيّ والرذاذ يتساقط من فمه:

ـ إنت إبن مين ياوله.

لم يسألني أحد هذا السؤال من قبل فازداد ارتباكي ، خاصة أنه لم تكن بذهني إجابة حاضرة ولا أعرف حتى بقيه اسم أبي . ازدرت ريقي ولم تحد عيناي عن الشارب الذي اتخذته هدفاً لي ، وهو يرميني بنظرات من نار ويستحثني بهزات من رأسه كي أنطق . وبصراحة خفت منه وأحسست بقطرة بول فى سروالي . وما يدريني فقد يرميني بمغرفة الفول التي في يده ، وإن لم يفعلها هو فأكيد سوف أتعرض للإهانة من الناس الذين شاطت فيهم النار من هذه العطلة.

شخط بشخونة:

ـ طب يللا ياوله من هنا . يللا يللا . وسع لغيرك.

كان لابد من أن أتصرف ، فقلت بتعلثم:

ـ ابن الخواجة زكي الأزرع.

حملق فيّ مليا :

ـ كده ! تبقى انت بأه ابن الست كاميليا .. هو انت جلال .

هززت رأسي بالإيجاب ، فقال متبسماً.

ـ خلاص يبقي الفول ساده.

وبعد أن أفرغ الفول في السلطانية قلت بثقة:

ـ وكمان مغرفة .

ضحك بصوت عال وأزادني مغرفتين.

صرت بعدها أصغر وأعز زبون لديه . يلقاني ببشاشة وقبل أن أطلب المغرفة كان يقول :

ـ وآدي مغرفة كمان ياسي جلجل . وسلم لى على عم زكي.

ظللت أروح وأجيء كل يوم بسلطانية الفول على نحو آلي . أمشي على الرصيف ولا أنحرف بوصة عن المسار الذي حددته لي أمي ، حتي اكتشفت أن الأمر لا يتطلب كل هذه الحيطة وشيئاً فشيئاً زالت رهبتي من الشارع وألفت ناسه . عم حسني الباشكاتب الذي يبدو وكأنه دائماً على عجلة من أمره . يخرج مسرعاً من باب العمارة ، فتنادي عليه زوجته من الشرفة .يتطلع إليها متأففاً وهو ينظر في ساعته . تسأله : أين ترك لها مصروف البيت ؟ أو تلقي له المنديل أو المنشة وعلبة السجائر.

تملأ الضحكة وجهه ويقول وعيناه تتطلعان إلى زوجته:

ـ أى والله . العجلة من الشيطان.

ويلتفت فيجدني إلى جواره ممسكاً بالسلطانية. يشدني من أذني مداعباً .

ـ أيوه كده يا جلجل . شد حيلك.

لا ينتظر مني إجابة. يكمل سيره على نفس الوتيرة المسرعة ، وتظل امرأته واقفة تتبعه بنظراتها من أعلى حتى يواريه الشارع .

وصبي الحاج محمود العطار وهو يسحب مقعداً من مقلة اللب المجاورة . يجلس عليه حتي يأتوه بالمفتاح . وعم طلبه الكناس ببدلته الحكومية المهترئة ممسكا بمقشة تعلو عصاها عن مستوي كتفه . يكنس دقيقة ويتلكأ عشرة .

وعند أول ناصية كنت أدخل إلى الشارع المجاور وسلطانية الفول الفارغة في يدي ، أو واضعاً إياها على رأسي كأنما هي قبعة . أتأمل واجهات المحلات . البقالة والخردوات وكشك السجائر أو حتى فرن الخبز، وعندما أصل إلى محل الزهور ذى الفاترينة التي يسح منها الماء أقف منبهراً !

وبدأت أنتبه إلى ما ينبعث من راديو قهوة أبو عوف ، وأطرب لسماع الأغانى التي تذاع في أول الصباح . أم كلثوم وهي تغني: محلاك يا مصر وإنت عاالدفة ، أو عندما تحنو بصوتها وتقول : على بلد المحبوب وديني . ومحمد قنديل الذي يغازل بصوته ويقول : جميل وأسمر . والموسيقى .. موسيقى أغنية الله أكبر . ومحمد عبدالوهاب الذي يتألم ويقول :أخي جاوز الظالمون المدى ، لم أفهم وقتها شيئاً مما كان يقوله لكن قلبي كان يعرف هذه الأغنية من دون باقي الأغاني.

والذي سحرني أيامها ولايزال باقياً في أذني إلى الآن هو صوت الشيخ الدمنهوري . لم أكن أعرف أن ما يتلوه هو القرآن . انجذبت إليه دون أن أفهم ما يقول . خلبني . وتملكني إحساس بأنه رجل طيب ويحبني كما أحبه . وبت أتلكأ أمام القهوة حتى يفرغ من القراءة .

وبدأت أصنع له صورة في مخيلتي . لحية بيضاء .. ووجه مستدير .. وعمامة أكبر من عمامة المعلم حبيب .. وعصا يتوكأ عليها وهو سائر .

كنت لا أزال مشوشاً والدنيا كلها مبهمة عليّ ، فسألت أمي عما يقوله الشيخ الدمنهوري . لم تجب . وعندما زاد إلحاحي قالت بلا مبالاة :

ـ دمنهوري ! ومين الدمنهوري ده !

ـ بسمعه في الراديو بتاع قهوة أبو عوف .

ـ وأيه اللي يخليك تتلطع جنب القهاوي . علشان كده بتغيب بالساعة كل ما أبعتك تجيب الفول.

ـ وأنا أعمل أيه ما هي القهوة في سكتي.

دفعتني بإصبع السبابة في ظهري :

ـ طيب يللا يا فالح علشان تفطر.

وقبل أن أغيب عن نظرها أردفت بحزم :

ـ وإياك تتلطع هنا ولا هنا تاني . أنا هقف لك في البلكونة من هنا ورايح .

وجدتي الجالسة على الكنبة ، ترمقنا بوجه متجهم وتنخرب بعود كبريت في ضروسها التى ضربها السوس .

* * *

(٧)

كنا فى طريق العودة من عند بائع الفول أنا وحسن أخي في الرضاع. أخب في البيجامة الواسعة ، والسلطانية على كف يدي أتمايل بها يميناً ويساراً دون أن تسقط منها حبة فول واحدة.

وأصيح :

ـ وسع وسع .. وسع لجلجل الخطير .. أيوه الخطير .

ينظر حسن إليّ متعجباً فأتحداه أن يفعل مثلي . يهم بالمحاولة فترتعش السلطانية في يده ، ويبدأ ماء الفول في الانسكاب على حوافها . يتوقف ويتابعني بغيظ . معذور .. فثلاثة أشهر كاملة وأنا أشتري الفول وأتدرب على هذه المسألة ، وهو لا يزال مستجداً لم ينزل الشارع إلا من يومين.

تذكرت حديثي مع أمي عن الشيخ الدمنهوري ، فكففت عن اللعب وسألته :

قال باستغراب : ألا تعرفه .قلت : لا .

ـ دا كلام ربنا يا عبيط . دا القرآن . هو فيه حد مسلم ميعرفش القرآن.

ـ مسلم !!

ـ أيوه مسلم .

وجدني أنظر إليه فأردف مدهوشاً:

ـ وهو انت يا خايب متعرفش إنك مسلم . دا انت مسلم ونص. أمك

وأهلهاياحفيظ يارب هما اللي يهود .

- يهود !!

- أيوه يهود . ويارحمن يا رحيم عليهم يوم القيامة . على النار حدف.

استندت بظهري إلى جدار العمارة ، وهو لا يزال يقول :

- وانت كمان لازم تصلي وتصوم وتحفض القرآن وإلا هتخش النار.

ولما رآني أحدق فيه :

- أيوه هتخش النار. ومش كده وبس دا قبل ما يرموك في النار الملايكة هتنزل ضرب فيك بمرزبة حديد.

- أنا !!

- أمال إنت فاكر أيه . وكل مرزبة فيهم قد عمود النور وموّلعة نار .

سألته عن أهلي :

- أهلك . دول أول ناس هتخش النار .

همست بصوت خائف :

- وماما !

- طبعاً .

- وجدي ؟ جدي هو كمان هيدخل النار.

فأجاب بحسم :

- جدك دا أيه ! دي الملايكة قاعدة مستنياه مخصوص وأول ما ييجي يوم القيامة هيجروا وراه ويمسكوه من رقبته وينزلوا فيه ضرب . ولما يتعبوا من الضرب وأيديهم توجعهم هيشيلوه من إيديه ورجليه وهيلا بيلا ويحدفوه في الولعة.

صحت فيه بغضب :

- إنت كداب وستين كداب . أبوك وأمك هما اللي هيخشوا النار.

- يعني منتش مصدقني.

- أيوه مش مصدق يا كداب يا وسخ.

- يا عبيط هما الله هيخشوا النار مش إنت . إنت مسلم وهتدخل الجنة زيك زينا.

قلت بصوت خافت :

- وعرفت منين.

- عرفت ! وهو أنا وحدي اللي عارف . كل الناس عارفه . طب إسأل كده أي واحد ماشي في الشارع وهو يقولك.

ارتقيت الدرج بخطوات واهنة ، وتركته يناكف مع امرأة البواب.

لحق بي على البسطة الثانية ، وقال وهو يلهث :

- يللا نحط سلاطين الفول على جنب ونتسابق على السلم زي امبارح.

لم أجب.

- هنشوف مين اللي يطلع السطح الأول .

وضعت قدمي على الدرجة التالية دون أن ألتفت إليه.

- يللا يللا بلاش غلاسة .

ووقف يتابعني باستغراب وأنا أصعد مبتعداً ، حتى نقرت بأصابعي على شراعة الباب.

كانت جدتي تسترخي بكل جسدها على الكنبة وفي يدها مرآة صغيرة تقربها وتبعدها عن وجهها ، وفي اليد الأخرى ملقاط تنتش به الشعيرات السوداء النابتة فوق شفتها العليا.

عندما كانت جدتي بنت صغيرة كان الأمر مجرد زغب خفيف. المشكلة أنه بمرور الزمن اشتد عود هذا الزغب وصار له قوام كقوام الشعر تماماً ، وتناثر بكثرة في هذا المكان المهم . لفت جدتي على المستوصفات وعملت كل الوصفات البلدية ولا فائدة . لم ينجح أحد في السيطرة على هذا الزغب أو وقف نموه . والذي أزاد الأمر تعقيداً أنها لو غفلت عنه أسبوعاً واحداً يصبح مشروع شارب ، فجن جنون جدتي وأصبحت تلاحقه دائماً بالملقاط حتي لاتفضحها نسوة العمارة.

نحت جدتي الملقاط واستدارت بوجهها نحوي.

- اتأخرت ليه ياولد . أهو جدك نزل من غير فطار.

أجبتها بصوت جاف :

- وأنا هعمل أيه يعني . شوفوا حد غيري يجيب الفول . وبعدين جدي قايل من امبارح إنه نازل من بدري ومش هيفطر معانا.

أمسكتني أمي من ياقة البيجامة :

- عرفنا يا فالح . بس الكلام يكون مع جدتك بأدب .

لم أرد وأعطيتها السلطانية بلا اعتناء ، فمالت منها وانسكب بعض ما فيها على صدر جلبابها.

صرخت في وجهي :

- مالك ياوله . فيك إيه .

قلت وأنا أشيح بيديّ في وجهها.

- خلاص عرفت اللي بيقوله الشيخ الدمنهوري.

- عرفت أيه يا ناصح .

- بيقرا قرآن .

- ما يقرا اللي يقراه . واحنا مالنا.

ووضعت يدها على رأسي ، وهي تكمل بنبرة أقل حدة :

- وهو إنت ماتعرفش يا حبيبي إننا يهود وكتابنا التوراة . إحنا يا جلال حاجة وهما حاجة .

- يهود !

- أيوه يهود !!

- كلنا يهود !

وبدأت جدتي في تشمير أكمامها وهي ترمقني بعينيها ، أما أمي فأومأت رأسها بالإيجاب. فقلت :

- كلنا كلنا !

- أيوه أنا وجدك وخالك وخالتك . كلنا كلنا.

- وأنا كمان !

لم تجب.

باغتها سؤالي فلم تعرف ما الذي تقوله . اكتفت بالتحديق في وجهي ، وبدا طيف ابتسامة حائرة ومرتبكه يلوح على شفتيها. ملامح وجهها كلها كانت تقطع بأنها في أزمة ، وأن رأسها فارغة تماماً من أية إجابة . كنت صغيراً وقتها فلم أفهم سبب حيرتها أو أرحمها.

انزلق مني لساني :

- أصل العيال بتقول إني مسلم وهدخل الجنة . وإنتوا كلكم رايحين النار.

وفي قفزة واحدة كانت جدتي فوق رأسي .

شل تفكيري من المفاجأة وانكفأت بكل جسدى على شلتة الكنبة .

ولم تدع هي لي بالطبع أية فرصة للإفلات ، فبحركة خاطفة من حركات فريد شوقي لفت كوعي إلى ما وراء ظهري . أما أذني اليمني - وبأكملها - فصارت في قبضة يدها الأخرى ، تلفها يميناً ويساراً وتشدني منها إلى أسفل حتى ركعت على الكليم وعوائي يتردد في جنبات الشقة . لم توقف جدتي هجومها ، إلا لما استسلمت وتمددت على ظهري وكتفاي يلامسان الأرض كما يحدث في حلبات المصارعة . وعندها وضعت ركبتها فوق بطني ، وبدأت في الزعيق :

- عيال مين يا وسخ يا إبن الوسخ . نار لما تلسعهم هما وأهاليهم . ومالهم اليهود يا حبيب أمك ، دول أسياد الناس يا إبن الجزمة . وهو انت تطول .

وأمي تلف من هنا ومن الناحية الثانية وتناور بكل طاقتها لتفك أسري . ستر الله هو الذي أنقذني . سمعنا طرقاً على الباب فرفعت جدتي ركبتها قليلاً واستدارت نحو الباب ، وأصابعها - وبلا وعى منها - ترتخي شيئاً فشيئاً عن شحمة أذني فانتهزت الفرصة وأفلت بجلدي . همت أمي بفتح الباب فصاحت فيها جدتي بألا تفعل وإلا أفلت إبن الكلب - تقصدني - وهرب إلى الشارع . كنت على بعد ياردتين منها ، أتلفت حولي كالفأر الفالت لتوه من المصيدة وأذني الحمراء كالدم تون من الألم فصحت فيها بكل عزمي :

- أنا مش يهودي ومش هدخل النار زيك يا أم منقار.

كنت أعرف أن هذا هو اسمها الكودى الذي تتداوله نسوة العمارة

سراً ، ومن غيظي انطلق على لساني رغماً عني ، فقامت عليّ بفردة الشبشب وأنا أجري أمامها.

ـ جاك خابط في نافوخك إنت واللي جابك . وكمان بتقل أدبك . أنا أم منقار يا ابن البرطوشة . هي دي آخرة الرباية والمصاريف .

وأمي في ذيلنا .

ـ مش كده يا ماما . هتعملي عقلك بعقله.

ويرتفع صوتها :

ـ قلنالك يا ماما أنا وبابا قبل كده ميت مره ملكيش دعوة بالموضوع ده.

ـ مليش دعوة إزاي . قليل الأدب وعايز يتربي . مش سامعه بيقول أيه . وكمان لازم يعرف إنه حته من أمه اللي ولدته وشايله همه . يبقي زيه زيها . إن كانت يهودية يبقي يهودي . وإن كانت عفريت أزرق يبقي هو كمان عفريت أزرق .

كنا نجري وراء بعضنا من مكان إلى آخر . لم تنته المعركة إلا لما احتميت بالبلكونة . خافت جدتي من الفضيحة لو رآها الناس في الشارع على هذا النحو ، فوقفت على باب البلكونة وقذفتني بفردة شبشبها في وجهي .

حسم جدي الأمر عندما أتى في المساء.

انتحى بأمي وجدتي في غرفته وأغلقوا الباب عليهم ، وأنا ممدد على الفراش عيناي متورمتان وخرابيش أظافر جدتي لا تزال على وجهي وعنقي . كانت أصواتهم تعلو أحياناً وأسمع جدي يحذر جدتي بصوت قاطع من مغبة ما فعلت ، وأن ذلك سوف يفسد كل شيء عندما أذهب

مع أمي لرؤية أهل أبي.

خرج جدي بعدها وهما وراءه .. قال بوجه جاد :

- ياجلال يا ابني إنت مسلم . شهادة الميلاد بتاعتك مكتوب فيها كده. الشهادة عندي يا ابني على سبيل الأمانة ولما تكبر هسلمهالك.

ابتلع ريقه وأردف:

- يا ابني موسى وعيسى ومحمد إخوة . واحنا هنربيك ونعلمك ونكبرك وأنت حر بعدها . عايز تدخل في دينا أهلا وسهلا وألف مرحب بيك . عايز تفضل مسلم إنت حر واحنا برضه أهلك.

وطلب مني أن أنهض وأقبّل يد جدتي ففعلت .

* * *

(٨)

خرجنا أنا وجدي ذات مساء للعزاء.

رأيته جالساً على الكنبة بملابس الخروج وبيده فرشاة ينظف بها حواف الطربوش . سألته أن آتي معه . قال :إنه ذاهب للعزاء واقترح عليّ اللعب مع الأولاد على بسطة السلم . أعدت الطلب فصمم على الرفض، ولما ازداد إلحاحي قال بصوت مرتفع :

ـ وبعدين يا جلال قلتلك لأه يعني لأه . المطرح ده يا ابني مش للصغار . استني هنا مع الماما ولا روح العب مع العيال.

بدأت فى استخدام أول أسلحتي . أشحت بيدي في الهواء غاضباً، وأسرعت إلي الغرفة وأنا أصيح بصوت فيه رعشة الانفعال.

ـ أنا مبحبكش .خلاص.احنا متخاصمين ومش هتكلم معاك تاني.

وأغلقت الباب بشدة وتمددت علي السرير وشددت الكوفرتة حتى رأسي ، ولم أغفل بالطبع عن تدبير ممر صغير بين ثناياها لمتابعة ما يجري حولي .

هما دقيقتان فقط وسمعت صرير الباب ، وجدي يطل منه.

ـ هو الأستاذ جلجل زعلان ليه . ويقدر جده يخرج من غيره.

ادعيت النوم وكأنى لا أسمع فتبسم جدي . أغاظني تبسمه . أحببت أن أؤكد له أن الأمر ليس كما يظن وأنا نائم بالفعل ، فبدأت في

الشخير بصوت عال . أصبحت ابتسامة جدي ضحكة وجلس على حافة السرير. أدخل يده من أسفل الكوفرتة يدغدغني في باطن قدمي وأنا أتملص منه، فينتقل إلى بطني ثم تحت إبطي إلى أن هببت ضاحكاً. ووجهه يتأملني.

أسرعت كالبرق إلى الشماعة وخطفت قميصي المتدلي عليها فألبسني إياه . وانثنى على ركبتيه ووضعه فى الشورت وشد الحمالات عليه . ولم يسلم الأمر من قرصة فى جنبي على سبيل المداعبة أو شدة سريعة لحلمة أذني وأنا أتلوى وأبادل ذلك بقبضات في بطنه وصدره أو عضة في كتفه إن تمكنت .

وخرجنا وراء بعضنا وأمي توصيني ألا أترك يد جدي أبداً فالدنيا ليل ، أما جدتي فكانت تلاحقنا بنظراتها متأففة من هذا الدلع الماسخ.

عبرنا شارع الخليج المصري ، ومن شارع إلى آخر حتى وصلنا إلى سرادق مهيب فى أول شارع النزهة من ناحية ميدان الجيش ..كان السرداق للعزاء في والدة تاجر كبير من تجار المانيفاتورة في شارع الأزهر، يضع جدي فاترينته أمام محله.

كان الرجل على الباب يتلقى الناس . شد على يد جدي بمحبة والتفت إليّ مستغرباً . علت صفرة خفيفة على وجه جدي وطأطأ برأسه وهو يقول بصوت خفيض :

ـ متأخذنيش ياسي الحاج . أنا عارف إنه عزا ومفيش مطرح للصغار. لكن أعمل أيه الواد شبط فيه . أنا محقوق لك يا سي الحاج .

لم تبد على الرجل أى ردة فعل لكلام جدي . انشغل بي ومال برأسه يسألني عن اسمى. تشجع جدي وأجاب بدلاً عنى :

ـ هو ده جلال ابن بنتي اللي حكيت لحضرتك عنه.

تأملني لحظة ثم أدخل يده في عبه فتدلى كم الجلباب الواسع إلى مرفقه ، وبان ذراعه بضا ممتلئاً يكسوه شعر مائل إلي الصفر وبإصبعه خاتم كبير بفص ياقوت . أخرج ورقه بخمسين قرشاً ومد يده بها إليّ . رجعت خطوة للوراء من الخجل وأنا أنظر لجدي ، فقال لي بصوت آمر:

ـ خدها يا جلال وبوس إيد عمك الحاج . دا احنا عايشين في حماه.

أشار الرجل إلى مقعدين بعيداً عن الأرائك الموضوعة في صدارة السرادق فجلسنا عليهما. وهمس جدي في أذني مكرراً ما قاله في الطريق عشرات المرات ، بأن أظل ساكتاً ولا أفتح فمي بكلمة واحدة. وكنت أتابعه وهو ينتفض من فوق مقعده كلما مر أمامنا تاجر من تجار الأزهر الذين يعرفهم . كان جدي ينحني له برأسه قليلاً ويظل يعلو ويهبط بيديه من أعلى جبهته حتى صدره إلى أن يمضى من أمامه . كانوا يردون عليه بمودة ومنهم من كان يربت على كتفه.

كان الشيخ عبدالباسط عبدالصمد هو المقرئ . وأول ما تنحنح ، وقال « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم» تأهب الناس للسماع وكان بعضهم يشير للآخرين وللخدم حاملي صواني القهوة والماء البارد بأن يلتزموا الصمت . وأمسك جدي بمرفقي بشدة محذراً أن يصدر عني أي نفس ، حتى الداخلين من باب السرادق كانوا يسرعون للجلوس على أقرب مقعد .

آية.. فالثانية وحل سكوت عميق .. ليس في السرادق وحده بل وخفتت أيضاً الأصوات الآتية من الدكاكين والمقاهي والبيوت التي فى أول الشارع وفي الميدان . وكان بالقرب منا رجل يهب واقفاً مرة واحدة

عند كل قفلة من القفلات المتقنة التي يجيدها الشيخ ، ويدعو له بصوت مسموع أن يطيل الله في عمره ، والناس الذين حولنا يؤمنون على ما يقول . جدي نفسه كان متأثراً بالقراءة ويهز رأسه مستمتعاً ، وإذا التقت أعيننا كان يحتويني بنظراته وعلى وجهه مسحة حنو حزينة.

أخذنا كلنا الانفعال ونشوة كأنها السحر ، ووجدت نفسي أنسل شيئاً فشيئاً عمن حولي وقلبي يحتشد برهبة لم أعرفها من قبل . وانفجرت مرة واحدة في البكاء ، وبصوت عال أثار إنتباه المعزين .

قام جدي مفزوعاً وهو يتلفت حوله. كان خائفاً من أن يكون صاحب العزاء قد رآنا ، ولما اطمأن على انشغاله مع وفد من المعزين الكبار خطفني من على المقعد وحملني وهرول مسرعاً إلى الخارج.

كان بالميدان محل عصير قصب .

أخذني إليه وطس وجهي بكوب ماء وطلب لي (شوب) عصير فاكتفيت منه برشفة واحدة . لم يشأ جدي إرجاع (الشوب) كاملاً على هذا النحو فأكمل الباقي ، وحملني على صدره .

كنت أسمع نبضات قلبه .. كانت عالية وأسرع من المعتاد .. انشغلت بها عما ألم بي حتى أني كنت أعدها على أصابع يدي كما كانت تعلمني أمي .. ولم يكف هو عن الطبطبة على ظهري .

غير أن نوبة البكاء عاودتني ثانية ونحن بالقرب من المذبح الإنجليزي ، ولكن بنهنهة هذه المرة مع شرقة في الزور . ارتكن جدي بظهره على السور وأخذ يقرأ على رأسي من الكتاب المقدس وتعاويذ كثيرة كان يحفظها.

وعندما هدأت قلت له بصوت مبحوح :

ـ أنا بحبك قوي يا جدي ..عايزك تبقى مسلم علشان متدخلش النار.
قبلني في وجنتي وسكت ، فقلت :
ـ خلاص أنا هبقي يهودي زيي زيك .
أحسست بخده يلامس خدي ويداه تطوقاني بضغطة خفيفة ، ويبدو أني نمت فلم أشعر به وهو يصعد بي السلم ويدخل إلى الشقة .
رأيت ليلتها حلماً مرعباً .
كأن أمي تسير بقميص نوم شفاف وقصير فى شارع خال من الجانبين، والدنيا كلها هس هس .. لا نفس أو شيء يهمس أو يتحرك على طول البصر.. لا سيارة ولا بشر أو حتى شيء فيه الروح .. الناس كانوا هناك .. فى أعلى .. صامتين وينظرون إليها من فتحات الشبابيك بعيون ماكرة ..لئيمة .. جارحة .. كانوا مشغولين بالتحديق في جسدها الذي بدا أكثره عارياً .. وأنا أعدو خلفها بكل عزمي .. ورغم أني كنت أنهج وأزيد من عدوي إلا أن المسافة التي بيننا كانت تزيد ولا تنقص .. هدني التعب وكأني سوف أهوي على الأرض وهى تكاد تغيب عن عينيّ .. وفجأة سمعت صلصلة عالية ومتواصلة آتية من مكان قريب .. قبل أن أتبين مصدر الصوت كان تراماً من عربة واحدة قد خرج عليها من شارع جانبي .. دهسها وولى بعيداً .. انخلع قلبي حتى أني كنت أسمع دقاته وأنا نائم .. وأحسست أن العجلات الحديدية للترام تطأ عظامي أنا وليس عظامها .. وقمت من النوم مفزوعاً والصلصلة لا تزال ترن في أذني.
كانت ترقد إلى جانبي..
لمستها بأصابعي وقلبي مازال يدق .. الذراع .. الكتف .. العنق

والوجه .. وشيئاً فشيئاً أدركت أنه مجرد حلم وأمي لم يأكلها الترام ..
قمت على مفتاح الكهرباء وأضأت الغرفة .. لم تنتبه إلى حركتي
واستمرت في سباتها.. وجهها ساكن وشعرها الطويل ينسدل على
الوسادة ، وبدت رموشها أكثر طولاً وهي مغمضة العينين .. ولفت نظري
أن قميص النوم الذي ترتديه هو نفسه الذي رأيته في الحلم.

عدت إلى الفراش والتصقت بها مستمتعا بالدفء الذى يشع من
أكتافها العارية ، فاستدارت إلى واحتوتني بذراعيها وعيناها لا تزال
مغمضتين.

* * *

(٩)

استمرت جدتي في شرب النبيذ الأحمر ، رغم الوعود التي قطعتها على نفسها بالاقلاع عنه .

تقول لها أمي بعتاب غاضب : كفي فضائح فنسوة العمارة يتشممن رائحة فمك ويتغامزن عليكي . تمتعض جدتي وتسبهن بأمهاتهن وتقول: إنهن لسن أحسن حالاً منها فأزواجهن يحششون طول الليل على المقاهي، وهن أنفسهن لايتورعن عن أكل الأفيون لو واتتهن الفرصة.

ـ طب حتى داري القزازة من وش الستات لما ييجوا.

ـ إنتى قصدك لما دخلت علينا اسمها أيه دي على سهوه . آه افتكرت افتكرت . مرات الباشكاتب جاها ضربة في صرصور ودنها.

ـ أيوه يا ست ماما هو دا اللي أنا قصدي عليه.

وتضيف أمي وحاجباها يرتفعان قليلاً :

ـ وكمان اللطشة وتقل اللسان لما كانت أم حسن عندنا من يومين . ولا ساعة لما جم يسألوا عن صحة بابا.

ـ لطشة مين يا قليلة الأدب . لطشة لما تلطش نافوخك إنتي وابنك في ساعة واحده.

ولولا أن أمي عرفت حدودها وأسرعت إلى غرفتها ، لكانت جدتي

قذفتها بمقص الخياطة الراقد في حجرها .

لم يحسم الأمر إلا جدي.

كان راجعاً من الشغل في يوم من أيام شهر بشنس حيث الحرارة والزمته تفريان البدن . بوادر الأنفلونزا على وجهه ومهدود من المناهدة مع الزبائن طول النهار .أسرعت وأخذت منه الحقيبة الجلدية والطربوش ، ودخل هو إلى غرفته . أما نحن فمكثنا في انتظاره والعشاء أمامنا . زعيقه هو الذي أتانا . عرفنا فيما بعد أنه وجد نبيذا مسكوباً على الفراش . يبدو أن جدتي اتسلطنت وهي جالسة في غرفتها بعد الغذاء وأخذت تتبادل الأنخاب مع نفسها ، تعب كأساً في جوفها وتلقي بالآخر على ملائة السرير.

خرج جدي علينا بالفانلة أم حمالات على بنطلون البيجامة وكيس المخدة في يده . ألقاه في حجر جدتي وهو يصيح :

- حتى دا كمان غرقان زفت .

ولم تسكت جدتي بالطبع.

كانت ترد عليه الكلمة بواحدة مثلها وأحياناً بثلاثة فازداد هياجه . ظللت أتابعه وهو يلف في الشقة باحثاً عن زجاجات النبيذ . جسده نحيل ليس فيه دهن أو حتى فتفوتة عضل ، عروق في عروق ووجهه من شدة الغضب أصفر كحبة الليمون . أما صوته فكان أكثر الأشياء غرابة في الموضوع ، لم أتخيل أبداً أن عروق رقبته قادرة على الانتفاخ إلى هذا الحد ، وحنجرته تستطيع إخراج كل هذا الصوت العالي.

كان يجثو على ركبتيه أمام الكنبة ويدخل بجسده كله أسفل سرير جدتي، وفتش غرفتنا ودولاب المطبخ والصندرة وباقي مخابئ جدتي .

أتى بعشر زجاجات كانت مخزونة فى كرتونة ، انتظاراً لمرور عم يونس بائع الروبابيكيا . وعثر في سبت الغسيل على زجاجة ملفوفة في بنطاله لا يزال بها رشفتين أو ثلاثة .

أكيد هذه الملعونة هي سبب المشكلة . دشها جدي بضربة واحدة على بلاط الحمام، وفتح الباب منادياً على عم إدريس كي يتصرف في كرتونة الفوارغ . أما جدتي فانزوت في طرف الكنبة وأخرجت منديلا من عبها تمسح به دموعها.

لم أر جدي على هذا النحو ، لا قبل هذه المرة ولا بعدها ، لكن الحمد لله تابت جدتي من يومها عن شرب النبيذ.

بقى جدي وجدتي متخاصمين شهراً كاملاً . لم يتصالحا إلا فى إحدي ليالي الصيف حيث كنا جالسين في الشرفة وأمامنا اللب والترمس والفول السوداني . لازلت أذكر البيجامة الرمادي ذات الخطوط داكنة الزرقة التي كنت أرتديها في هذه الليلة ، وجدي يدخل علينا ويداه تخفي لفافتان وراء ظهره . أسرعت إليه فقال : هذه اللفة لا تخصك ووضعها أمام جدتي . فتحتها وأخرجت منها زجاجة بيرة من الحجم الكبير (وشوبين) طويلين ماركة (زوتوس) . تبسمت له جدتي ومن يومها انتقلت رسمياً إلى شرب البيرة.

حوت اللفة الثانية حصاناً وعليه فارس يشهر سيفه عالياً . كانت الأيام وقتها أيام مولد ويبدو أن جدي أحس بي وأنا أتطلع إلى الأولاد والبنات ، وهم يسيرون بصحبة آبائهم حاملين العرائس والأحصنة الحلاوة.

ظللت برهة أصيح وأقفز على بلاط الشرفة وأمي تتابعني بفرحة ، ولم تجد جدتي بأساً فى ذلك إلا أنها طلبت من أمي أن أسرع بأكل

الحصان حتى لايأتي بالنمل إلى الشقة.

لم تقف مفاجآت جدي عند هذا الحد . سأل أمي إن كانت أخبرتني عن سفرنا باكر.

تطلعت إليها مشدوهاً ، فقالت : إننا سوف نذهب سوياً لرؤية أهل أبيك.

قلت لها : كلنا.

قالت : لا . أنا وأنت فقط .

كان وجهها غريباً وهي تكلمني ورغوة رقيقة تخيم على بياض عينيها . حانت في بالي لحظتها كل الصور التي صنعتها في خيالي لأبي ، وتاهت أمي هي الأخرى بنظراتها حتى أنها لم تنتبه إلى جدتي وهي تقول لها :

- إوعي ترجعي وإيدك فاضية . الولد مصاريفه كتيرة.

ولا لجدي الذي طلب من جدتي ألا تشقل عليها ، فهي الأدرى بمصلحة ابنها.

* * *

(١٠)

وصلنا بشق الأنفس إلى ميدان الكيت كات.

لم تشأ أمي ركوب سيارات الأجرة التي ينادون عليها بالنفر . قالت: سيارات الحكومة أرخص وأأمن . أشار عليها أولاد الحلال بباص عجوز يتصدر موقف الأرياف . أفهموها أنه السريع والمباشر بين الباصات المتوجهة إلى المنصورية ، وعادة ما يقضي المسافة في نصف ساعة.

كانت سلالم الباص عالية ومتآكلة ، ولولا أن أمي كانت تقبض على يدي بشدة لانزلقت من عليها . الحمد لله . صعدنا . وأول من شاهدناه هو السائق.

كان جالساً على مقعده ورأسه مدلاة على عجلة القيادة ويحيطها بذراعيه . لم تكن المسألة مجرد نوم من النوم العادي والبسيط كالذي ينتاب عم إدريس بواب عمارتنا أحياناً وهو جالس على دكته ، وإنما نوم غير عادي وبشخير . بل وفوق ذلك كان المسكين يهمهم بصوت مكتوم بين دورات الشخير وكوعيه يرتجفان بحركة تشنجية ، لاشك في أنه كان يعاني من كابوس أو يتشاجر مع أحد في الحلم.

وقفت أحدق فيه فشدتني أمي من ذراعي ، وأجلستني إلى جوارها على الأريكة التي خلفه.

أمي كانت مشدودة وكأنها خائفة وتعمل ألف حساب لهذا المشوار .

أما أنا ففي واد آخر . مشغول بالسائق وبالناس ذي الجلاليب والطواقي الذين يصعدون تباعاً إلي الباص ، والمشنات والقفف التي فضل أصحابها إدخالها من النوافذ وليس من الباب، وبكل جديد أراه . ولما بدأت في طرح الأسئلة عليها مالت نحوي واستحلفتني بالله أن أقفل فمي.

وصعد المحصل !

ألقى نظرة عابرة على الركاب ، ثم نزع المنديل الذي يحيط بياقة سترته الميري منفضاً إياه في وجوهنا. والتفت إلى السائق ، زغده زغدين في كتفه فاستيقظ واستدار نحونا . كانت جبهته حمراء قليلاً والخطوط التي علي المقود منطبعة عليها . تثاءب عدة مرات وانحنى على قلة بجواره . طس وجهه بحفنة ماء منها وأخذ يدندن بأغنية شعبية لشكوكو كانت منتشرة في ذلك الوقت. كنت أتابعه فلاحظ ذلك . تبسم لي وأدار محرك السيارة.

الحق أنه كان سائق رائق البال ، ومتمعن في أصول القيادة بطرق الأرياف.

أمسك بالمقود منطلقاً بسرعة تزيد - بهمسة - عن سرعة الدراجة الهوائية . وكان يقف لكل من يشير له والوقفة بعشر دقائق . بل كان يقف أحياناً من تلقاء نفسه ، مرة أمام نصبة شاي فأتى له صاحبها بكوب ساخن وأخذ الفارغ ، ومرة بلا سبب . وبعد أن عبر المزلقان ركن بنا أمام عشة بجوار مطار إمبابة ونادى بأعلى صوته ، فخرج إليه رجل له هيئة المجرمين . بنطاله مشمور وفي الأعلى فانلة داخلية بحمالات وشعر يديه كثيفاً كما القرود. نزل إليه السائق وعاتبه على الدجاجتين

اللتين اشتراهما منه بالأمس ونفقتنا قبل أن يطلع النهار . وكلمة في كلمة بدأت المشاحنة ، وكاد أن ينشب بينهما عراك وتماسك بالأيدي لولا أن السائق عاد إلى مقعده وبحركة فجائية تمخض وألقى ببصقة على الرجل من النافذة ، وانطلق بنا كالريح والآخر يعدو خلف الباص ملاحقاً السائق بالشتائم وسباب الدين.

كنا بفعل السرعة المباغتة نترجرج فى الباص ونصطدم بالمقاعد أو ببعضنا . أخذتني أمي على حجرها وصرخت فى السائق مراراً أن يتمهل. لم يعرها أي اهتمام ، ولكن بعد أن قطع شوطاً طويلاً وأدرك أنه فى الأمان عاد إلى سرعته العادية.

الغريب أن أحداً من الركاب لم يكن منزعجاً أو حتى قلقا ، والأمور بالنسبة لهم تمضي فى سيرها الطبيعى.

ولم نر أي نشاط للمحصل إلا بعد أن تحركنا بزمن . أخذ تعسيلة بجوار شباك مفتوح لم ينتبه فيها إلى ما جرى مع السائق، ولم يقم منها إلا بعد أن غادرنا الكيت كات والعمران المحيط به ودخلنا في طريق غير ممهد تحوطه الزراعة من الجانبين . سحب قلم كوبيا صغير من خلف أذنه ودق بمؤخرته مرتين على لوح التذاكر الذي بيده لتبدأ المناكفات مع ثلاثة من الركاب أنفقوا كل فلوسهم في البندر وليس في جيوبهم ولا حتى القرشين صاغ ثمن التذكرة.

وبعد مدة - ساعة ونصف تقريباً - بدت فى الأفق ترعة كبيرة تحيط بها أشجار كافور عالية ، تلوح من ورائها عشش صغيرة مقامة على أطراف الحقول . تمطأ المحصل وضرب على صدره مخرجاً صوتاً كالتثأوب والزفير العميق ، ثم نقر على اللوح الزجاجي الذي يفصل السائق عن

الركاب . وصاح بصوت عال :

ـ المنصورية . المنصورية . يللا يا حاج . وإنتي يا ست . اللي نايم هناك .

ولما لم يجد ردة الفعل التي توقعها أو بادرة تفيد بأن واحداً من الركاب يتجهز للنزول ، بان الضيق على وجهه وأعاد التنبيه ـ هذه المرة ـ بخبطات قوية من كف يده على الزجاج ثم سار في ممر السيارة يتلفت يميناً وشمالاً. نظر بحنق نحو رجلين كانا في وضع فريد . رأس الأول مرتخية تماماً على كتف جاره ، وفي المقابل وضع الجار رأسه على الرأس التي تتوسد كتفه . والاثنان في نوم عميق ، وربما يحلمان . ضرب المحصل واحداً منهما بلوح التذاكر على رأسه ، فلم تطرف عيناه . انتبه الرجل بعد عدة ضربات مماثلة واستدار محتجاً . أشار له المحصل على النافذة والبيوت التي اقتربت ففهم وأيقظ جاره ومكثا يتلفتان على حاجياتهما أسفل المقاعد ، وأحدهما يمسح الريالة التي تدلت من فمه وهو نائم وطالت قبة الجلباب .

أكمل المحصل جولته .

لقى امرأتين تميلان برأسهما إلى الأمام إحداهما تحسب شيئاً على أصابع يدها ، والأخرى تترقب النتيجة بشغف .

قال لهما بصوت آمر :

ـ يللا يا زكية . يللا يللا . هو إنتي هتطلعي عيني كل مرة.

تبسمتا وقالتا في صوت واحد :

ـ ربنا يسترك يا خويا .

وانحنيتا معاً تحملان قفصاً من الجريد له طابقان . الطابق الأول فارغ

وبابه موصد بإصبع من الجريد .والثاني به حمامتان التصقتا ببعضهما وسكنتا على كومة صغيرة من القش . واضح أنهما لم تتمكنا من بيع الحمامتين في سوق الكيت كات مع أخواتهما.

وعلى المقعد الموازي لنا كانت تقبع امرأة وسط هوجة من العيال . الصغير فيهم كان مصمماً على وضع إصبعه فى عينها ، والآخر كان جالساً أسفل المقعد يشدها من ساقيها وهي تركله في بطنه كي يسكت ، وثلاثة أو ربما أربعة على المقعد المجاور لها دخلوا مع بعضهم في مشاجرة .

لم يعرهم المحصل بالا والتفت نحونا بنظرة ذات مغزى ، فهزت أمي رأسها وقامت على الفور وأنا فى يدها . لا جدال في أنه جدير بالوظيفة التي يشغلها ، يعرف وجهة كل زبون من زبائنه واللحظة الملائمة لحثه على النزول.

وأخيراً وصلنا .

كان الموقف متاخماً لوابور طحين جدرانه مدهونة بطلاء أبيض فقد نضارته بفعل الزمن ، وبالرغم من ذلك بدا مهيباً بمدخنته التي يتصاعد منها الدخان ، وهيكله الكبير قياساً على بيوت الفلاحين . وأمامه ساحة تمتلئ بالحمير ما بين الذي أفرغ حمولته فقيده صاحبه من إحدى قدميه في جذع شجرة ، والذي أفلت من قيده وصاحبه يجري خلفه ، والذي قوس ظهره قليلاً وباعد ما بين رجليه الخلفيتين استعداداً للتبول والناس تبتعد عنه إتقاءً للرذاذ.

وكانت النسوة تمضي أمامنا بتثاقل حاملات قفف مملوءة إلى حافتها بالقمح والذرة . وعلى يمين البوابة الحديدية للوابور يجلس رجل بنظارة

وسروال طويل أمام ميزان قباني متوسط الحجم ، ويحرك الرمانة الحديد ليضعها على المؤشر كلما وضعت إمرأة قفتها في حجر الميزان أو أنزل رجل جوال الحب من على دابته. وإلى جواره رجل آخر طاعن في السن ، أمامه طاولة صغيرة بأرجل خشبية رفيعة وعلى سطحها محبرة من الزجاج كالحة المنظر . وفي يده ريشة من الخشب مفلطحة يغمسها في المحبرة ، ويسجل الرقم الذي يقوله الرجل القاعد على الميزان على قصاصة ورق مهترئة ويسلمها بلا اكتراث وبعين نصف نائمة لمن عليه الدور . وعلى مقربة نفر من الحمالين يرتدون جوالات فارغة من الخيش القديم مفتوحة من عند الكتفين، وأذرعهم وسيقانهم كلها عارية ، وعلى رؤوسهم أغطية كالبرانيس مصنوعة من قماش سميك . كانوا يتناوبون حمل جوالات مكتنزة بالدقيق مرصوص بعضها فوق بعض بجوار حائط الوابور ، ويتجهون بها صوب عربة كارو تقف على جانب الطريق.

لم تطل وقفتنا.

أقبل علينا رجل عجوز يطوق عنقه بمسبحة ذات حبات كبيرة تتدلى حتى أول بطنه ، وعلى رأسه شال مترب والجلباب يتجاوز ركبتيه ببوصات قليلة . أشاح بعصا من الجريد نحو أمي ، فرجعت خطوتين إلي الوراء وتشبثت أنا بفستانها . وعندما تكلم تهدل فمه وبدا خالياً من الأسنان فازددت خوفاً منه.

سألنا عن وجهتنا .

قالت أمي : إننا نقصد بيت الحاج عبدالحميد المنشاوي .

هرش رأسه وهو يهمهم بكلمات غير مفهمومة وأعاد السؤال ثانية وهو يرمش بعينيه . وكان قد تجمع حولنا بعض الصبية يهللون

ويصيحون في وجهه . منهم من كان ينغزه في بطنه أو يشده من الحزام الذي يلف به خصره ، وبدأ في مبادلتهم الصياح هو الآخر والدفاع عن نفسه بعصاه.

لم تسلم أمي من الأذى ، نالت عصا على منكبيها وزغدين في جنبها فأخذت تسب أبي والدنيا واليوم الذي أتينا فيه إلى هنا وشددت قبضتها على يدي ، وهى تشرأب بعنقها باحثة عن أحد يسعفنا ويدلنا على الطريق .

يبدو أن اللمة والصياح حول هذا الدرويش كانت أمراً مألوفاً فلم ينتبه إلينا أحد ، واضطررنا إلى الإذعان له بعد أن حقق نصراً سريعاً على الأولاد والتفت إلينا . كررنا عليه اسم جدي ثانية وسرنا معه في رهط صغير ، هو في المقدمة وأنا وأمي وراءه ومعنا ما تبقى من الأولاد.

وبطبيعة الحال كان الدرويش مصدر جذب للصغار . فمع كل خطوة كنا نتزايد بانضمام أولاد جدد ، وتبعتنا معزة لا أعرف من أين أتت . ولحق بنا صبيٌ يمتطي جحشاً صغيراً . يبدو أنه كان في طريقه إلى الغيط ولما رآنا آثر الدخول في زمرتنا.

ووصلنا أخيراً إلى بيت من طابق واحد ، ورغم ذلك يبدو كبيراً وسقفه عالياً. والبوابة عريضة ولها ضلفتان خشبيتان مواربتان قليلاً ، وأعلى كل واحدة منهما فتحة بيضاوية مليئة بالقضبان الحديدية التي أكل الصدأ أطرافها . كان واضحاً أن البيت لم تمسه يد الإصلاح من وقت طويل ، فآثار الأمطار وفعل الزمن كان بادياً على واجهته وأحجاره البيضاء الكبيرة بان بعضها بعد أن زال من عليها الطلاء .

وعلى جانبيه شجرتي توت ما زالتا في طور النمو ، بجوار إحداهما (طلمبة) أمامها حوض أسمنتي صغير تتسرب المياه من أحد جوانبه في مسارات رفيعه .

وقفنا أمام البيت في زفة تزيد على أربعين نفساً فضلا عن الدابتين ، وأخذ الدرويش في النداء على جدي بصوت عال والأولاد يهللون.

* * *

(١١)

ما أن لاح جدي على عتبة الباب حتى أصابتنى رعشة كهربائية ، أما الأولاد فطاروا كلهم ومعهم الدرويش.

كان طويلا وعريضاً يلتف بعباءة من الصوف الخفيف لها كمين عريضين ، وعلى رأسه عمامة لها شراشيب تتدلى وراء أذنه . وقف على مسافة منا مستنداً براحة يده اليمنى على عصا سوداء ذات عقفة ، وإلى جواره خادمه إمام بقميص على اللحم وقدماه حافيتان . والاثنان يرمقاننا بنظرات تحمل ألف معني.

سألنا من نكون ؟

وانحنى قليلاً برأسه متشاغلا بفرك نتفة من الطين الجاف علقت بصدر العباءة . استرعى نظري ظهر كفه المسترخي على مقبض العصا . كان مكتنزاً ، ومليئاً بالنمش ويرتعش بذبذبة ثابتة على المقبض فتهتز العصا هي الأخرى معه ، وتثور ذرات غبار خفيف حول قاعدتها . ولمحت عينيه وهي تتسلل إلينا .. خاصة نحوي.. ورغم أن التجاعيد قد كست عليهما تماماً وبدت الحدقتان ضيقتان وبياضهما تشوبه صفرة ، إلا أنهما كانتا متوهجتين والشعاع الآتى منهما نفاذاً ويقول إنه يعرفنا.

لم ينتظر منا إجابة ..

استدار ومشى بتثاقل نحو جوف البيت ووقفنا أنا وأمي حائرين في

الذي نفعله . لا أنسى هذه اللحظة أبداً ولا إمام الذي انحنى وقبلني على رأسي ودفعني برفق كي أمضي في أثر جدي.

اجتزنا البوابة وسرنا في دهليز عريض به دكك خشبية متقابلة. كلها بنفس المقاس تقريباً ، ماعدا التي في أقصى اليسار فهي الوحيدة الأكبر حجماً والتي عليها فروتي غنم سوداوين تفصل بينهما وسادتين من القطن تعلوان بعضهما.

وفي آخر الدهليز حجرات على اليمين واليسار أبوابها ونوافذها مغلقة ، ووراءها حوش غير مسقوف في زاويته ثلاثة كوانين ، اثنان منهما حلوقهما فارغة والثالث عليه قدر كبير من النحاس ليس بأسفله نار. وفي الزاوية الأخري فرن يتصاعد دخان خفيف من فوهته ، وعلى قبته طاجن كبير من الفخار وطست قديم حوافه متآكلة وتبرز منه بعض الفوارغ والكراكيب . وأمام الفرن كومة من كيزان الذرة الخضراء . يبدو أنها كانت في طريقها للشي لولا قدومنا . وعلى مسافة من أدوات الطهي هذه توجد شونة طويلة لها باب يفتح على شارع خلفي ، وباب آخر يفتح علي البيت من الداخل يجلس على عتبته رجل عجوز كماه مشموران ورأسه مدلاة على صدره . كان في غفوة وغير منتبه إلى أي شيء حوله . وبالشونة جاموسة باركة على الأرض تلوك شيئاً بفمها ، وعلى مقربة منها عجلاً صغيراً انجذبت إليه.

أجلسنا إمام على الدكة المقابلة للدكة الكبيرة والتى بات واضحاً أنها مخصصة لجدي . جاءت جلستي في زاوية أتابع منها ما يحدث في الشونة ، ومضت برهة طويلة بلا كلام تحسس جدي في أعقابها أطراف لحيته الكثة وهو يعاود النظر إليّ :

ـ خير !

قالها لأمي بصوت مضغوم ، وتلاها بسعلة عالية أثارت رعبي.

لم تنطق أمي بكلمة..

مدت يدها بحركة لا واعية وضغطت على معصمي ثم أخرجت من حقيبتها لفة ورق معقودة بأستك شراب قديم لجدي زكي . لفة تحوي شهادة ميلادي ووثيقة زواجها بأبي وصور لهما معاً ، وكمبيالة كان قد وقعها على نفسه لجدى ، وعقد إيجار الغرفة التي كانا يسكناها معاً . ومن نصاحة جدي زكي أنه أقنع صاحب العمارة بأن يذكر اسم أمي وأبي معاً في خانة المستأجر ، وأن يسجل ملحوظة مكتوب فيها بين قوسين « المتزوجان على سنة الله ورسوله على يد مأذون ناحية .. التابعة لمحكمة .. ».

سلمته اللفة وانشغلت أنا بما يدور في الشونة .

كان العجل مولوداً لتوه . تابعته وهو يرفع رأسه متشمماً ريح أمه ، وهو يحاول الوقوف مرات كثيرة للوصول إلى ضرعها . فى كل مرة كان يسقط على قوائمه النحيلة ويبذل جهداً في تخليصهما من بعضها عندما تتشابك . ولما تعب توقف عن الحركة وأغمض عينه لينام.

وضع جدي الأوراق في حجره وأخرج نظارة طبية من جيب الصديري ووضعها على عينيه فبدا أكثر مهابة . مكث يدقق النظر في كل ورقة ويقرأ محتواها أحياناً بصوت مسموع ، غير أنه لم يقدر على كبح جماح عينيه . كانت تفلت منه مختلسة النظر إلىّ ، وعندما تلتقي نظراتنا كان يتنحنح ويشيح بوجهه إلى أعلى ، ويبدو وكأنه يفكر في شىء ما ولايقصد ما توهمته . أما أمي فكان وجهها ممتقعاً ، والفأر الواقع فى

المصيدة أفضل منها حالاً.

مضت برهة نظر جدي بعدها إلى أمي متوقعاً مزيداً من التفسير . وانفرج أحد الأبواب المغلقه . خرجت منه امرأة نحيلة تلف رأسها بطرحة سوداء وعيناها حزينتان .. جدتي .. أشار لها جدي بأن تجلس . هبت أمي واقفة لها فلم تعبأ بها جدتي وجلست إلى جواري.

حكت أمي حكايتها مع أبي منذ أن جاء يشتري قطعة الصوف من محل صيدناوي ، حتى آخر يوم شاهدته فيه وكانت حاملاً فيّ . قال لها يومها : إنه ذاهب إلى البلدة وفي المرة القادمة سوف يأخذها معه ، غير أنه لم يعد.

ظل جدي يتابع أمي وعيناه لاتحيدان عن وجهها . أما جدتي فكانت أذناها مع أمي وعيناها عليّ .

انتبهت لتكة مصراع أحد الشبابيك والضلفتان تنفرجان عدة بوصات، ويلوح من خلفهما وجه امرأة تمعن النظر فينا . عرفها جدي رغم أن الشباك لم يكن في امتداد بصره . نادى عليها بصوته الجهوري فأتت متشحة بالسواد وتمسك بيدها بنتاً صغيرة تطأطئ رأسها من الخجل . أشار لها جدي بأن تجلس إلى جانبه ، فأقعت هي والبنت فى الطرف الآخر من الدكة وقال هو لأمي : إنها زوجة أبي وبنتها.

وساد صمت ثقيل لم يقطعه إلا طفلان صغيران تسللا من فتحة باب موارب ، وأخذا يحبوان أمامنا جيئة وذهاباً بطول الدهليز وهما لا يكفان عن الضحك.

وبعد برهة بدأنا نشعر بلغط وهمهة وحركات خفيفة وراء الشبابيك الأخرى، وعندما صفق جدي بيديه همدت الحركة ولكن ما لبث أن عادت

الهمهمة ثانية ولم يفلح جدي في إسكاتها ، فأشار إلى جدتي أن تدعو الباقين للحضور.

أتت زوجة عمي إبراهيم ومعها جمع من الأولاد ، وأختان لأبي من حجرة ثانية ، وأخت ثالثة تقيم هي وأولادها في البيت لحين عودة زوجها التاجر من سفره بالصعيد.

ووقفت خادمه عجوز اسمها (أم الكوز) فى آخر الدهليز . أشار لها جدي بيده كي تذهب بعيداً ، رجعت خطوتين وتمهلت دقيقة ثم تقدمت خطوة وبعد دقيقة ثانية رجعت إلى مكانها الأول . نهرها جدي فلم تتزحزح . لم تختف من أمامه إلا لما انحني باحثاً عن شيء يقذفها به . ومع ذلك لمحتها تعود متسللة وتقعى بحذاء باب يداريها عن جدي ، وترمقنا من فتحته المواربة.

أشار جدي على أمي وقال للجمع الذي ملاء الدكك :

- هيه دي الست اللي كان محمود اتجوزها في مصر .

ونظر نحوي :

- وده ابنه .

وحملق في وجه أمي مستفسراً عن اسمي ، فقالت :

- جلال ..

وصمت الجميع .

* * *

(١٢)

قضينا ثلاثة أيام في بيت جدي وكأننا في منفى .

أفردوا لنا مندرة كانت مخصصة من قبل للخزين وحفظ الكراكيب . أعادوا سد الفتحات التي تتسلل منها الفئران وكنسوها ونظفوها وفرشوها ، وإن كان كل هذا لم يجد نفعاً مع الروائح التي تملؤها وخاصه رائحة المش واللبن الرائب . وقالوا لنا قبل أن يغلقوا الباب : عندكم شباكين . الأول على الشارع افتحوه ولكن مواربا ، أما الذي يطل على البيت من الداخل فاتركوه مغلقاً.

يدخل علينا الأكل فى ميعاد كل وجبة على صينية تحملها أم الكوز التي خصصوها لطلباتنا .

في أول الأمر كانت تنظر إلينا بغضب ، كأن مشكلتنا معها هي . وإذا سألناها عن شيء لا ترد ، تضع الصينية من سكات وتعود لتأخذها من سكات أيضاً.

أخذت تتلكأ بعدها .

تجلس على السرير بلا استئذان ثم ترفع قدميها وتتربع عليه معنا. تنزل قليلاً برأسها وتخرج خرقة من عبها ، وتظل تتمخض وتعطس والرذاذ لا يرحمنا . وأمي متأففة منها لكنها لا تستطيع الكلام. وعندما تفرغ تسألنا : إن كان الطعام يكفينا أو نريد غسل ملابسنا . وتربت

على كتفي وتقول : إن وجهي هو الخالق الناطق وجه أبي ، فينشرح قلب أمي. وعندها تبدأ المرأة في الكلام . تأخذ وتعطي مع أمي ، كلمة من هنا وكلمة من هناك . تظن أنها سوف تسحبها في الكلام لتعرف سبب زيارتنا وما يجهله أصحاب البيت عنها وعن أهلها . وأمي بالطبع لا تشفي لها غليلاً وتأخذها في حكايات بعيدة عما تريده . وتجيء سيرة جدي فتسألها أمي عن طباعه وما يقوله هو وجدتي عنها وعن ولدها ، والمرأة تنظر إليها وإذا فتحت فمها فالكلام بالحساب . كان الأمر أشبه بمباراة بينهما ، وأنا جالس يدي على خدي والملل ينحر قلبي.

تعلقت مرة بجلبابها وطلبت منها وهي خارجة أن تأخذني معها لألعب مع الأولاد . ترددت وقالت : سوف أسأل جدتك أولاً. زجرتني أمي وشدتني من كم البيجامة حتى كاد أن يخرج في يدها . لم يقل لنا أحد لا تخرجا. أمي فهمت ذلك من نفسها . وبقينا يومين لا نخرج إلا للأمور التي ليس لها حل كالذهاب إلى الحمام ..

الحمام .. الحمام .. لم أعرف قيمته إلا وأنا في البلدة ..هو بالفعل بيت للراحة وطوق نجاة لمن كان في ورطة مثل ورطتنا ، فقد تعدل نظامنا في الأكل عما تعودنا عليه في مصر . وجبتي الإفطار والغذاء أصبحتا خفيفتان ، ولا تستوجبان التردد عليه كثيراً .

الوجبة الرئيسة هي وجبة العشاء حيث تدخل علينا صينية نحاسية عليها (أنجر) ثريد يكفي عشرة تتربع عليه أوزة بأكملها أو قطع لحم كبيرة يفح منها البخار ونصف بطيخة مرشوق في قلبها سكين ، غير أطباق الخضار والسلاطة وصينية صغيرة عليها طاجن أرز معمر خرج من الفرن لتوه ، أو شيء كالعجين مطهي باللبن والزبيب.

لم نألف هذا الطعام الممتع من قبل . وكانت أمي تعرف أنه ثقيل على المعدة ومع ذلك كنا ننزل عليه بالملاعق أنا وأمي كأنه آخر زاد لنا في الدنيا . ولا نكتفي بعد ذلك بشرب قلة ماء وإنما قلتين.

ساعتين وكنا ـ بالطبع ـ نبدأ في الخروج للحمام . ليس مرة أو مرتين وإنما خمس أو ست مرات. وعندما يطفئون الكلوب في الخارج وتخف الحركة ، نتمدد على السرير ليس للنوم وإنما من النار التي في بطوننا . فكلانا ـ وخاصة أنا ـ كان يشعر بعدم الراحة وأن لديه الكثير الذي يجب إخراجه سواءً من فتحة الشرج أو من المثانة . قد تخرج أمي مرة أو مرتين في جوف الليل وتستحي بعدها ، أما أنا فذهاب وإياب بلا توقف.

وعندما تمل مني أمي ،كانت تقول بلهجة تهديدية :

ـ خلاص . دي آخر مرة تخرج فيها. الدنيا بره كحل وأم رجل مسلوخة هيه كمان عندها إسهال زيك وأنا شايفاها وهيه بتدخل الحمام . تحب تدخل معاها .. تحب !

كنت أموت في جلدي وتبدأ هي في اتخاذ احتياطات الأمن. تتأكد من أن النافدتين مغلقتان ـ شيش وزجاج ـ وقادرتان على صد أي تسلل. وتشد ترباس الباب الداخلي حتي آخره ، وتأتي بالمقاعد وبكل المنقولات الموجودة بالغرفة وتضعها خلفه ، ثم تقف برهة تهز رأسها وتقرأ سراً من الكتاب المقدس وأنا أتابعها وحدقتا عيني تتسعان.

بدأت جدتي في الدخول علينا .

تسأل أمي من على الباب إن كانت مرتاحة . تومىء بالإيجاب فترنو نحوي ثم تتركنا .أطلت علينا مرة فأسرعت إليها ولثمت يدها بإيعاز

مسبق من أمي . دخلت وجلست بجوارنا أنا أمي ووضعت يدها على كتفي .

مست طرحتها الحرير وجهي . كانت ملساء ولها وقع كالدغدغة فأخذت أعبث بأطرافها وأمرر كفي عليها وهي ترمقني وشيئاً يلوح على شفتيها .. كأنه ابتسامة .. وجاء ذكر أبي على لسانها هي وأمي فانهمر دمعهما معاً.

في اليوم الثالث أضناني الانتظار ، فحاولت بمبادرة ذاتية مني أن أخترق هذا الحصار وأخرج . واربت الباب متسللاً منه بحذر . خطوت خطوتين وبصري معلق ببحراية الشونة التي كستها الشمس.

كان العجل ممدداً فيها وعيناه تنظران بدهشة إلى هذه الدنيا التي أتى إليها . هي خطوة ثالثة التي خطوتها بعد ذلك وما أشعر إلا بمقشة ليف تنزل على رأسي وولدان أكبر مني بقليل يجثمان عليّ من الجانب الآخر ويكومانني على الأرض . وولد ثالث . لا . كانت بنت قصيرة الشعر وترتدي بنطلون بيجامة فبدت كالولد . انشقت عنها الأرض وأخذت تدبدب بقدميها وتصوب بعصا صغيرة في يدها نحو رأسي ، وتصيح وتطلب منى بأعلي صوتها أن أسلم نفسي .

أوقعوا بي الأبالسة .. وحتي الشتمة الوحيدة التي قلتها ردوا عليها بسبع شتمات .وجاء الكل على الجلبة . لم تفتح أمي فمها بكلمة . انتشلتني من بين أيديهم بسرعة كما يرفعون الجرحي من أرض المعركة ، وأغلقت الباب خوفاً من أن يتسللوا منه ويعاودوا الكرة مرة أخري . جدتي هي التي تكفلت بالدفاع عنا . أتت بعصا ونزلت بها على ظهر الولد الكبير ، وأدارت معركة مع أمهم - ابنتها - لمدة ساعة .

سمعناها تقول :إنني ابن ابنها ولي في البيت مثلهم وأكثر .

وفي المساء علم جدي بالخبر فأجبر عمتي علي الدخول لأمي وتطييب خاطرها ، وأتت تعليماته إلينا بأن نخرج ونتناول الطعام مع العائلة.

أتي الصباح وخرجنا للإفطار.

كان جدي يجلس على دكته وأمامه صينية ، وعلى الأرض بطول الدهليز ثلاث صواني . واحدة لجدتي ونحن معها . والثانية لزوجة عمي إبراهيم وأولادها فقد كان عمي سهراناً بالأمس فى الغيط ولا يزال نائماً في فرشته . وصينية لعماتي الاثنتين ومعهما الثالثة وأولادها الذين اعتدوا عليّ.

وفي وجبة العشاء وبأوامر من جدي انتقلت إلى جواره لآكل على صينيته . أكلت معه قطعة من المخاصي ومن ذيل العجل وهي أشياء مخصصة له ولا توضع إلا في طبقه ، أما اللحم المسلوق فللجميع . وأتى عمي إبراهيم عندما بدأنا فى شرب الشاي . لم يكترث بوجودنا . ولما طلبت منه جدتي أن يسلم على أمي تظاهر بأنه لا يسمع وانهمك في الحديث مع جدي . ورغم هذا لم يكف عن النظر إلينا من تحت لتحت.

لم أره كثيراً بعدها . فهو إما مشغول في الغيط أو يتعارك مع زوجته . كانت أمي لا تحبه ولا تخرج من غرفتها إذا سمعت صوته . وفي المرات التي لقيته فيها كان كل منا يتجاهل الآخر. يمر من أمامي وكأنه لا يراني . وأنا أول ما ألمحه أقف صامتاً حتى يمضى في سلام . كنا هكذا طوال الوقت . ومع ذلك كنت مشدوداً إليه وأظل في كل مرة أحدق في ظهره حتي يختفي عني، واندهش من منكبيه العريضين وطوله الفارع ، وأتمني أن يكون لي هذا الهيكل عندما أكبر . فلم يكن أهل

أمي طوالاً هكذا ، حتي جدي ذاته لم يكن بهذا الطول.

كان عمي طلسماً أمام عيني وإلى الآن لا أعرف إن كان يحبني أو يكرهني . أذكر أنه ربت على رأسي مرة . كنت جالساً وقتها على عتبة البوابة الخارجية ألعب بمسبحة الجد ، وأول ما رفعت رأسي له تركني ومضى . وأمس كان يوزع قروشاً على أولاده . نادى عليّ ليعطيني واحداً منها . مددت يدي إليه بحذر ونظر إليّ هو الآخر باستغراب . رفع حاجبيه وحدق فيّ طويلاً وهو يعطيني القرش .

* * *

(١٣)

أول ما يفرغ جدي من صلاة العصر تبدأ طقوس جلسته المفضلة.

يحمل إمام حصيرة ومسندين من القطن على كتفه ، ويهرول أمامنا إلى الجدار الغربي للبيت.

يكون الظل ساعتها قد غطى أعواد الزرع التي في مواجهتنا وزحف إلى منتصف الجدار . وعن بعد كانت أشجار الكافور تتكاثف حول الترعة التي في مدخل البلدة وغلالات الدخان الأسود المتصاعدة من وابور الطحين بدأت في الخفوت ، والحمير الرابضة أمامها لاتزيد عن أربعة أو خمسة على أكثر تقدير وتتأهب للعودة محملة بأكياس الدقيق.

يترك جدي جسده طيعاً في يد إمام ، حيث يمسك به من إبطه ومنكبه وينزل به حتى يجلسه في منتصف الحصيرة واضعاً مسنداً خلف ظهره والآخر ليتكئ عليه بمرفقه . ويبدأ هو برش الماء في الوسعاية التي تفصلنا عن أعواد الزرع .

يرمقني جدي لحظة ، وما أن أبادله النظر حتى ينشغل بفرد ساقيه ثم يخرج المسبحة من سيالته ويخلع العمامة ويضعها إلى جانبه.

كنت في الأول أستغرب وجهه عندما أرى رأسه حليقة بالموسى وليس فيها شعرة واحدة . ينتابني شعور بأنه فقد شيئاً من وقاره، وأنظر برهبة إلى هذه العمامة السحرية التي تقلب وجهه من حال إلى حال ، وكم

تمنيت أيامها أن أغافله وأضعها على رأسي ولو لمرة واحدة.

لايطمئن الجد أبداً ودلو الماء في يد إمام.

يظل يلاحقه بعينيه ، وبحركة لا واعية كان يتحسس العمامة كلما اقترب منه إمام جاذباً إياها نحوه . وإذا طالها الماء والذى غالباً ما يكون مغموساً بالطين ، تنقلب سحنة جدي ويقذفه بأقرب شيء ليده . فردة مداس . كوب فارغ . غطاء قله . أو بالقلة نفسها ، وهو يصيح بأعلى صوته :

ـ مش تفتح يا أعمي العين.

وساعات كان يجذب عصاه ويقوم ربع قومة ، فيلقي إمام بدلو الماء ويطير من أمامه . وكنت أخاف أنا الآخر ، وأمد قدمي باحثاً عن الصندل . وعلى مرمي حجر منا كان يربض كلب عجوز مغمض العينين ونائماً طول الوقت . يصحو على الجلبة متلفتاً حوله وعندما يتبين الأمر، يهب على ساقيه الأماميتين ويبدأ في النباح تجاه إمام مجاملة لجدي . لا يسكت إلا لما يشير له جدي بيده قائلاً بصوت ناعم وفيه شيء من النغم:

ـ خلاص . خلاص . خلاص يا خرشوف.

كان هذا هو اسمه وتربى في كنف جدي ولا يسمع إلا كلامه، وبحكم العشرة فهم كل منهما طباع الآخر ونشأت بينهما لغة أشبه بلغة الشفرة.

سرعان ما كانت تنفض المشاجرة ، ويعود إمام ثانية بخطوات حذرة وعيناه على عصا جدي . يقعي على طرف الحصيرة وأمامه صينية نحاسية بأكوابها وبراد وبرطمان سكر وباكو شاي ماركة (الشيخ الشريب) ، ووابور جاز ماركة (بريموس) لم أر له مثيلا من قبل. يقولون إنه الشيء الباقي من جهاز جدتي ، ولما اكتشف جدي وجوده بين

الكراكيب التي في غرفة الخزين أصر على إصلاحه واستبقاه لنفسه.

ينحني إمام على الوابور ويغلق محبس الغاز ثم يدفع كباس الهواء - بسرعة وعدة مرات - إلى الداخل ، حتي ينطلق صرصور صغير من الجاز من ثقب بالفوهة ، فيشعل هو عود الثقاب ويقربه منه وشيئاً فشيئاً تشتد النار .

لم تكن هذه المسألة تمضي بسهولة على إمام ، فالمسكين كان عرقه يسيل ويجد مشقة في إشعال هذا الوابور العجوز والذي كان يكبُر عمي إبراهيم في السن بأربع سنوات . غير أنه لم يكن يصرح بذلك خوفاً من العصا الممدة على حجر جدي ، خاصة وأن الجد كان يتابعه ويتهمه دائماً بأنه هو المخطئ وليس الوابور.

ويلتقط إمام أنفاسه أخيراً بعدما يطمئن إلى أن الوابور يفح فحيحاً قوياً متواصلاً ، والبخار يتسرب في أزيز خافت من فوهة براد الشاي الذي يعلوه.

لم يكن المكان الذي نجلس فيه في مسار الريح أو تأتيه نسمة هواء ، وكان الجد من وقت لآخر يمدد ساقيه ويخرج منديله يمسح به رأسه ويجفف حبات العرق التي تعلق بجفنيه أو تسيل خلف أذنه. وعندما كان يميل فجأة إلى الأمام ويمسك بأصبعيه قبة الجلباب من الخلف ويظل يهزها ووجهه متأففاً ، أعرف أن قطرة عرق تتدحرج على ظهره . ومع هذا لم يغير جلسته . يقول : إنها بعيد عن غبار الطريق وعتبة الباب حيث الداخل والخارج .

إلا أنه كانت تهب علينا فجأة لفحة هواء شديدة تهتز لها أوراق شجرة التوت التي بحذائنا هزات سريعة ، وتصدر عنها خشخشة خافتة.

ويفقد جدي ساعتها زمام السيطرة على جلبابه . يتطاير منه إلى أعلى ، وكنت أراه عارياً حتى أول الفخذين وأندهش من ركبته اليمنى التي تبدو متورمة قليلاً قياساً على الركبة اليسرى. ويجتاحني لحظتها إحساس بأنه طيب ويفرح - مثلي - إذا الهواء تدفق بين ثنايا ملابسه ونفخ جلبابه. وأظل أتابعه وهو مرتخي برأسه إلى الوراء وظل ابتسامة على وجهه ، غير أنه أول ما يلحظ نظراتي يقطب جبينه ويغطي ساقيه واضعا ذيل الجلباب أسفل كعبيه .

في مرة وبإيعاز من أمي سألته زيارة قبر أبي .

هز رأسه دون أن يلتفت إليّ ، ثم أسند ذقنه على راحة يده وشرد بعيداً.

وأدركنا إمام قائلاً بصوت خافت :

- وحد الله يابا الحاج .

وأنا أختلس النظر له متابعاً الرعشه الخفيفة التى حلت فجأة على جفنه الأيسر ، ولما استمر فى إطراقه أصابني بعض الارتباك واحترت في الذي أفعله . وجدت نفسي أتزحزح بمؤخرتي بضع بوصات بعيداً عنه . مكثت أتأمل أوزة عرجاء تمضي بتثاقل أمامنا.

لم تنفك عقدة الجلسة إلا لما تهلل وجه جدي لرجلين من أصحابه قدما علينا . كانا في مثل عمره . جلس أحدهما إلى جواري ، وتربع الآخر قبالة جدي بعد أن طوي مداسه ووضعه أسفل منه.

الرجل الذي أقعى إلى جانبي كان أسمر اللون وبلا أسنان تقريباً ، وأول ماتوسد الأرض أخرج من سيالته حُقّ دخان ماركة (أبو غزالة) ودفتراً صغيراً مليء بأوراق البافرة . سحب ورقة منها وشذبها بأسنانه

وبدأ في حشوها بالتبغ . والآخر كان سميناً ووجهه مستديراً كرغيف الخبز . ظل يحملق في صاحبه حتي فرغ من مهمته ، ثم أخرج علبة سجائر ماركة (هوليود) وأشعل الاثنان سيجارتيهما معاً وجدي يبعد عنه وعني الدخان براحة يده قدر ما يستطيع.

وبدأ الرجلان في الحديث ، خاصة الرجل الأسمر الذي بجواري. لم يكف عن الكلام أو الإشارة بيده ، ولم أسلم بالطبع من كوعه الذي إن لم يخبطني في رأسي فهو لا محالة يصطدم بكتفى.

كنت أتابع الحديث بشغف ومستمتعاً باللهجة الريفية التي كانا يتحدثان بها ، إلا أن الرجل الأسمر كان يقول أحياناً كلاماً لا أفهمه ويتبع ذلك بغمزة من عينه اليسرى وهو يقول لجدي :

ـ فاكر يا عمنا لما .. فاكر ولا أفكرك .

يرخى جدى رأسه إلى الوراء ويقول متبسماً :

ـ إلا فاكر .. فاكر وفاكر يا أبو رزق .

ويدخل الرجل السمين في الحديث :

ـ ولا ساعة ...

فيجيب جدي مستمتعاً:

ـ وهيه دي تتنسى .

وعندما استبدت النشوة بالرجل الأسمر ، أخذ ينغز جدي ـ مازحاً ـ في بطنه بخيزرانة صغيرة كانت في حجره.

تغير وجه الجد وهمس له دون أن ينظر إليّ :

ـ الولد !

عندها انتبه الرجل إلى وجودي . تحسس رأسي بيده وقال :

ـ إنت إبن مين ياشاطر.

ولما لم أجب أردف :

ـ إنت إبن إبراهيم !؟

والتفت إلى جدي ضاحكاً:

ـ ولا يكونش إبنك يا أبو محمود وأنا مدراش .. قول الصراحة.. قول قول ..

لكزه الرجل الآخر في جنبه وأسر في أذنه بكلمتين ، تمتم على أثرهما:

ـ آه .ابن الست اليهودية . يوه .يوه . يوه . هو ده ابن الوليه إياها.

أخذتني رجفة وصمت الجميع . وعن قرب كنت أشعر بحركة خفيفة بين أحواض الزرع . ظللت أتابعها وكانت غبشة المغرب تلوح في الأفق وقرص الشمس على وشك المغيب.

أعطاني جدى قرشاً وطلب منى أن أذهب وألعب مع الأولاد. كانوا في الناحية الأخري من البيت . اقتربت منهم فتوقفوا عن اللعب متابعين قدومي بنظرات ازدراء صامتة ، فانحرفت بعيداً عنهم متجهاً إلى غرفتنا.

قلت لأمي عن الأولاد ، فردت عليّ مخففة :

ـ أصحابك هما راشيل بنت خالتك وديفيد ابن الأستاذ سمعان وماريكا وكوكي ولاد تانت حنه . والعيال اللي هنا ولاد صرمة وملهمش لزمة كلهم.

ـ وحسن !

ـ حسن مين !

ـ حسن جارنا إنتي نسيتيه !!

هزت رأسها قائلة بصوت لايكاد يسمع :

ـ وحسن ..

* * *

(١٤)

من طلعة الشمس وأنا أرتدى القميص والبنطلون القصير والحذاء أبو أبزيم ، وأمي تلتف بشال غامق على الفستان وترتدي شراباً وحذاءً أسودان.

كنا جالسين على حرف السرير في انتظار أية إشارة تأتي من الدهليز، وأول ما سمعنا جدي يسعل بجوار شباكنا سعلات قصيرة وحادة فهمنا أنه ينادي علينا.

خرجنا فوجدناه على عتبة البوابة الخارجية مرتكزاً على عصاه يتابع إمام وهو يضع البردعة القطيفة على ظهر البغلة المخصصة لمشاويره الخاصة ، وخرشوف على مقربة منه يسير هنا وهناك بنشاط على غير عادته.

وسمعنا صريراً خافتاً ينبعث من مقبض نافذة زوجة أبي ، وإذا به ينفرج قليلاً وتطل منه بثياب النوم .

الشر كان بادياً على وجهها فتحاشت أمي النظر إليها ، أخذت موقعاً بعيداً عنها مستندة بيدها على حلق أحد الأبواب وأمسكت معصمي باليد الأخرى . استدار جدي نحونا فأغلقت زوجة أبي ضلفة شباكها الموارب في لمح البصر وتأهبنا أنا وأمي ، فرمقنا بنظرة خاطفة دون أن يتكلم. وملصت أنا معصمي من قبضة أمي واقتربت منه، وهي

تنهرني بصوت مكتوم . لاحظنا الجد ونظر إليّ وابتسامة خفيفة تلوح على شفتيه ، ولما دفعتني أمي تجاهه حملني إلى صدره وغمرت أنفاسه كل وجهي ..

كان حاجباه كثيفين والشعر الأبيض فيهما يغلب على الأسود .. وأطلت النظر في الندبة التي أسفل عنقه ، وتبدو أكثر وضوحاً كلما انزلقت قبة الجلباب إلى أسفل . تحسستها بأصابعي وهو يتأملني بعينيه . كانت هذه هيَ المرة الأولي التي اقترب فيها منه علي هذا النحو وعندما أمسكت بزر عمامته لم يغضب .. أمي هي التي ماتت في جلدها .. عضت على شفتها السفلي محذرة وأسرعت لتأخذني ، لكنه أشاح لها بيده ضاحكاً وأناخ رأسه لي أكثر وأكثر .

نظر بعدها صوب غرفة نومه وتنحنح مرتين .. كان واضحاً أنها إشارة لجدتي ، إذ سرعان ما أتي صوتها من الداخل بأنها قادمة في التو.

قال لأمي :

ـ مش كنتي تلبسي حاجة فلاحي يا أم جلال .

أحنت رأسها ولم تجب ، وكانت جدتي قد أتت . أومأت له أن يغض الطرف عن هذا الأمر فسكت .

لمحت جدتي زوجة أبي وهي تطل علينا من فتحة بابها ، فقالت لها بدهشة :

ـ إنتي لسه بجلابية النوم يا بنتي.

فردت بصوت متكاسل :

ـ معلش يا خالة أصل راسي وجعاني .

فبدا الغضب على وجه جدتي :

- يا بنتي دا إنتي من ساعة واحدة كنتي كويسه . أيه يابت كهن النسوان ده ! يللا يللا البسي علشان تيجي معانا .

فخرجت علينا تقول بصوت متوتر:

- آجي فين يا خالة ! آجي فين ! وهو الشرع بيقول الكفرة يروحوا ترب المسلمين.

تدلت أمي برأسها نحو الأرض ، وصاحت جدتى في زوجة أبي.

- جري أيه يا وسخه .هو ده اللي اتفقنا عليه . طب امشي انجرى على مطرحك.

ولما تنحنح جدي بصوت تحذيري سكت الجميع ، واتجه هو إلى دابته.

لم يكن امتطاء جدي لظهر البغلة أمراً سهلاً .

فشل إمام مرتين في إنجاز هذه المهمة ، وجدي يلقي اللوم عليه لأنه لم يجهز نفراً أو نفرين معه.

وأزاد خرشوف الجو توتراً بنباحه المتواصل ، وأتت كلاباً أخري تنبح على نباحه فزام فى وجهها على اعتبار أنها مسأله داخلية تخصه هو ولا تخصهم . أنقذنا أحد المارة . أمسك جدي من أسفل ظهره وإمام من كتفه ودفعاه معاً ، غير أن البغلة تحركت إلى الإمام ولولا ستر الله لسقط الجد من عليها . جري إمام هنا وهناك وزعيق جدى من خلفه يترامي لمسافات بعيدة ، وخرشوف ـ الذي فهم المشكلة ـ يعدو في أثره . أتيا أخيراً برجل كفحل الجاموس وصبي من حارة مجاورة .أمسك الصبي بطوق في رقبة البغلة والتف الثلاثة حول جدي ، وما هي إلا دفعة فأخري حتي استوي في جلسته . ولما فرد الجد الشمسية تحركت البغلة

من تلقاء نفسها.

سرنا في رهط صغير . جدي على بغلته وإمام يده على رقبتها . وأنا وأمي وجدتي على الأقدام وراءهما . وعندما لمح جدي خرشوف يسير بيننا أمره بالعودة فلوى وجهه وهو يزوم بامتعاض ، ثم رجع وتمدد أمام باب البيت وعيناه ترمقنا إلى أن ابتعدنا.

المقابر في الطرف الآخر من البلدة ، ولم يكن من سبيل أمامنا إلا المضي في بعض الشوارع والحارات.

الجد في المقدمة يلقي السلام بصوت جهوري ، والرجال المتحلقون بعتبات الجوامع وعلى النواصي وأمام الدكاكين يردون السلام ويفسحون له الطريق .. لكن بالهم لم يكن معه .. كان مشغولاً بالآتيين خلفه . فعيونهم كانت تتلقانا عن بعد ويبدأون في الوشوشة .. وأول ما نمر بمحاذاتهم يصمتون ثم يعودون إلى الكلام بعد أن نمضي . ومن خصاص وفرج الشبابيك كانت تلوح وتختفي وجوه وخيالات لنسوة وبنات كبار وتعلو أصواتهن ثم تخمد مرة واحدة . العجائز هن اللائي كن يرمقننا في صمت ودون أن تصدر عنهن أية حركة . وعندما نبهت أمي إلى امرأتين تشيران علينا وهما جالستان فوق سطح أحد البيوت لكزتني في بطني كي أسكت.

شاع خبر مسيرتنا في كل الأرجاء ..

ولم يعد هناك - لا كبير ولا صغير - إلا ويتابعنا حتى الكلاب التي تستلقي في الطرقات ، كانت ترفع رؤوسها نحونا هي الأخرى . منها من كان يهب على قوائمه الأمامية وينبح في وجوهنا إلى أن نبتعد عنه ، ومنها من كان يكتفي بالنظر إلينا نظرة عابرة ويعود إلى غفوته.

والغريب أن جدي اختفي من أمامنا ولم نعد نراه .
شغلني هذا الأمر وكنت بعد كل انحنائة لشارع أو حارة أمد بصري باحثا عنه ولا فائدة . لم أجد حلا إلا أن اقترح على أمي أن أسرع أمامهما لأتقصي خبره.
فلكمتني في ظهري ، قائلة :
ـ آهو ده اللي ناقص .
وشددت قبضتها على معصمي وأنا أحاول الفكاك منها بلا جدوي.
تدخلت جدتي قائلة :
ـ بالراحة يا بنتي متخافيش عليه .
وأردفت موجهة الحديث إليّ.
ـ أصل يا ابني جدك بيستحي يمشي مع النسوان . سلو بلدنا كده .
غير أني لم أقتنع ، وظللت أبحث عنه بعينّي لعلي ألتقطه عن بعد ، ولا أعرف لماذا خطر نجيب الريحاني علي بالي لحظتها وخفت أن يموت جدي فجأة مثلما مات .
بعد أن سرنا في شارعين وأربع حارات لاحت لنا المقابر عن بعد فاكتسانا كلنا الوجوم .. وأنا بالذات دهمني شعور غريب لم آلفه من قبل ، وبدوت وكأني مساق إلى دنيا غير الدنيا التي أحياها وأراها كل يوم .. دنيا أخافها منذ كنت صغيراً وأعرف أن الأهل والأحبة إذا دخلوها لا يرجعون . وبدأت شواهد القبور تزداد وضوحاً وتكبر أمام عينيّ كلما أمعنا في السير ، وأنا أتطلع إليها بشغف تشوبه الرهبة .
وطفرت دمعة من عين أمي . مسحتها بكفها وانحنت برأسها فبدا عنقها وكأنما ازداد نحولاً . وفترت همة يديها فأصبحت تروح وتجيء

على نحو أبطأ . وجدتي وجهها ساكن والاثنتان لا تتكلمان .

كنت لا أزال صغيراً ومزاجي سريع التبدل فخرجت مما أنا فيه لما رأيت جمعاً من الأولاد في مثل سني يصطفون في طابور علي حافة الطريق ، ثم بدأوا في رفع جلاليبهم في وقت واحد وأخذوا في التبول كأنهم داخلين في سباق . سرني ما يفعلون وطلبت من أمي الانضمام إليهم فأخذت صفعة على قفاي . وسألتها عن المعيز والخراف والحمير وكل ما أصادفه في الطريق ، وخاصة تلك المرأة التي كانت تسير بحذائنا وأول ما تجد أقراص الجلة الطرية نفاذة الرائحة التي تتغوطها الجواميس ، تقوم بالتقاطها بفرحة ووضعها في طست على رأسها . وأمي تلكمني وتشدني من أذني ، وجدتي تتابعنا في صمت وقد بدا عليها الإعياء وأمي تبطئ خطواتها مراعاة لها.

وعندما أشرفنا على قبر أبي ، وجدنا جدي جالساً على مقعد من الجريد.

كان مطرقاً ووجهه يموج بحزن عميق ، حتي أنه لم يشعر بوصولنا ، وإمام في يده عصا ويقف بالمرصاد لأي كلب أو قطة تفكر قي الاقتراب منه ، وكان الذباب يملأ المكان .. ذباب غريب وحجمه أكبر بكثير من الذباب الذي نراه في البيوت .لم يسلم منه الجد .. كان يحوم حول وجهه وهو يهشه بكف يده بطريقة آلية وعيناه شبه مغمضتين.

وعلى حرف الغيط المجاور كان حمار يقضم الحشائش النابتة، ولما اقترب منه حمار آخر وفي عينيه نظرات تحدي ، زفر الأول من خيشومه ونقر نقرتين بساقه في الأرض متأهباً للعراك وما هي إلا لحظات حتي أخذا يتبادلان الركلات . تأفف الجد منهما فمال على حجر وقذفهما به ،

وأسرع إمام نحوهما بعصا فجريا وراء بعضهما يدهسان أحواض الزرع.

تربعت أمي وجدتي قبالة المقبرة . وفوجئنا بقدوم أحد المقرئين رغم أن اليوم ليس يوم زيارة كما قالوا .أشار له جدي فأقعي على مسافة منه يتلو القرآن مبدداً السكون الذي حولنا .

كان وقع الكلمات طرياً على قلبي وانساب فى نفسي مع الإيقاع الذي كنت أسمعه من الشيخ الدمنهوري ، وأنا ذاهب لشراء الفول كل صباح . ووجدت نفسي شارداً وأقبض على حفنة من الرمل المفروش أمام المقبرة ثم أتركه ينساب من بين أصابعي .أعيد الأمر مرة بعد مرة وشيء يجثو على قلبي ، وكأن الدنيا ليس فيها نسمة هواء واحدة .

وانتبه الجد لصوت المقرئ . سند ذقنه على عصاه وترك عينيه تجوسان في القبور الممتدة أمامه ، وعلى بعد خطوات منه كانت البغلة ممددة على جنبها بلا حراك وعيناها مفتوحتان .

وكانت أمي تتلو أدعية بصوت خفيض .. لم تتوقف إلا لما همست لها جدتي بأنه لا كلام أثناء قراءة القرآن .

كان في أعلي المقبرة لوحة رخامية مكتوب عليها « إن المتقين في جنات ونهر عند مليك عزيز مقتدر .. صدق الله العظيم »، وأسفل منها عبارة تقول « هذا قبر محمود عبدالحميد المنشاوي.. استشهد أثناء العدوان الثلاثي يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ » .

تأملتها أمي ووجهها يكسوه تعبير حزين .: وأزالت جدتي بطرف شالها الغبار الذي يغطيها ، وجرفت أمي بكف يدها طابوراً من الهوام كان متجهاً صوب فوهة المقبرة.

ولما انتصب الجد واقفاً ، كان هذا أمراً بالعودة .

سألته جدتي البقاء قليلاً فلم يذعن لها واتجه صوب البغلة ، وإمام يهرول أمامه متلفتاً حوله عمن يغيثه ويساعده في الصعود بجدي على ظهرها . ولحظتها بدا وجه جدتي مصفراً وعلى جبهتها عرق خفيف ، وكأنما شاخت عما رأيتها في الطريق . وأخذت تنهنه بصوت مكتوم وتواري وجهها في طرحتها السوداء، وأمي تمسك بذراعها وعيناها هي الأخرى تطفر بالدموع .

وفي طريق العودة آثرت الانفصال عن أمي وجدتي واللحاق بمقدمة الركب ، فلم يمانع جدي وأمر بوضعي خلفه.

وقبل أن ننام قالت لي أمي :إننا سوف نسافر في الصباح .

طلبت منها أن نبقى فاندهشت وقالت : إنه ما عادت بنا حاجة للبقاء. قبر أبي وزرناه . جدي ورأيناه . والمصاريف وعدتنا بهم الحاجة أم محمود .

* * *

(١٥)

كان الجد حاسر الرأس ومسترخياً على الدكة ، وعمي إبراهيم مرتدياً فانلة داخلية بأكمام طويلة وسروالاً من القطن يلتصق باللحم . وهو الآخر شبه مسترخي على الدكة المقابلة يحتسي الشاي مع جدي ، ويتكلمان عن الأنفار والبطيخ والشمام والكوسة التي لم يأت من ورائها أبيض ولا أسود هذا العام.

هش جدي في وجهي عندما رآني قادماً نحوه . حملني وأجلسني إلى جواره وانهمك في تعديل ملابسي ، وأحكم ربط أبزيم الحذاء ثم قال وهو يملس على شعري :

ـ خلاص يا جلال .. نويت على السفر.

وأخرج قطعة حلوى من سيالته . وضعها في كفي وأخذ يجري بأنامله على عنقي مرة ببطء ومرة بسرعة ، وأنا أميل وأتلوى بجسدي من نشوة الدغدغة . ولما سألته الكف عن ذلك قال ضاحكاً:

ـ خلاص هسكت بس على شرط . تقعد معايا هنا على طول.. تسيب أمك تمشي لوحدها وأنا أفصلك جلابية بلدي وأخدك الغيط معايا ..

رغم صغر سني فهمت أنه يمزح معي ، فعدت برأسي قليلا إلى الوراء وهززتها رافضاً ، فقال بنغمة مغوية :

ـ دا أنا هركبك البغلة كل يوم .

أعاود هز رأسي .

- وأخليك تلعب مع خرشوف .

وانطلق عمي :

- أي والله صحيح يابا . متخليه يقعد معانا ..

لم تكن سحنة العم تشي بأنه يمزح مثل جدي ، فأخذتني رجفة خفيفة مما يقول والتفت نحو الجد .ضغط براحته على صدري مطمئناً ، ثم رفع عينيه نحو عمي كي يصمت أو يقول كلاماً معقولاً.

يبدو أن العم لم يفهم . اعتدل مستكملاً حديثه وسحنته الجادة على حالها:

- آه يتربي مع العيال .. معلوم يتربي مع العيال ..

نظر جدي إليه ثانية ، بدا وكأنه يريد منه الكف عن إخافتي إلا أنه عاد وأطرق . عمي هو الذي استمر في الكلام :

- كده برضه أحسن . مش بيقولوا ابننا يبقي يتربي معانا .. آه .. ولا انت هتسيبه يابا يرجع مع الولية العكرة دي اللي احنا لا عارفين لها أصل ولا فصل ..

أربد وجه جدي وتنفس بصوت مسموع ، وكانت أمي قد أتت وفي يدها حقيبة السفر وخلفها جدتي . وخيم السكون . سكنت الحياة في الغرف الداخلية تماماً .. اعتصمت كل جماعة بشباكها تتابعنا من ورائه. ولم يكن بمقدوري أنا أو أى واحد من الجالسين رؤية شعرة واحدة أو سماع ولو همسة تنبئ عنهن ، فهن محنكات في هذه المسائل .

أشار جدي لأمي كي تجلس قبالته ، وتحلقت به كل الأبصار.

أمسك بلفافة يضعها إلى جانبه وأعطاها لأمي . طلب منها أن

تفتحها وتحصي ما فيها ، وعندما توانت أعاد عليها القول بنبرة آمرة.

أوراق من فئة الجنيه والخمسون قرشاً وأرباع الجنيه والعشرة قروش وورقتان من فئة الخمسة جنيهات ، عدتها مرتين ونظرت إلى جدي فأشار لها كي تعيد العد مرة ثالثة ففعلت وأحاطت النقود بأستك رفيع أخرجته من حقيبة يدها وقالت لجدي :

ـ دول ميت جنيه يا عمي.

اندهش العم إبراهيم من قولها كلمة (عمي) . إلتفت إليها باستغراب ثم نحو جدي ، دار بعدها نصف دورة ناحية جدتي وهو يقلب كفيه . تقلص وجه الجدة ولمحتها وهي ترفع إصبع السبابة إلى شفتها المزمومة كي تسكته.

قال جدي مخاطباً أمي :

ـ يكفوكم كام شهر .

أجابت وحمرة خفيفة تكتسي وجهها :

ـ كتر خيرك يا عمي . مستورة الحمد لله . والبابا مش مقصر معايا.

ـ دا فرض عليه . والولد ده ـ ضغط علي صدري ـ مسئول مني .أنا اللي أصرف عليه مش حد تاني .

وأخذ أنفاسه ..

ـ وإنتي كمان طول ما بتربيه وشايفه أموره بما يرضي الله .. أكلك وشربك وكسوتك عليّه .

مال جدي على المنشة وهش بها ذبابة تحوم حول وجهي ، ثم هرش رأسه وقال بصوت خافت أشبه بالهمس:

ـ هو انتى يا بنتي لسه ..

ـ قصدك يا عمي لسه علي ديني . أيوه لسه . أنا ناويه خلاص بس لسه ما جاش النصيب .وكنت اتفقت ...

وواتت أمي نوبة سعال طويلة . أسرعت جدتي إليها بقلة ماء وأشار لها جدي بأن ترتاح ولا تتكلم إلا أنها استمرت في الكلام وبدا صوتها وكأنه متحشرجاً:

ـ متخافش على جلال يا عمي . جلال مسلم وليه جاره اسمها أم حسن جوزها شيخ في الأزهر بتاخده عندها وبيفضل الشيخ ده يعلمه الصلاة والصوم ويحفظه القرآن .

وأردفت بحماس :

ـ دا حافض سور كتير .

وإلتفتت نحوي قائلة :

ـ مش كده يا جلال .

فقلت بصوت خافت « كده » وأطرق جدي طويلا ثم قال :

ـ يا بنتي إنتي حره في نفسك . أنا همي كله على جلال . لكن مش وقته الكلام ده . لو في العمر بقية حيبقي فيه كلام تأني . خلينا في دلوقتي تكفيكم الفلوس دي كام شهر.

ـ يكفوا خمس تشهر ويمكن أكتر كمان.

ـ أنا بقول كده برضه .

يبدو أن عمي لم يستوعب الأمر إلى الآن ، إذ انفلت لسانه فجأة قاطعاً مسار الحديث :

ـ اسمعي يا أم جلال . أنا بقول بالسلامة إنتي . والواد يقعد معانا يعيش ويتربي . دا أنا لسه باخد وأدي في الكلام ده مع أبويا .

صمتت أمي وعيناها تستغيثان بالجد ، الذي تنحنح وقال بصوت رزين :

- مينفعش دلوقتي يا ابني . جلال لسه صغير ومتعلق بأمه . الأيام جايه وييجي الفرج ساعتها من عند ربنا.

ولحقت به أمي :

- وكمان هو هيدخل المدرسة السنة دي .. خاله شمعون خلاص قدم له الورق.

دار عمي بكل جسده ناحية أمي وقال بدهشه :

- شمعون ! شمعون مين !!

استغربت أمي لدهشته :

- شمعون .. شمعون أخويا الكبير !!

رد بصوت عال :

- أيه الأسامي دي يا ست إنتي ؟ . وشمعون ده بني آدم زينا !!

انزوت أمي في فستانها ، تقوس ظهرها وتشابكت أصابع يدها بحركة أعرفها عندما تكون مرتبكة وبلا حيلة . ونفذ صبر الجد ، صاح في عمي :

- أيه الكلام ده يا إبراهيم . يا تقول حاجة عدلة يا تسكت . إنت مالك إن كان اسمه شمعون ولا ميمون ولا حتى زرزور.

- أصل يابا .. أصل .. وبعدين هنسيب الواد في إيد الناس دول .. دا حتي الشرع ...

قاطعه جدي بصوت عال :

- لا أصل ولا فصل . وبعدين إنت قاعد كده ليه . امشي البس

جلابية تسترك .. منتش شايف مرات أخوك قاعده معانا . خلي عندك نظر.

بدا عمي مرتبكاً ، ولما حاول الكلام صاح جدي بصوت أعلي وأعلى:

ـ أيوه قوم . قوم واتحشم كده !

قام عمي يبرطم والجد ما زال يصيح في ظهره :

ـ وقبل يا خويا ما تفتي في الشرع يبقي استفهم . روح الأول لسيدنا في الكتاب واسأله .. خليه يقريك القرآن من تاني ويعرفك إن دول من أهل الكتاب وليهم عندنا عهود .

لحقت جدتي بعمي ثم عادت وخيم التوتر على الجلسة . ولحظتها فقط استطعت تمييز مواقع بعض الرابضين خلف الشبابيك . أحسست بحركاتهم وسمعت من يلعنني أنا وأمي بصوت هامس مؤكدين على أننا كفرة بالفعل وليست لنا أى عهود كما يقول الجد .

نظر جدي نحو جدتي وقال :

ـ آهو معاهم مصروف خمس تشهر . وكل هلة شهر بعد كده تفكريني أبعت لهم عشرين جنيه مع إمام .

ثم هز رأسه متمماً بصوت مؤثر :

ـ تفكريني دا أيه . وهو أنا هنسي . ولما أموت ....

قاطعته قائلة :

ـ لك العمر الطويل يا اخويا .

وأخرجت من صدرها منديلا في حجم الكف ، تمسح به قطرة عرق علقت برموشها .

ـ أمانة عليكي تبعتي المبلغ شهر بشهر بعد حياة عيني . وتوصي بيه

إبراهيم .

- حاضر . حاضر يا اخويا . دا إبراهيم قلبه أبيض هو بس اللي حمقي ومبيحسنش الكلام.

أجابها وعيناه شاردتان :

- عارف .. عارف ..

وجاء إمام بسيارة الأجرة التي سوف تحملنا إلي مصر . صمم جدي ألا تذهب امرأة ابنه إلى موقف السيارات وتركب كما يركب الناس . وبدا إمام متأثراً لسفرنا.

قال له جدي.

- لما يدخل الشتا أول كل شهر عربي تيجي وتاخد مني أمانة تروح تسلمها لأم جلال في إيدها .. عارف البيت ؟

- أيوه عارف .

- عارف أيه يا ابن الرفدي .. هو انت كده طول عمرك كداب وغلباوي.

وكادت أن تنشب مشاجرة من مشاجرات جدي مع إمام ، لولا تدخل جدتي التي أشارت للجد منبهة بأن الوقت ليس وقت مشاجرات فرضخ وقال لإمام :

- تروح بالعربية لحد باب البيت . تعرف اسم الشارع ونمرة البيت . وتكتبهم في ورقة تسلمها لي أول ما ترجع.

- حاضر يابا الحاج !

انحنت أمي علي جدي تقبل يده . تردد لحظة ثم تركها لما تريد . وبعد أن ربت علي كتفها مد يده لمصافحتها . كانت المرة الأولى التي

يفعل فيها ذلك ، فمنذ أن أتت لم تلمس يده يدها وكلامه معها كان من بعيد لبعيد وبالحساب.

دفعتني أمي كي أقبل يد جدي . لم أكتف بذلك فقط . قفزت عليه فحملني إلى أعلى . أحطت برقبته وهو يهتز ضاحكا ويقبل كل موضع في جسدي تصل إليه شفتاه ، وفعلت الجدة ذلك وعيناها مغرورقتان بالدموع .

وأتي عمي إبراهيم بجلباب مكوي وطاقية من الوبر مشدودة كالسيف .سلم علينا بوجه عابس ثم حملني ووضعني في السيارة دون كلمة . ولما استوينا أنا وأمي على الأريكة الخلفية ، تحلقت نسوة البيت بعتبة الباب وحولهن الأولاد والبنات . ظلوا يحدقون فينا ولم نتبادل الكلام أو حتي أشار أحداً منا للآخر .

وانطلقت بنا السيارة ..

وأنا أنظر إلى الدكاكين ، والعيال الذين يجرون بحذاء السيارة، والأوز والدجاج الذي يتسكع أمامنا غير عابئ بالسيارة ولا أبواقها .

وعندما عبرنا الجسر الذي يبدأ به طريق السفر ، همت بعينيَّ في الحقول التي تمتد كثيفة على الجانبين .. والناس الآتيين في مواجهتنا سيراً على الأقدام أو يمتطون الحمير .. وشيئاً فشيئاً زادت سرعة السيارة ، فاسترخيت على المقعد أتطلع من النافذة لهامات أشجار الكافور التي تمرق خطفاً إلى جوارنا.

* * *

(١٦)

كان جدي زكي حاسماً في ألا تساهم أمي بشيء في نفقات البيت ، قال : الفلوس التي أتت بها من عند أهل جلال تحفظ له في دفتر التوفير فلا أحد يعلم ما تخبئه الأيام .

وعندما اقترب ميعاد المدرسة ووفقاً للنظام الذي اتبعه جدي في مسألة كسوتي ، اشتري لي قميصاً لو فردنا أكمامه لتجاوزت أصابع يدي بقيراط أو قيراطين ، وبنطلون يدعو للكآبة وسدة النفس . المدرسة قالت : المقاس المضبوط هو الذي يتدلي إلى أسفل منتصف الفخذ ببوصتين ، وجدي رأي أن يكون بعد الركبة بثلاث بوصات حتي يُعمر معي ولا مانع من أن يكون متسعاً كبنطلون البيجامة.

الحذاء هو الذي أفلت منه .

ففي المحل أخذت أجرب المقاسات الكبيرة التي أشار بها ، وما أشعر إلا بقدمّي تتوهان فى الحذاء وتفشلان فى إحكام السيطرة عليه . وكنت من جانبي أزيد من عبثية الموقف ، بخطواتي المتأرجحة ويدىّ اللتان تستندان على كتف البائع وكأنما أنا على وشك السقوط بالفعل.. وجدي يرمقني ويهز رأسه.

مال على أذن أمي وأوعز لها ألا تبالي بالحركات التي أفعلها، فالحذاء الذي في قدمي - وكان يزيد عن مقاسي بنمرتين - هو الأنسب ولو

أحسنت استخدامه سوف يعيش معي ثلاث سنوات . واقترح عليها حشر قطعة قماش أو فردة (شراب) قديمة في مقدمته حتي تثبت قدماي ، إلا أنها لم تقتنع وبعد مناقشات وشد وجذب بينهما أسقط في يده وخرجت أنا بشيء على مقاسي.

كانت أحذيتي مصدر صداع دائم لجدي ، فلأنها من النوع الرخيص كنت أعود إليه بعد شهر وربما أسبوعين إما بلا نعل أو مفتوحة من البوز حتي المنتصف ، ويدور هو على المحلات لإصلاحها .

رجعت له مرة بفردة واحدة بعد أن شطت بالأخري حجراً في الشارع ، فانخلعت رغماً عني وسقطت في بالوعة المجاري . كاد أن يقتلني يومها. وضع قطعة نقود معدنية في فتحة أذني وظل يفركها وأنا أصرخ بأعلى صوتي . وطلب من أمي بغضب أن تذهب وتسحب ثمن حذاء جديد من دفتر التوفير ، فهو لن يشتري لي من حر ماله أي شيء بعد ذلك .

ومرت الأيام في المدرسة .. وإن لم تخل من المنغصات.

ففي يوم التفتيش الأسبوعي ونحن مصطفين فيَ الطابور الصباحي ، أول تلميذ تقع أعينهم عليه هو أنا.

كنت ملفتاً للنظر بجسدي النحيل وهو يخب في قميص أشبه بقميص الأكتاف ، وبنطلون يصلح لأحد المدرسين وليس لي ، وجورب رجالي تدلى من عند موضع الركبة وارتخي على مقدمة الحذاء هو وحلقة الأستك البيضاء العريضة التي تحيط بفتحته.

يخرجوني بإشارة إصبع مستفتحين بي طابور المذنبين ثم يمرون على الصفوف . عادة ما يلحق بي الولد الذي يأتي بالكتب والكراسات في

كيس مخدة أخاطته أمه من الجانبين بخيط أسود بارز ، وولفت له يدين من الدوبارة ، وجيب خارجي من خرقة صوف قديمة ليضع فيها الأقلام والمسطرة وباقي أدوات المدرسة ، حتى بدا الكيس في شكل حقيبة . ثم يخرجون ما بين عشرة أو خمسة عشرة تلميذاً لأسباب متفرقة . مزق في البنطلون أو ياقة القميص . رائحة زفارة بيض أو طبيخ . وإصابات الأحذية كان لها بالطبع نصيباً لا بأس به .

وتشتد رائحة الفسيخ حتي تزكم أنف حضرة الناظر، فيبدو عليه التأفف . وتكون هذه إشارة لثلاثة مدرسين يقفون دائماً إلى جانبه . ينطلقون وراء بعضهم مشكلين فريق بحث . كان مصدر الرائحة مجهولاً في البداية حتي عنا نحن التلاميذ . والمدرسون يتشممونا ويزغدوننا بأياديهم كي نعترف ويدورون بأعينهم في كل مكان ، وكأنما هم في سباق مع بعضهم للوصول إلى الجاني.

مدرس الألعاب هو الأسرع .

يطبق بيديه على ابن عم جرجس الفسخاني الذي يقف على ناصية شارعنا . فسيختان كل واحدة فى نصف رغيف خبز بلدي، وبصل أخضر وثمرة طماطم حامضة في جيب المريلة الثاني . يرفعون يده عالياً بوصفه (أنتن) تلميذ في المدرسة ، ويجره مدرس الألعاب من أذنه ويسلمه لحضرة الناظر . لا يلمسه الناظر . يظل يدفعه بطرف عصاه حتي يقف في منتصف المربع الذي يتشكل منه الطابور كي نراه كلنا . وهنا يأتي دور عم طلبه الفراش . يشمر كميه الواسعين ويقترب بخطوات متعجلة ثم يحمله بيديه المدربتين ، واضعاً المؤخرة في وضع مناسب أمام حضرة الناظر . والذي ينفخ في راحة يده ثم يعود خطوة إلى الوراء ويهوي

عليها بعصاة الخيزران عشر مرات، وقد يزيد إذا كان مزاجه متعكراً . يلتفتون بعدها إلى الواقفين في طابور المذنبين . نمد أيادينا بحكم العادة ونتلقى عدة ضربات بالعصا أو بمسطرة . لا تكون الضربات موجعة فبعد أن يفرغ الناظر تفتر الحماسة دائماً ، حتي أنهم كانوا ينسونا واقفين في بعض المرات ويستكملون الطابور ومراسم تحية العلم ونحن لا نصدق أننا نجونا .

كل هذا يهون .. وعصا مدرس الحساب في الفصل تهون أيضاً . المشكلة التي ليس لها حل ، أن الأولاد في المدرسة عرفوا أن أمي يهودية.

كنت أنا وحسن وفهمي ابن الباشكاتب نتكتم الأمر كأنه سر حربي . لا يرد على ألسنتنا أبداً . وإذا جاء على بالي مرة يجيء خطفاً وانشغل بعدها بما ينشغل به من هم في سني .

لكن ما الذي أفعله لإبن عم زكريا ترزي القمصان في العمارة المجاورة لنا ، استشاط غضباً لما تدخلت مؤازراً حسن في المشاجرة التي نشبت بينهما.

ركلني بقدمه وهو يقول بازدراء :

ـ ابعد إنت يا ابن اليهودية !

شُل تفكيري من المفاجأة وامتثلت على الفور دون أن أنطق بكلمة، وعندما انتشر الخبر في المدرسة أغلقت الدنيا كل أبوابها في وجهي . أنام مهموماً وأستيقظ مهموماً ، وأتلكأ منتحلاً في كل يوم عذراً حتى لا أذهب للمدرسة ، وعندما تغضب أمي مني أحمل حقيبتي وأجر قدمي وأخرج .

تسألني بعدها عن السبب فلا أجيب ، ولما تمل من تكرار السؤال تتركني وتمضي وأظل أحدق أنا فيها من الخلف.

وبدأت أتابعها عندما تكون غافلة عني ..

أتأملها وهي تغدو أمامي في البيت بعدما كنت لا أعرف هذا الشيء من قبل .. وعندما تجلس في المساء على كنبة الصالة وتمسك بالكتاب المقدس لاتغفل عنها عيناي ، وكأني أترصدها وهي تقترف شيئاً آثماً .. وأرنو إليها وهي جالسة أمام المرآة بغرفتنا .. لحركاتها .. ويديها وهي تمشط شعرها .. أو إذا انثنت لتلتقط شيئاً سقط منها .. وأسحب بصري إذ التقي بعينيها على صفحة المرآة .. وعلى صغر سني بدأ قلبي يلوك في أشياء لاتقال .

وتجتاحني كآبة يعقبها إحساس لا أدري كنهه ، فأقوم واحتضنها بلا سبب .. تتبسم لي ابتسامة عاتبة .. وصرت أخاف المدرسة .. وكأن ولداً يتبعني خطوة بخطوة وعندما التفت ورائي لا أجده .. وأخشي أن يغافلني أحد ويشد بنطالي فيري الأولاد عورتي . أو يصوب لي أحُد منهم لكمة وأنا غير منتبه ..

.وبدأت أعمل ألف حساب للجالسين ورائي في الفصل .. كنت أشعر بهم وأكاد أجزم بأنه ولا واحد منهم كان مع المدّرس .. كانوا معى أنا .. يتهامسون وأنا لا حيله لى ..

ولم يسلم الأمر أيضاً من مشاجرات تستخدم فيها الحقائب والمساطر والأشياء الملقاة بفناء المدرسة .كان حسن وفهمى دائماً معي ويدافعان عني ، لكن ماذا يفعلان أمام الكثرة !

عدت مرة من المدرسة بعد عراك وإهانات لم تتوقف إلا علي أول

الشارع ، فوجدت إمام عندنا . كان قد غاب عنا أشهر طويلة. رأيته حزيناً على غير عادته.

- قال إن جدي مات ..

سقط كوب الشاي من يده وهو جالس مع أصحابه وأسلم الروح في الحال. سألته بشكل تلقائي عن خرشوف ، فقال : إنه فقد بصره ووجدوه ذات صباح ميتاً بجوار الباب . طلب إمام من أمي أن تذهب للعزاء إكراماً لجدتي . عرض عليها أن يأخذها بسيارة ويعود بها في نفس اليوم .

قالت: لا ، قالتها بإصرار.

* * *

(١٧)

جاءني جدي في المنام .

كأني كنت ألعب مع العجل الصغير في الشونة التي في البلد . أكلمه فيرد عليّ . أهم بشد ذيله فيسرع مختبئاً مني . ومن الخارج جاءني صوت جدي .. كان الصوت واهناً . وجدي يأخذ أنفاسه بين الكلمة والأخرى على غيز عادته .. سمعته يسعل بعدها سعالاً مؤلماً ، وينادي على جدتي أن تسعفه بشربة ماء .. خرجت مقتفياً أثر صوته .. حسبته في الغرفة التي كنا ننام فيها أنا وأمي .. اتجهت صوبها ولسعة خوف تسري في بدني ، فالبيت كله لا حس ولا حركة وغبشة خفيفة تملأ الجو .. توقفت لما رأيت كلبين على مقربة من باب الغرفة يزومان في وجه بعضهما ويتأهبان للعراك .. انحرفت مسرعاً نحو الدهليز .

الدكك كلها مليئة بالناس .. أناس ليسوا مثلنا .. شعرهم طويل كشعر النساء ويتدلى على أكتافهم ، ولهم شوارب كشوارب القطط .. ولم يكن جدي بينهم .. سكتوا لما اقتربت . ووقُفت أنا على مسافة منهم.. عيونهم تحدق فيّ .. لم ألحظ في السابق أنها الأخرى تلمع كعيون القطط .. واحد منهم ـ أظنه كبيرهم ـ يدعوني أن أتقدم .. وشيئاً يقول لى في أذني : إبتعد .. إبتعد وأنجو بنفسك .. أسرع من هنا .. وأنا لا أقدر على تحريك قدميّ .. ماتت مني .. كأنها غاصت في

الأرض ولم يعد لي عليها سلطان.

لم أتذكر الحلم إلا وأنا راجع من المدرسة في اليوم التالي . جاء على بالي لما رأيت المعلم حبيب جالساً بجلبابه وعمامته على مقعده المعتاد أمام محل عصير القصب . أخذت درجات السلم ثلاث في ثلاث . ارتميت على أمي أحكيه لها ، وأنا أنهج وقلبي ينتفض من شدة الانفعال.

تأملتني برهة وقالت وهي تحك جبهتها بإصبعها حكا خفيفاً:

ـ يا ريتني ما استحيت أقول للواد إمام يفكر عمك بالفلوس اللي اتعهد بيها جدك.

قلت لها وأنفاسي لا تزال تروح وتجيء :

ـ أنا مش تايه عن صوت جدي ولا كحته .. مش تايه .. والناس اللي كانوا قاعدين على الدكك وحشين وشكلهم يخوف.

تطرق أمي وهي تعاود الحديث مع نفسها بصوت هامس :

ـ دي تبقي مشكلة لو الراجل ده اللى اسمه إبراهيم عاكسنا في الفلوس.

وعندما جاءت جدتي تستطلع الخبر أومأت لي أمي كي أذهب وأبدل ملابسي . تلكأت فنهرتني وسمعتها تقول لجدتي وأنا أدخل غرفتنا : إنها احتارت في أمري .أكلتي خفيفة ودائم السرحان ، ولا تمر ليلة إلا وأزوم فيها وأنا نائم وعندما توقظني أقوم مفزوعا .

أغلقت الباب ووقفت وراءه أتسمع حديثهما . كانتا تتكلمان عن جدي . تقولان : إنه رجل جاهل ولو لم يكن مع أمي أوراق رسمية لطردها من بيته ولم يعترف بأن له حفيداً . وأخذا يلعناه في تُربته هو

وجدتي السهتانة الكحيانة وإمام خيال المآتة . وقالت أمي : إن التيس يفهم أكثر من عمي ، وحمدت الله أنه ليس لعمي قرون وإلا لنطحها بها لما كانت في البلد. وتعجبت من شرعنا الذي لايورثها أي شيء في تركة جدي ، وجدتي تقول لها بغيظ : ألم تكوني زوجة ابنه وأنجبتي منه.

- وحق جلال في ورث جده.

قالتها أمي بحسرة ، وأضافت جدتي بإصرار:

- أيوه حقه في كل حاجة . في الغيط والبيت والمواشي . حتي في البط والفراخ والوز كمان وكل قشاية عندهم.

- ومين يقدر يقول لهم كده .

- أنا عارفه إنهم ولاد قحبة . ومفيش حل إلا إن أبوكي يوكل محامي. بس الوقت . خايفة لا الوقت ميسعفناش .

أجابت أمي.

- عارفة . عارفة . أنا أيه اللي شبكني الشبكه السوده دي . كان زماني مسافرة معاكم .

بعد أن أتما حديثهما وقفت برهة ساهماً ثم استلقيت على السرير بملابس المدرسة . نادت عليّ أمي كي آتي للغداء. قلت لها : إني مريض ومكثت بقية اليوم في السرير متحججاً برأسي.

ومضت أيام وأيام بعدها وجدي يتراءي لي . ليس في المنام فقط . وإنما في اليقظة أيضاً . لايجيء على بالي عفواً وإنما أنا الذي أستحضره.. لما قابلنا أول مرة .. وهو يحملني عالياً وأنا أعبث بزر عمامته .. ولما كنت جالساً إلي جواره والهواء ينفخ جلبابه .. وجدتي .. وجهها الساكن ووجنتيها العاليتين . والحسنة الصغيرة التي علي مقربة

منْ فمها .. لم تكن سوداء . كان سمارها خفيفاً ولا تلحظها أبداً إلا إذا دققت النظر في وجهها ، ولم أكف بعدها عن الحديث عن جدي ، ليس مع أمي بالطبع أو حتى جدي زكى . مع الأولاد . أقول إنه كان العمدة . وعنده خفراء وسجن يحبسون فيه الناس وأرض لا أول لها ولا آخر . وأن عمي إبراهيم هو العمدة الآن وأهل البلد يعملون له ألف حساب . وأصف من خيالي بيته الكبير والدوار والشونة التي بها خمسون بهيمة أو يزيد . وأشجار الكافور العالية التي تمتد بحذاء الترعة ، والنسوة اللائي يتجهن صوبها حاملات الهدوم والمواعين لغسلها . والأولاد الذين يأتون إليها خلسة وينزلون عرايا في الماء.

وحسن ومحمود لا يملان من السماع عن دنيا الريف التي يجهلاها خاصة وأنا أضيف جديداً كل يوم ، وإذا رأيتهما مشدوهان بشيء مما أقوله أسهب في الكلام عنه ومخيلتي والحمد لله لاتكف عن العطاء . وبدون أن أشعر كان لهذا الزهو أثره فى أول مشاجرة نشبت بعد ذلك . شتمني ولد بأمي ، فرددت عليه الشتمة بأقذع منها وصياحي يتعالي بأني ابن العمدة . يزغدني أحد فأركله بقدمي ، ومن يتربص بي ألقاه غير هياب . وحسن ومحمود إلي جانبي . ينشران عني الأخبار ويقولان لعيال المدرسة إن أهلي في البلد عندهم نبابيت وعصي غليظة ولو جاءوا سوف يكسرون عظامهم بها ، حتي حضرة الناظر لن ينجو منهم . وانقلب الموقف لصالحي. لم أعد مستهدفاً من أحد . الشيء الوحيد الذي ظل يسبب لي كدراً هو النظرات التي تلاحق ملابسي الفضفاضة .

وجاءنا إمام .

أتي بعد نهاية العام الدراسي . صعدت من الشارع فوجدته جالساً مع أمي . بشاشته بلقائي لم تخف عني آثار الغضب البادية على

وجهها. قطعت عليهما الحديث وظللنا نحن الثلاثة صامتين برهة . أمي وجهها محتقن . وإمام يسوي قبة جلبابه البلدي المزمومة على رقبته ، وشعيرات بيضاء زحفت على مقدمة رأسه وفوديه . كان ينظر إلى أمي من تحت لتحت . لمحته فتشاغل بطاقيته . كبسها على رأسه ثم عاد وخلعها . أخذ يسوي أطرافها ببطء ووضعها على ركبته . تبسمت . تذكرت جدي عندما كان يخلع عمامته ، ويده وعينه عليها خوفاً من دلو الماء الذي كان يحمله . سعل إمام سعلتين قصيرتين ـ أظنهما كانتا مفتعلتين ـ ثم عرض على أمي أن يأخذني معه لزيارة عمي.

قال لها ونظرة ماكرة تبدو في عينيه :

ـ يوم ولا يومين يا أم جلال ، وهجيبه بنفسي.

قالت : لا . اللي عايز يشوفه ييجي هنا .

ولما هممت بالكلام أسكتتني بإشارة من يدها وقالت :

ـ لأه يعني لأه ..

وقبل أن يغادرنا إمام دفع لأمي الأشهر المتأخرة ، وظل عمي منتظماً في السداد بعدها لكنه لم يحضر ولا مرة لزيارتنا.

* * *

(١٨)

أظل ألعب في الشارع ليلة الجمعة من العصر حتي ما بعد أذان العشاء.

تنادي عليّ جدتي من الشرفة كي أصعد.

أرفع رأسي إليها متأففاً ولا أستجيب . تعاود النداء بغيظ . أدعي الطرش . تميل بجذعها فأعرف أنها تخلع الشبشب . كانت في الأول تكتفي بالتهديد به . تلوح به في وجهي وينتهي الأمر . تغير التكتيك الذي تتبعه في التعامل معي بدءاً من هذا الصيف. أصبحت تقذفني به بلا سابق إنذار . والغريب أن ضرباتها لا تخيب أبداً رغم أنها عمشاء . فلم أفلح ولا مرة في تفادي شبشبها البرتقالي المفلطح ذى الفيونكة الحمراء ، فإما أن يأتيني على رأسي أو في جنبي أو في أى مكان آخر موجع تصوب عليه . وإذا حالفني الحظ وراوغت بجسدي أتلقاه بين يدي كالكرة . أصعد وألقيه تحت أقدامها ويكون جهازي العصبي لحظتها في أقصي درجات الإنتباه فأصابعها وبحكم العادة تنقض على أذني. لكن على من ! أكون قد طرت من أمامها . أستحم وأتعشي وأتجهز لمشاهدة الفيلم العربي بالتليفزيون.

كانت تستهويني أفلام فيروز وأتخيل نفسي مكانها على الشاشة ، أغني وأرقص وأجعل أنور وجدي يشد شعره مني . ومع ذلك لم أر كلمة

النهاية أبداً ، أبدأ في النعاس في منتصف الفيلم تقريباً . هذا إذا لم أنم - نوم ثقيل وبشخير - وهم لايزالوا يكتبون أسماء الممثلين على الشاشة . إذا كان جدي أو أمي لا يزالا يقظان يحملني أحدهما ويضعني في السرير . لا تفعلها جدتي أبداً . تقول : إن عندها الغضروف وأنا بسم الله ما شاء الله مثل العجل ولو حملتني لخلصت عليها. إن تصادف وكان الفيلم من أفلام الرعب أو الأكشن يطير عقل جدتي. تترك ما في يدها وتتربع أمام الشاشة وحواسها كلها تنبض من الترقب والانفعال . أما جدي فيمط شفته ويتركنا لينام ووراثه بدقائق أمي. وفي آخر السهرة تنغزني في صدري وتصرخ في وجهي كي أصحو . أقوم مسروعاً بالطبع . تجرني من يدي كأني معزة هاربة من صاحبها وتدفعني نحو السرير إلى جوار أمي فأظل نائماً حتي أذان الجمعة .

إلا هذه الليلة ..

كنا في عز الليل وأيقظتني حبسة البول . تحسست موضع أمي فلم أجدها وكان نور الصالة مضاءً وأصوات تأتي منه .. وكأن حقائب تجر وخيالات تروح وتجيء مسرعة علي زجاج باب غرفتنا.

استطعت تمييز صوت راشيل ابنة خالتي . كانت تكلم جدتي ثم أسرعت نحو باب الشقة ، وخالتي بيلا تمضي في أثرها بكعب حذائها العالي وهي تقول لأمي إنه لا وقت لخلع البراويز من علي الحائط فلا مكان لها في الحقائب.

غادرت الفراش وأنا بين الدهشة والنوم . واربت الباب قليلاً ووقفت أنظر .

جدي يجلس ببدلته الكحلي والكرافتة الرمادي غير معقودة..

طرفاها يتدليان بغير تساوي ، والجزء الذي يستخدم لعقد ربطتهايبدو أغمق قليلاً من لون الكرافته .. والقميص متسخ وبنصف ياقة، النصف الآخر مدسوس تحت الجاكيت ولم ينتبه إليه جدي.. والطربوش جزء منه يستند إلي حافة الكنبة والباقي في الهواء ويهتز لأقل حركة.

وجدي نفسه وجهه معتم وكأنما شاخ في العمر عشر سنوات أخري . عيناه مزمومتان ورأسه مطأطأة إلى أسفل . نفس الهيئة التي أعرفه عليها عندما يكون مكروباً . أما جدتي فكما العصفور . من غرفة إلى غرفة . توصي أمي بقبض الجمعية في ميعادها من أم فؤاد (الداية) وإرسالها لها - فرنكات - مع قريبنا أرتين الذي سوف يلحق بهم قريباً . وتسرع إلى الشرفة ترد على زوج ابنتها بيلا الذي ينادي عليها من الشارع ، ثم تمسك بكتف أمي وتقول لها أن تحاول إنهاء ورق سفري من المزغود . لم أعرف وقتها أن هذا المزغود هو عمي إبراهيم.

صعد خالي شمعون وأخذ آخر حقيبة . قال لجدي وهو يلهث : إن هذا ليس وقت الجلوس على الكنبة وعليه أن يسرع فالطائرة لها مواعيد .

قام جدي على ثلاث دفعات ، وعندما انتصب أخذ يحدق في صورته المعلقة على الجدار . كانت مائلة إلى اليسار قليلاً .. عدل حافة البرواز فمالت منه الصورة نحو اليمين .. اقترب أكثر يعالج الحافة بحركات خفيفة من إصبعه .. شاطت النار في جدتي لما رأته .. شدته من كم البدلة وهي تصيح فيه بصوت عال .. لم يرد عليها .. أذعن وانحني ليأخذ الطربوش .. خطفته من يده وقالت بغضب : إنهما ذاهبان إلي باريس وليس إلى الفلاحين ، ولو رأوه على رأسه لكان مسخرة الخلق هناك ، وطلبت من أمي أن تشحته للبواب أو للسمكري الذي

يصلح (بوابير الجاز).

أمسك جدي بيد أمي وقال لها بصوت خفيض : لا داعي لذلك ، فالطربوش على رأسه من ثلاثين عاماً ولايصلح حتي لرأس كلب ، أجابته أمي بحنو : بأنهم حتي هنا لم يعودوا يلبسون الطرابيش ، وأنها سوف تحتفظ له به وتحضره معها هو وكل الصور التي على الحائط .

تبسم واحتضنها .. كان وجهه ناحية باب غرفتنا .. تلاقت نظراتنا فاندفعت إليه وبكاءً حاراً - وبصوت - ينطلق مني .. ارتميت عليه فحملني إلى صدره .. كانت المرة الأولي التي أراه فيها يبكي ويمسح دمعه بكفه مثلما أفعل ..

أخذتني أمي منه لما ازداد بوق السيارة التي في الأسفل ، ووقفت أتطلع حولي وأنا لا أصدق ما يجري .. وبدا هو كشخص آخر .. ليس جدي الذي أعرفه .. لا ينطق بكلمة .. عيناه شاردتان وكأنهما منتفختان .. وبلا حتي غطاء على الرأس أو أي قدر من الهندام .. حاله كله كان مزرياً.

أمسكت جدتي به واندفعت إلى الخارج .. وقبل أن أسمع صرير الباب وهو يغلق علينا إلتفت للحظة ، حاول أن يقول لنا شيء لكن حلقه معق منه الكلام !

* * *

(١٩)

بعد سفر جدي مات البيت وفقدت أمي نضارتها !

أذهب للمدرسة وهي نائمة وأعود وهي لا تزال في السرير . أشتري أي شئ من البقال نتقوت به ونقضي أغلب النهار - تقريباً - بلا كلام . هي في غرفتها لاتخرج منها إلا للأمر الضروري ،وأنا في الصالة إما ممدداً على الكنبة أو أحل واجبات المدرسة ، ولم يطاوعني قلبي ولا مرة على فتح التليفزيون .

ساعات كنت أسمع تكة أكرة باب غرفة جدي فأرفع رأسي من على الكراسة .. تكون أمي قد دخلت والباب موارباً .. بحركة لا واعية تتراجع أصابع يدي اليمني إلى الوراء وتستقر مؤخرة القلم الرصاص بين شفتيّ وأمتد برأسي قليلاً - وبحذر - متتبعاً مسارها .. تتجه مباشرة إلى سرير جدي .. تقف أمامه ساهمة . كان عالياً ويتدلي على جانبيه اللحاف الثقيل الذي طالما تغطي به جدي ، وأعمدته النحاسية الأربعة تقف في صمت .. والكرات النحاسية التي تعلوها والتي على شكل وجه إنسان عيونه جاحظة، ترمقها أينما اتجهت .. تشد أمي اللحاف بوصة من هنا وبوصتين من هناك وتعدل من وضع المخدة أو تقلبها على الوجه الآخر . وتستدير ناحية الدولاب ..في إلتفاتتها تلتقي نظراتنا فأخرج القلم من فمي وأعود للكراسة .. أسمع صرير ضلفة الدولاب

فأعود لها بعينيّ .. أراها وهي تخرج طربوش جدي . تتأمله ثم تضعه على رأسها .. أتبسم وأزداد تطلعاً لها .. تخلع الطربوش وتمسح جوانبه بباطن كفها ثم تعيده إلي مكانه . تلتفت نحوي .. أبدو منهمكاً في الكتابة ولا أشعرها بنظراتي . تنحني لتأتي بثوب قديم لجدتي من أسفل الدولاب .. تزيح بهزات سريعة من أصابعها الأشياء العالقة به ، ثم تمط شفتها السفلي وتخبط الثوب خبطات متتالية .. في السكون الذي نعيش فيه تبدو خبطاتها مدوية .. وإذا كان الوقت نهاراً والشمس لاتزال تنفذ من شيش الشباك ، كنت أري غباراً خفيفاً يتصاعد إلى أعلي ثم يعاود الهبوط سابحاً مع أشعة الشمس . وأحس بدفء الغرفة وهواؤها الثقيل يتهاديان إليّ وكأنما أتنسم أنفاس جدي وأسمع صوته .

تخرج أمي والوجد يتقطر من عينيها .

تسألني إن كنت مشتاقاً لجدي ، أومئ رأسي بالإيجاب .

وكنت في جلستي أسمع أصوات الأولاد وهم يلعبون ، فيهفو قلبي قليلاً إلى الشارع . أخرج إلى الشرفة لأتابعهم من أعلي . يلمحني واحدٌ منهم فيصيح بأعلي صوته:

- جلجل ، انزل يا جلجل .

ويوقفون اللعب .

ينادون كلهم عليّ مشيرين بأيديهم أن أنزل. أتحجج بأى شيء ولا أستجيب .كنت أظن أني بذلك أواسي أمي في وحدتها . ولما تكرر نداء الأولاد أرغمتني هي على اللعبَ معهم . عندما نزلت لم أشعر بأية فرحة وكأني مريض ولا أقوي على اللعب . فلم تكن أمي وحدها هي السبب ، أنا الآخر كنت مكتئباً لفراق جدي.

ولم يدق بابنا أحد طوال عشرة أيام .

كل الجارات كن عاتبات على أمي لأنها لم تبلغهن بميعاد السفر حتى يسلمن على جدتي وخالتي بيلا . ولم تجد اعتذارات أمي نفعاً . كن يمصمصن شفاههن أو يلوين وجوههن إذا رأينها على باب الشقة تنادي على البواب من بئر السلم ، أو تضع صندوق القمامة جانباً.

وبدأت عزلتنا لولا أم حسن رغم أنها كانت أول العاتبات . جاءت لزيارتنا فتلتها الباقيات.

قالت لأمي مرة :

ـ أنا خايفة يا كاميليا لا نصحي يوم لا نلاقيكي ولا نلاقي جلال.

لم ترد أمي . تشاغلت بفك عقدة الطرحة من على جبهتها ، والتفتت إليّ تطلب مني أن آتي لها بدبوسين من على التسريحة.

أردفت أم حسن:

ـ هو الأستاذ زكي والجماعة سافروا على فين.

ثم مالت تهرش جنبها ونظرة ماكرة تعلو وجهها.

ـ إوعى يا حبيبتى يكونوا سابونا وراحوا علي البلد المدعوقة دي اللي اسمها إسرائيل .

هبت أمي واقفة وهي تقول إنها تسمع خروشة في المطبخ .. هو الفأر الذي يأتينا كل يوم من الشباك الذي على المنور .. وأسرعت والشبشب في يدها . وانحنت أم حسن تخلع شبشبها . صدقت أمي أنا الآخر وطرت وراءهما وفي يدي شبشب جدتي الذي كانت مقدمته تطل من تحت الكنبة ، وأكتشف في هذه اللحظة فقط أنه لايزال موجوداً في البيت.

كان الشباك مغلقاً وقلبنا المطبخ رأساً على عقب . لا فأر ولا حتى

صرصار . والحلل فارغة ومقلوبة على فوهاتها فيما عدا واحدة مركونة على جنب وتنبعث منها رائحة شيء حامض.

هزت أمي رأسها متعجبة وهي تقول :

ـ أمال أيه الصوت ده !! يمكن الهوا هو اللي بيخبط في الحلل.

نظرت أم حسن إلى شباك المطبخ المغلق وقالت بنبرة لم تغب عن أمي:

ـ يجوز ! يجوز برضه !

ثم أردفت ضاحكة :

ـ والفار ييجي عندكم يعمل أيه . دا المطبخ أنضف من الصيني بعد غسيله . أيه ده يا أم جلال ولا حتى فتفوتة عيش فى البيت.

وعادت في المساء بوجبة ساخنة وبمثلها في اليوم التالي.

حمدت الله فمن شهر وأكثر وأنا وأمي لا نأكل إلا الفول والبيض وعلب السردين .

* * *

(٢٠)

لم آكل طعاماً مطبوخاً من يد أمي إلا بعد أن جاء أول خطاب من جدي . أول ما سأل ، سأل عني ثم عن أمي وأصحابه خاصة المعلم حبيب ، وقال : إنهم نزلوا ضيوفاً لمدة أسبوعين في شقة الأستاذ لبيب موصيري الذي يمت بصلة قرابة لواحدة من خالاته . وأنه أول واحد في الأسرة يحصل على وظيفة بمساعدة هذا الرجل الشهم . عامل نظافة في محل كبير للأقمشة صاحبه رجل يهودي بحي اسمه (بارباس) ، ويسكن هو وجدتي الآن في شقة صغيرة استأجراها بالقرب من المحل . وبالشارع الذي يسكنونه عرب كثيرين من الجزائر والمغرب وتوانسه لكن جدتي لا ترتاح إلى التعامل معهم ، خاصة الرجل التونسي الذي يسكن في الدور الأرضي .

أما خالي شمعون ففشل في الحصول علي عمل حتى كادت نقوده تنفذ وأكرمه الله من يومين واشتغل شيالاً بفندق (دي لاركاد) بشارع (أوسمان) القريب من الأوبرا .وقال إنه رآها مرتين وهي دار فخمة ولا مثيل لها في مصر . لكن أين هي في قلبه من الأوبرا التي عندنا ، أربعون عاماً وهو يمر أمامها كلما ذهب أو جاء من ميدان العتبة . وسأل أمي عن العشرة جنيهات المتبقية لدى صبيه السابق الذي اشترى منه الفاترينة .

وبعدها بشهر جاءنا منه خطاب آخر . كلامه فيه كان مؤثراً . واستحلف أمي أن تتقصي عن صحة الخبر الذي يتناقله اليهود المصريين عنده في باريس ، بأن وزارة الداخلية في مصر أسقطت جنسية اليهود الذين غادروا البلاد بمحض إرادتهم وأنذرتهم أن يعودوا إلا أنهم لم يأبهوا بهذا الإنذار.

قابلت أمي صديقة يهودية لها تعمل في منزل سلفاتور ثيكوريل صاحب محل شيكوريل عسى أن تفيدها بشيء ولا حس ولا خبر ، وذهبت إلى جارنا الأستاذ حسني الباشكاتب فأخذ أسماء وبيانات جدي وجدتي وكل الذين سافروا معهما ووعدها بالسؤال . ومر وقت طويل والرجل كلما قابلها صدفة في الشارع يقول لها :الأوضاع غير مستقرة يا أم جلال ، اصبرى اصبرى ما صبرك إلا بالله ، ويتنحنح ويتركها معتذراً بأنه تأخر عن أم العيال.

وأخيراً جاءت رسالة من جدتي .

لم تسأل عنيّ بالطبع أو عن أي واحدة من جاراتها القدامى . الأسطر الأولي كلها عن مبلغ الجمعية الذي لم يصل حتي الآن ، وتشككت فى ذمة قريبنا أرتين . قالت :إن ذمته (أستك) مثل أبيه ، وأنه لن يفلت من يدها ويوم أن تلقاه سوف تبصق في وجهه وتأخذ منه المبلغ وفوائد التأخير . ثم قالت لأمي : إن جدي أرسل خطابه الثاني من ورائها ولما عرفت بما فيه تشاجرت معه ليلة بأكملها ،فقد أصابه الخرف ولايجب أن تسمع كلامه . وأن خالي إيزاك جاء أخيراً من إسرائيل لزيارتهما ، وقد تزوج من يهودية مغربية هاجرت معه هى وأهلها على نفس المركب التي أقلته من (مارسيليا) . وهو ما شاء الله صحة وعز ويعمل في وظيفة

محترمة هناك وأن خالتي بيلا تفكر في اللحاق به . أحوال خالي شمعون هي التي تقلقها فقد طردوه من وظيفته . قالوا إنه مهمل في عمله ، واتهموه بسرقة بشكير من إحدي الغرف ، إلا أن قريبنا موصيري - أكرمه الله - ألحقه بعمل آخر بمحل ملابس شهير بشارع (ريفولي) . حمالاً أيضاً وإن كان بأجر أقل من الأول . وتتعجب جدتي من أنه لا يزال متردداً فى مسألة السفر إلى إسرائيل رغم إلحاح أخوه عليه . وإن كانت هي وجدي لا يفكران في السفر إلي هناك وينويان البقاء إلى أن تلحق بهما أمي على الأقل . وسألت عما فعلته أمي بشأن إنهاء أوراق سفري من عمي إبراهيم . ولم تنس وصفه بالوسخ ابن الوسخ مضيفة إلى ذلك شتمتين أخريين.

تحسن حال أمي بالخطابات التي ترد إليها ، وبدأت الحياة تعود شيئاً فشيئاً إلى شقتنا وتكثر زيارات الجارات.

يبدأن الحديث دائماً بالسؤال عن أحوالها المالية وإن كانت في حاجة لشيء أو فلوس سلف ، وتدس واحدة أو اثنتان منهن أصابعها في صدرها كأنما تخرج كيس نقودها . تشيح أمي بيدها شاكرة ، وظنها يقول لها إن كل هذا كلام في الهواء.

بعد أن تقدم لهن التحية . غالباً ما تكون شاي أخضر . تعتدل في جلستها ليراها الجميع وتقول بصوت خفيض : الحمد لله ترك لي أبي مبلغاً محترماً في صندوق التوفير يكفينا أنا وجلال ، ولا تتطرق أبداً للنقود التي يأتي بها إمام من عمي إبراهيم.

وإذا ثرثرن ودخلن معها في الصميم بسؤالها عن أهلنا الغائبين لم يكن يصيبها أي ارتباك ، وكأنما استعدت لهذه الإجابات وتدربت عليها

سراً . يعلو صوتها قليلاً وهي تقول : إن جدتي تشكو من الغربة وقسوتها ، والدنيا عندها لا تساوي يوماً من أيام مصر . المشكلة في جدي . زلت قدمه وتدحرج على سلم العمارة التي يسكنون بها.

تشرأب الأعناق نحو أمي ، فتتنهد وتكمل بنبرة أخفض وأكثر حزناً:

ـ آهو جاله كسر في الحوض وركبوا له صامولة في ركبته . آدي اللي نابه من السفر وتغيير الجو .

يعم الصمت ثوان تتلقى أمي المواساة بعدها . يقلن:

ـ سلامته عم زكى. عضمة كبيرة ومش وش بهدله . راجل في حاله ولسانه حلو .

حديثهن يكون صادقاً ومن القلب فجدي سيرته عطرة في الشارع ، التحفظات على جدتي فقط .

يأتيها أحياناً سؤالاً مفاجئاً عن خالي إيزاك الذي يتشككن كلهن في أمره.

تنكمش على نفسها لحظة واحدة ، ثم تقول وهي متبسمة :

ـ ومين زيه دلوقت . آهو في تونس وفاتح ورشة نجارة هناك وحاله عال . دا هوه اللي بيصرف علي علاج بابا ومتولي أموره . ربنا يسعده.

ترفع امرأة رأسها بدهشة :

ـ بيصرف على عم زكي ! وهو عم زكي فين بالظبط . في تونس !؟

تومئ أمي برأسها مجيبة من وحي الخاطر.

ـ آه في تونس .

وتسألها أخرى متعجبة :

ـ أمال جماعة الأستاذ حسني بتقول إن عم زكي مسافر بلاد الخواجات مش تونس !

تتلفت المرأة حولها متوقعة المساعدة ، فتقول أخري:

ـ آه سمعنا إنه مش عارفه مسافر فرنسا ولا اسمها أيه دي .

وتنغز الجالسة إلى جوارها قائلة :

ـ هيه اسمها ايه يا أم عباس . آه . آه. بلاد الإنجليز.

عندما كانت أمي تجيب كنت ألمح بحكم عشرتي لها كف يدها وهو يحيط بمعصمها الأيسر ويبدأ إصبع السبابة بالهرش فيه بلا توقف ، وجفنيها يختلجان على نحو أسرع من المعتاد فأعرف أنها لا تقول الحق . وكانت النسوة يصمتن تماماً ويختلسن النظر إلى بعضهن ، وكل نظرة تحمل رسالة مشفرة.

وانعكس ذلك على أمي ، أصابها الضجر من لعبة القط والفأر التي تلعبها مع الجارات ، فبدأت في التهرب منهن ولم تعد تفتح الباب إلا لأم حسن ، فالمرأة لم تثقل عليها أبداً وكانت أمي لا تزال تشعر بالحب تجاهها ، أما أنا فكنت عندها بغلاوة ابنها حسن .

وفي ليلة وأنا وأمي نتكلم عن جدي عرفت أنه لولا عمي إبراهيم لكنا سافرنا معه .قالوا لها في الجوازات لا سفر ولا حتى جواز سفر إلا بموافقة عمي ، ولما أرسلت له بذلك مع إمام قال : لا ، وألف لا.

* * *

(٢١)

كنت قد كبرت ودخلت المدرسة الإعدادي ، وأنا لا أعرف شيئاً عن الصلاة إلا من حصص الدين . أنظر إلي الشيخ زكي بإنتباه وهو يقول لنا إنها عامود الدين ، ومن أصبح مكلفاً بها ولم يؤدها فهو كافر ومنكر للدين . وأتابعه بشغف وهو يشمر كم الجبة والقفطان ويعلمنا كيف نغسل أيادينا حتى المرفقين . أو عندما يخلع عمامته ويرينا كيف نمسح على رؤوسنا ،أو يعرفنا بأوقات كل صلاة وعدد ركعاتها ، والأدعية الواجب علينا الدعاء بها في وقت الشدة وعند السفر وقبل أن ننام ، لكن ما أن تأتي الأجازة حتى أنسي كل الذي تعلمته ، كما ينسي الأولاد دروس الحساب.

نكون قد أوغلنا في الإجازة وأصبح كل شيء منسياً ، فيسألني أحد الأولاد مازحا عن عدد ركعات صلاة المغرب ، غالباً مايكون السؤال أمام أحد الأغراب أو في جلسة جادة ويود السائل قلبها إلى مزاح.

أقول : ثلاثة .

ترتسم الابتسامة على شفتيه ، غير أني في الوقت ذاته ألمح نظرة ماكرة في عينيه . ينتابني الارتباك ولا أعرف إن كان يشجعني أو يريد الإيقاع بي ، فأسرع بالقول إنها اثنين فقط وأتلفت حولي. يعاود السؤال مرة ثانية هو وغيره من الجالسين وأنا متشبث بالإجابة وأحلف

على ذلك بالله ، ويكون السؤال التالى عن صلاتي الشفع والوتر هل هما فريضة أم سنة مؤكدة ، أو يكون في جزء(عمّ) فأتلعثم ولا أجيب. ولم يفتح الله عليّ سوى بثلاث سور قصار هي الضحي والليل والطارق ، وبعض آيات متفرقة من سورتي البقرة والرحمن ، أحفظها وأتلوها كالماء . والغريب أنني ومن دون باقي التلاميذ إذا ما قرأت هذه السور بصوت عال في حصة الدين ، كان السكون يعم الفصل ويتابعوني كلهم مشدوهين.

يرمقني الشيخ زكي بإعجاب ويسألني إن كنت أستطيع تجويد ما قلت . أومئ برأسي وأبدأ في التلاوة وكأنني الشيخ عبد الباسط الصغير . تنقلب الدهشة إلى انبهار بحلاوة الإيقاع الذي أتلو به ، ويهز الشيخ زكي رأسه ويقول :

ـ الله .. الله .. فتح الله عليك من أوسع أبوابه.

وفي مرة إزداد افتتانه بي ، فربت على ظهري قائلاً بصوت حنون :

ـ بورك فيك يا جلال وجعلك الله ذخراً للإسلام يا ابن الأكرمين.

سمعت لحظتها ضحكات مكتومة ، وكان أحد الأولاد من جيراننا في الشارع في مرمي بصري. رأيته وهو يخفي فمه بيده وأكتافه تهتز من الضحك . فهمت . أتت في بالي على الفور ذكريات المدرسة الابتدائي . والذي أزاد الطين بلة ضحكة عالية أتت من الصف الخلفي ، تلتها ضحكات أخري وهمهمات وانقلب الفصل إلى لغط وفوضي .

هب الشيخ زكي واقفاً وأمسك بعصاه يمر بها بين الصفوف فعم السكوت ، وانشغلت عيون الأولاد بمتابعة مسار العصا في يده . فقد كان معروفاً عن الشيخ أنه إذا نزل بعصاه على ولد ، لا يتركه أبداً إلا

بعد أن تنكسر في يده.

انتهت الحصة وذهب كل إلي حاله إلا أن ما حدث لم يمر مرور الكرام. ثار فضول الشيخ وأخذ لعدة أيام يتحري عني وجاءت النتيجة لغير صالحي . أوقع الأبالسة بينى وبينه وفهم حكايتي بشكل مشوش بعد أن أدخل الأولاد عليها كثيراً من الرتوش . اعتقد الرجل أنني لست مسلماً وإنما يهودي حتي النخاع وأن أمي تأخذني كل يوم سبت إلى المعبد لأتدرب على تلاوة مزامير داوود ، فأنا عضو عامل بجوقة المنشدين الصغار كما أفهموه .

صدقهم الرجل الطيب ، وأخذ يتحرش بي منتهزاً أيه فرصة لتكسير العصا على رأسي ، ظنا منه بأنني كنت أخدعه طول الوقت.

كنت قليل الحيلة وغير قادر على مجابهته ، لكن بمرور الوقت غلبت طيبة الرجل عليه ويبدو أن ضميره أنبه فابتعد عني . غير أن حاجزاً نفسياً ظل بيننا ، ولم يكف هو أبداً عن ملاحقتي بنظرات الاتهام . وانقضت أيام المدرسة الإبتدائية ، وأنا لامصحف ولاجامع أو صيام .

وفى البيت أغلقت أمي الكتاب المقدس ، لفته في قماش حرير واحتفظت به في الدولاب مع ما تبقيّ من آثار جدي ، ولم تذهب ولا مرة إلي المعبد بعد سفره .

تقول : إنها لما كانت صغيرة كانت تذهب هي وجدتي على أقدامهما كل سبت إلي معبد(نسيم إشكنازي) الذي كان في شارع (الكوة) ، وبعد أن أغلقوه استثقلتا المشوار إلى العباسية حيث معبد (القرائين) ، تركوا هذه المهمة لجدي . وهكذا بقينا أنا وأمي في الشقة ، وكأن كل واحد منا بلا دين .

وفي كل يوم جمعة كنت أتطلع من الشرفة إلى الأولاد ، وهم يسيرون بحذاء آبائهم قاصدين الصلاة ، تحوم في سمعي ساعتها نبرات الشيخ الدمنهوري التي طالما سحرتني وأنا صغير . وأتذكر يوم أن بكيت على كتف جدي وهو يحملني ويخرج مسرعاً من السرادق الذي كنا نعزي فيه بالقرب من ميدان الجيش ، وتلفني غلالة صمت وكأني وقعت في أسر شيء لا أدريه . ويعلو صوت المؤذن بالجامع فأجد قلبي مسحوباً مني ومع ذلك لا أحرك قدمي وألحق بالصلاة ، اقترب بمقعدي قليلاً وأضع كفي على سور الشرفة وأرخي رأسي عليه حتي يعود الأولاد.

أقوم بعدها وأدور فى الشقة بلا هدف ، أحدق بوحشة في صورة جدي الغائب .. أفتح دولابه .. أتأمل ما تبقي منه ، الطربوش وحذاء قديم وفردتي شراب مستهلكتين وجراب النظارة الخاوي .. وعند رجوعي إلي الصالة يحوم في بالي وهو يغلق الكتاب المقدس ، ويلف يده علي يدي ضاغطاً عليها بحنان ويأخذني ويخرج .. وجدتي وهي جالسة في موقعها المعتاد على الكنبة تأكل من طبق الترمس والقشر يسقط منها في حجر الجلباب .. وانقضاضها عليّ يوم أن قلت لها إنها من أهل النار .. وفردة شبشبها التي أصبحت وبفضل الله قادراً على الإفلات منها . يمر كل هذا في بالي قبل أن أركن بيدي على باب المطبخ.

أري أمي ، ظهرها تجاهي وكوعيها منثنيان وذراعاها الخارجان من الجلباب البيتي أبو حمالات أبيضان وبضان ، وفي الأعلي من عند الكتف حبات عرق آخذه في التكاثر من صهد المطبخ ولفحة البخار المتصاعد من القدر الذي أمامها . تكون في قمة انشغالها ومع ذلك

تشعر بوجودي .. تلتفت إليّ .. تومئ لي برأسها أن أدخَل ... أن آتي بمقعد وأجلس بالقرب منها .. أن أتحدث معها .. لا أفعل .. وعندما أتركها يأتيني نداؤها ممزوجاً بالدهشة .. لا أجيب.. أتجه إلي الغرفة وأتمدد على السرير وعيناي على السقف..

ويأتيني جدي لأبي .

هذا هو ميعاد قدومه .. عندما أسمع أذان الجمعة ولا أذهب للصلاة.. ينتصب أمامي بهيكله الأخاذ.

عيناه نفاذتان .. أخشاهما . وساعات كان يلوح في وجهي بالعصا التي في يده .. أدفعه بعيداً فلا يستجيب .. أغدو فارغاً أمامه .. بلا حراك .. أعرف ما الذي يشغله .. لا أصلي ولا أصوم .. ويطفو خيال جدتي فيتسع صدري .. تطلب لي الهداية وتأخذ جدي في يدها وترحل ..

* * *

(٢٢)

كنا نفطر أول يوم من أيام رمضان عند أم حسن.

تعرف أمي نقرة يدها على شراعة الباب الخارجي ، ونري خيالها وهو يتململ على زجاج الشراعة . تنحني أمي بحثاً عن شيء تضعه في قدمها . أنا الأسرع أكون قد فتحت لها . وفي ثانية تجلس أم حسن إلى جوارنا وبالهيئة التي كانت عليها في المطبخ . جلباب بنص كم والشبشب (البلاستيك) ويبدو أنها رمت الطرحة على رأسها على عجل ، فلم تستر ذراعيها العاريين وشعرها أغلبه نافر ومنكوش.

تفوح رائحة اللحم المسلوق منها وهي تقول لأمي:

ـ الفطار عندنا النهارده يا أم جلال .

تعرف أمي أنها لا محالة ذاهبةً ذاهبه ، إلا أنها ومثل كل مرة تحاول الاعتذار ، تقول والحياء يملأ وجهها :

ـ ملوش لزوم ..كفايه جلال .

تعلو ضحكة أم حسن :

ـ جلال ؛ جلال مين ده ؛ وهو يسوي أيه من غير أم جلال . إنتى عايزه الحاج محمود يزعل .

ثم تربت على أمي بحنو وتقول :

ـ ربنا ما يقطعها عاده.

وتطير خارجة . تنادي عليها أمي كي تبقي ، فتصيح من علي بسطة السلم.

ـ الأكل على النار وإنتي عارفة بناتي خيبتهم موردتش على حد .

أنهي واجبات المدرسة سريعاً في هذا اليوم وأقفز أمام التليفزيون متلهفاً على المسلسل العربي ، غالباً ما يكون عن اضطهاد اليهود لسيدنا محمد في أول هجرته إلى المدينة . تكون أمي جالسة من قبلي وفي حجرها إبرتي تريكو وشلة خيط ، ومشروع بلوفر لي لا يزال فى حجم الكف . يبدأ المسلسل فتنظر أمي إليّ خطفاً وبربع عين ثم تعود إلي الشاشة . وجهها مشدود وعيناها لا ترمشان . لا تغير القناة مراعاة لي . لكن أحداث المسلسل تجري على نحو أقوي من تحملها . تعلو حمرة خفيفة على وجنتيها وتجري أصابعها على الإبرة بسرعة ملفتة فتهتز شلة الخيط وتسقط أحياناً من حجرها متدحرجة أمامنا ، وتخطيء أمي بالطبع مرة واثنتين في مسافات الغرز فتنفخ متأففة.

يوقع المسلسل بنا في مأزق فيتحاشي كلانا النظر للآخر أو التفوه بكلمة ، وأشعر بها بعد قليل وهي تتسحب من جانبي . تغلق على نفسها باب الغرفة ولاتخرج إلا بعد أذان العصر مرتدية ملابس الخروج . لم تكن مثل أم حسن التي كانت تأتي لنا بأي ثوب ، وإنما هي شيئاً آخر. لا تخرج من عتبة الباب إلا في أجمل هيئة سواءً أكانت ذاهبة إلى حفلة من حفلات (المكابى)[1] ، أو لشراء جبن وزيتون من عند البقال .

تطلب مني ارتداء ملابسي أنا الآخر .أشير لها بأصابعي أن تنتظر فلم يعد باقياً على انتهاء المسلسل سوى دقيقة واحدة . ترمقني بغيظ

---

(١) سلسلة نوادى كانت تخص اليهود المقيمين فى مصر.

وتسرع إلى التليفزيون وتغلقه . أهم بالخروج معها بالبيجامة فتدفعني بيدها نحو الدولاب لأغير ملابسي وأنا أتلكأ وأجادل ، وفي النهاية أمتثل ونهبط معاً إلى شقة أم حسن.

تلقانا المرأة على الباب مهللة ويكون الحاج محمود جالساً بالجلباب البلدي على أريكة في الصالة . يومئ برأسه لأمي محيياً وتأخذها أم حسن وتدخلان . يدعوني للجلوس إلى جواره ويسألني عن المدرسة وما إذا كنت صائما مثل حسن ، ثم يعود إلى المسبحة التي في حجره . ويكون البيت مليئاً برائحة البخور وقرآن المغرب ما زال في أوله . ورغم أن التليفزيون الذي عند الحاج محمود ماركة (جروندنج) والشاشة عريضة وأفضل بكثير من التليفزيون الذي عندنا ، إلا أنه يستمع إلي القرآن من راديو عتيق وغريب الهيئة موضوع على رف بالحائط وبجواره بطاريتان من الحجم الكبير . تبدو الدهشة على وجهي فيشير إليه ويقول لي أنا وحسن : إنه بركة . اشتراه والده بعد افتتاح الإذاعة المصرية بشهر واحد ، ويوم أن أذيع منه أول تسجيل للشيخ محمد رفعت كان هو في مطلع الشباب وأهل الحارة معزومين عندهم في البيت.

أقول له :

ـ هنا في الشقة !

يتنهد :

ـ لأه يا ابني كنا أيامها ساكنين في العباسية . وأول ما تجوزت جيت سكنت في العمارة دي أنا وجدك في شهر واحد. وكانت أمك دي لسه عيّلة صغيرة.

ويعود للحديث مرة ثانية عن الراديو وأنه ليس له أخ في بر مصر

كله ، فتطل أم حسن برأسها من باب المطبخ وعنقها يتقطر عرقاً من الحر والصهد. تضحك وتصيح بصوت عال ظناً منها ، أننا لانسمع مثلها من وش الوابورين اللذين أمامها.

ـ ومقلتش لهم إن المحروس بيكمل شهر رمضان بطلوع الروح. وبتاخده بعدها لعم علي أبو شفة الكهربائي علشان يصلحه . ومقلتش لهم كمان إنه آخر مرة قال لك إنه مش هيصلحه تاني دا راديو عكر وبيجيب النحس للمحل . ولولا إنك بوست راسه مكنش عمره هيصلحه.

تبدو ابتسامة على وجه الحاج محمود ويقول :

ـ يا شيخه حرام عليكي . أحسن العيال تصدق.

يقترب المغرب .

نلحظ ذلك أنا وحسن من نبرة المقرئ ، وبوادر العتمة التي تلوح من زجاج الشرفة المغلق .

ينظر إلينا الحاج محمود ويقول : إلا أذان أول يوم . لا أنا ولا أي أحد من أهل الشارع القدامي يفطر دون أن تأتيه البشارة من الشيخ خلف .

تكون هذه الكلمات أمراً بالانطلاق ، فنتأهب ونمد أيادينا إلى صنادلنا المخلوعة بجوار المقاعد . تستوقفنا أم حسن بإشارة من يدها . تكون قد غسلت وجهها وغيرت ثيابها وبدت في هيئة غير التي رأيناها عليها من نصف ساعة . والطبلية تتدحرج على حافتها في يد ابنتها الصغري ، والكبري قادمة وراءها وعلى رأسها صينية الطعام تتصاعد منها الأبخرة والروائح الطيبة . وطبلية ثانية تدحرجها يداً أخري صوب الغرفة الداخلية التي تجلس بها أمي . نشب أنا وحسن على أطراف أصابعَ أقدامنا لنري ما على الصينية . تلحظ الأخت الكبري ذلك .

كانت قامتها مثل قامتينا تقريباً . تتبسم وتشب على أصابع قدميها بأقصي ما تستطيع حتى لا نري .

تقول أم حسن :

ـ ملوش لزمه يا خويا مشورة العيال . دول صايمين . ودلوقت نسمع الأدان من ميكروفون الجامع اللي جنبنا .

فيشيح بيده :

ـ إلا كده . دي عادة يا حاجة .

لا نستمع إلي بقية الحوار . نخطف السلالم فى أربع قفزات . نري سعيد الأخ الأكبر لحسن قادماً من الخارج . كان شاباً ويعمل فى ورشة بشارع أحمد سعيد ، ورغم أنه الابن البكري للحاج محمود إلا أن حسن هو الذي فاز وكنيت أمه باسمه هو.

لا نشير إلى سعيد أو نكترث به ونهرول مسرعين من شارع إلى آخر . ونجد بإزائنا وأمامنا صبيان فى مثل أعمارنا وأولاد وبنات أصغر يجرون كلهم لنفس الغرض. تباغتنا تكبيرة الأذان آتية من ميكروفون الجامع ، فنهدئ من خطواتنا قليلاً ونحن نتبادل النظر ثم ننطلق بأقصي سرعة نقدر عليها صوب زاوية الشيخ خلف غير آبهين بالأذان الذي نسمعه من جامع الحكومة .

وعندما نصل نجد حشداً من الصغار قد سبقونا وتحلقوا بالزاوية .

الشيخ خلف رجل عجوز تخطي السبعين بعدة سنوات . بني الزاوية من حر ماله منذ أكثر من ثلاثين عاماً ويقضي أغلب وقته فيها إما نائماً أو ينظفها ويؤم الصلاة ، ويرفض استخدام الميكروفون لا في الأذان أو خطبة الجمعة.

يصعد من سلم داخلي يوصل إلى سقف الزاوية . تبدو رأسه أولاً وعليها عمامة بيضاء تتدلى منها شراشيب رفيعة ، ثم باقي جسده. وأول ما يستوي نتأمل برهبة وجهه المستدير ولحيته البيضاء الكثة وتصدر عنا في الوقت ذاته آهة ارتياح . وعادة ما يكون بجوارنا رجلين أو ثلاثة طاعنين في السن من هلافيت الشارع .

يقول أحدهم : طول عمري وأنا أراه بهذه العمامة الثقيلة ، أما كان أولى أن يستبدلها بطاقية بيضاء في هذا الجو الحار ، فيلكزه آخر بكوعه كي يسكت.

يتوقع الشيخ خلف وجودنا.

يرمقنا من أعلى ونشعر بأن سقف الزاوية يرتج تحت ثقل خطواته وهو يتقدم صوب الناحية التي نتجمع فيها . يكون أذان جامع الحكومه قد انتهي فنقول لأنفسنا : سيبدأ الآن . لكننا نفاجأ بأن الأمر ليس كما نقدر . ينحني على قدمه العارية ويهرشها بغيظ، ونلحظ تأففاً على وجهه . أكيد لدغته حشرة وولت هاربة. يعتدل بعدها ويحملق بإمعان ناحية قرص الشمس الآفل ، فيتبادل الرجال الذين بجانبنا نظرات تدل على رضائهم بما يفعل ويقول نفس الرجل الذي تكلم منذ لحظة : أذانه وحق الله أذان شرعي ، فكل شيء يخطئ إلا الشمس.

يتنحنح الشيخ خلف مرتين وأول ما يقول : الله أكبر ، كان الزمام يفلت منا وخاصة الصغار . كانوا يصيحون بأصواتهم العالية .

- هيه .. هيه .. هيه ..

ويولون الأدبار.

كنت أنا وحسن وبعض الصبية الآخرين كباراً عنهم . لذا لم نكن

نحذو حذوهم ونفضل السير متمهلين بعض الشيء حتي لايبدو علينا أننا متلهفين على الأكل . لكن ما أن كنا نبعد عن الشارع وندخل العمارة كانت الشياطين تركب أقدامنا ، ونقفز على السلالم قفزات جنونية وكأنما هو آخر زاد لنا .

نجد الحاج محمود وولده سعيد على الطبلية وقد التهما أطايب الطعام تقريباً ، ولم يبق إلا الدهن والشغت وقطعتي لحم من الحجم الصغير . أما الباذنجان المحشو فقد أتوا على أغلبه هو والملوخية والبازلاء والمخللات ، لكن لا تزال توجد كميات من الأرز والخبز تكفينا نحن والجيران . نندهش ونشعر بأن فى الأمر خدعة ، وقلوبنا تقول لنا إنهما وبالقطع أكلا مع أذان الحكومة ومسألة الشيخ خلف هذه كانت وبالاً علينا .

لا نقول لهما : السلام عليكم ..

نجلس إلى جوارهما ووجهينا متجهمان ، حتى يدركا الجرم الذي اقترفاه في حقنا ! الغريب أنهما لايشعران بنا ولا يحسان حتى بجلوسنا على الطبلية معهما ، وبلا وعي منا أو اتفاق نبدأ أنا وحسن في الأكل بطريقة تجافي أى ذوق أو لياقة .

كنا نريد الانتقام لهذا المقلب الذي شربناه ، ولو سنحت لواحد منا الفرصة لفعل مثلما تفعل القطط وخطف قطعة لحم من يد الحاج محمود أو ولده دون تردد .. الحمد لله أن الحاج محمود كان فى واد آخر وملهياً عنا بما في يده ،أما سعيد فبعد أن امتلأت بطنه نظر باستغراب إلى ما نفعل . زغد أخيه بكوعه في جنبه كي يحترم نفسه على الأكل ، ورمقني بنظرة تحمل نفس المعني . لم نكترث به واستمرينا

في نشاطنا العدواني غير آبهين به .

لكن من سبق غلب . إذ بعد أن انتهى الحاج محمود وولده من أكل الدسم والحادق استداراً الى صينية الحلوى التي بجوارنا ونحن في حيرة من أمرنا ، ولانعرف أيهما أجدي لنا أن نظل نأكل بقية الطعام الذي تركاه لنا ، أم نتركه وندخل في معركة معهما على صينية الحلوى خاصة وأن سعيد كان مصمماً على الإتيان عليها وطاقته توازي طاقة فحل جاموس يافع.

جاءتني عزومتين بعدها من صاحبين لي بالشارع . لبيتهما بالطبع. سألت أمي إن كنت أستطيع دعوتهما على الإفطار أنا الآخر. تنشغل بأي شيء في يدها وتبدو وكأنها لم تسمعني . يزداد إلحاحي فتوافق متبرمة . ألقاهما في الشارع وأؤكد عليهما .. يصمتان وينظران إليّ . وعندما ألح عليهما يقولان إنهما سيسألان أمهاتهما . وتمر الأيام دون أن يأتيني رد ، فأعرف أنهما لايريدان الأكل من يد أمي .

* * *

(٢٣)

لم يصل أحد من أفراد شلتنا إلى المدرسة الثانوية إلا أنا.

حسن رسب مرتين فى الشهادة الإعدادية ووقف مع أبيه فى محل العطارة ، وفهمي ابن عم حسني الباشكاتب عزل مع أسرته إلى مدينة نصر. وولدان من العمارة المجاورة دخلا مدرسة الصنايع، أما نادية بنت مدام السبكي التي تسكن في الشقة التي تعلونا فلم أنتبه إليها إلا عندما تصادمنا فجأة على باب العمارة.

كانت إحدي ضلفتي الباب الحديدي للعمارة مغلقة على غير العادة وأنا أنزل السلم قفزاً مثل كل يوم ، وبقوة الاندفاع وجدت نفسي منطلقاً نحو الضلفة المفتوحة فإذا هى داخلة . سقطت منها حقيبة المدرسة وكيس نقود صغير ومسطرة وأشياء رفيعة كانت بيدها . هبطنا على الأرض معا نلملم أشياؤها والحرج والارتباك يملآنا . يبدو أن زرار البلوزة العلوى كان معلقاً علي شعرة ، فوقع منها هو الآخر على الأرض وانفرجت فتحة البلوزة قليلا عن شريط أسود رفيع وبوادر صدر نافر ويقظ . صدرت عنها آهة خافتة ، ومالت برأسها تضم فتحة الصدر ووجنتاها تتضرجان بحمرة خفيفة . كانت مثنية على ركبتها مثلي ومن الخجل كانت تواري عينيها ، وكأن خدراً خفيفا يكتسينا معاً . وعندما مدت يدها لتلتقط مشطها الصغير الذي سقط بجوار قدمي ، غمرتني رائحة أنثوية تفوح

من كل جسدها . رائحة تبدو بريئة وعذرية ، لكنها في الحقيقة فتاكة وقاتلة.

غضضت بصري وأنا أقول :

ـ الزرار . آه . ثانية واحدة وأنا أدور عليه .

ـ الزرار . آه . آه صحيح راح فين .

ولما وقفنا قالت وهى تنهج ونداوة خفيفة تتلألأ عند مفرق شعرها :

ـ إزيك يا جلال .

ـ أنا آسف . مقصدش . أصلي كنت مستعجل .

ـ أبداً أبداً . دي مفاجأة مكنتش علي البال .

ـ إنتي في سنه أيه دلوقتي .

ـ تانيه أدبي .

ـ أنا في تالته علمي.

ومدت يدها مسلمة فأحسست بكفها الصغير اللدن طيعاً في يدي ، وتركتني وصعدت على السلم بخطوات متعجلة وأنا أتابعها متأملاً . وقلبي يذكرني بها لما كانت تأتي عندنا وهى صغيرة في يد أمها . كنا نلعب الاستغماية ونجري وراء بعضنا طول الوقت ولا نكف عن الصياح ، أو نجلس صامتين في الشرفة ونصنع بيوتاً من علب السجائر الفارغة التي كان يحتفظ بها جدي لسبب لا أعلمه . وفي مرة هدت بضربة من يدها البيت الذي مكثت أشيده ساعة كاملة ، وطفقت تجري في الشرفة وأنا وراءها . وعندما أمسكتها وبلا تدبير مسبق ملت عليها وقبلتها في وجنتها . حدقت فيّ بعينيها السوداوين والدهشة تملأ وجهها ، وقالت بصوتها الرفيع الغاضب : إنها سوف تقول لأمها. أمسكت يدها

بخوف ورجوتها متلعثماً ألا تفعل ، وهي تأبي وتتوعدني بعلقة سوف آخذها ولا محالة من جدتي عندما تعلم بالأمر.

لا أظنها قالت ، أو نست هذا الذي حدث.

ولعلها كانت تشعر بنظراتي التي تحتويها من الخلف وهي صاعدة أو يحوم في بالها ذلك الذي يجوس في خاطري ، ففي انحنائة الدرابزين إلتفتت نحوي وأومأت برأسها متبسمة.

مضت أيام وأسابيع وأنا لا أكف عن التفكير فيها ، أو التلكؤ على باب العمارة لعلي ألقاها . ولم أكف عن الجلوس في الشرفة مترقباً قدومها إلي البيت أو خروجها من الباب .

لمحتها مرة وهى تعبر الشارع متجهه صوب البيت..

خطفت قميصاً وبنطلوناً من على الشماعة . ارتديتهما وأنا في طريقي إلى الباب ، ثم خطفت حذائي الملقي بجوار الكنبة وانطلقت مسرعاً إلى بسطة السلم أتلفت عليها.

لم أكمل . لقيت الحاج محمود صاعداً في موكب صغير ، مكون منه هو والبواب وعم مرزوق السمكري ومعه صبيه . والاثنان يحملان نصف شيكارة أسمنت ومفتاح إنجليزي وشاكوش ومسامير لإصلاح صهريج المياه ، ووراءهما ساكن بالدور العلوي وأربعة من عيال العمارة ثلاثة منهم حفاة والرابع بالشبشب والملابس الداخلية . كان واضحاً أنهم أتوا للفرجة.

سلمت على الحاج محمود فسألني عن أحوالي ووجهتي . قلت له بصوت مرتفع وعيني على نادية وهي تخلص نفسها من الأكتاف التي توقفت بوقوف الحاج محمود :

ـ أنا رايح المكتبة يا عم الحاج علشان أشتري كتاب (النجاح) ولا كتاب (الصديق). أي كتاب خارجي لمقرر اللغة العربية بتاع تانيه ثانوي.

قال الرجل بدهشة : ألست في الشهادة الثانوية ، قلت بصوت ناعم وهي تمرق إلى جوارنا : بأن أحداً لا يستغني أبداً عن السنة الثانية فهي الأساس .

هز رأسه مؤكداً على كلامي وقال بصوت أبوي : معك حق وبارك الله فيك . أما البواب العجوز فأزاح طاقيته البيضاء قليلاً إلى أعلى وهرش رأسه وهو ينظر إلي متبسماً ويقول بلكنته النوبية :

ـ شدي حيلك يا جلال يا ابني . الهم تقيل عليكي . كان الله في العون .

وأشار إلي باب شقتنا المفتوح وهو يضيف ، ونظرة ماكرة تبدو في عينيه :

ـ بس هرصي علي الباب في الأول . دا انتي من اللهوجة كنتي هتسيبيه مفتوح وتنزلي .

ونظر إلى حذائي :

ـ وكمان رباط الجزمة يا سي جلال . مالك سيباه كده .أربطيه أحسن تتكعبلي .

لم ألتفت إلى كلامه وقفلت راجعاً والغيظ يعض قلبي ، وأتساءل بيني وبين نفسي عن هذا الرجل الكركوب الذى طلع لي في البخت . أيكون قد لاحظ شيئاً ؟

لم تكن أمي بالشقة وأنا كمن فقد نصف عقله ولا أعرف ما الذي

أفعله كي أراها . وأروح أجيء في الشقة وأقوم وأجلس .. أريد أن أراها .. الآن .. الآن وليس بعد دقيقة .

بدلت ثيابي وفكرة مجنونة تلوح في بالي . قميص وبنطلون أخرين . وحذاء وشراب جديدين . ونظرت في المرآة أتأمل نفسي . طولي وعرضي. وتسريحة شعري . والحزام أبو توكه مذهبة . ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أدق على باب نادية.

فتحت لي مدام السبكي بمريلة المطبخ :

ـ أهلا يا جلال . مش بعاده يا ابني !

رمشت بعينيّ ثم تبسمت ولم يفتح الله عليّ بعدها بشيء.

وقفت أحدق فيها كالأبله . تعطل عقلي عن العمل ولا أعرف ما الذي أصاب لساني . كل الذي جال بخاطري لحظتها أني أوقعت نفسي في ورطة وأني سوف ألقي حالا الجزاء الذي أستحقه.

ـ مالك مخضوض كده ووشك اصفر . ماما بخير !

ـ ماما . آه . بخير يا تانت . أنا كنت عايز ...

ـ عايز أيه . ومال صوتك عامل كده ليه . إنت عيان يا ابني .

ـ آه . عندي شوية برد . وكنت عايز كتاب من الآنسة نادية .

ـ سلامتك . وكتاب إيه اللي إنت عايزه . وهو انتم يا ابني في سنة واحدة.

ـ لا يا تانت أنا في سنه تالته . بس المواد زي ما حضرتك عارفه مبنية على بعض .

كانت مدام السبكي إمرأة طيبة ، فانطلى عليها الكلام ونادت على ابنتها بصوت عال .

أتـت نادية ولما رأتني سهـمت بعيناها قليـلا ، فقـالت لهـا أمهـا بدهشة :

ـ دا جلال ابن مدام كاميليا إنتي مش عـارفاه ولاإيه . دا انتم ياما لعبتم مع بعض وانتوا صغيرين .

أجابت بصوت خافت :

ـ عارفاه يا ماما . عارفاه.

ثم قطبت ما بين عـينيهـا كأنما تتذكر ، وأردفت وابتسامة اعتذار تلوح على شفتيها :

ـ بس حكاية اللعب دي واحنا صغيرين مش فاكراها يا ماما.

ـ طيب يا بنتي دخليه الصالون وشوفيه عـايز أيه علشان أنا داخله المطبخ.

سرت خلفها حتى أجلستني على مقعد بالقرب من باب الصالون ، وسألتني وفي عينيها شقاوة :

ـ وهو احنا كنا بنلعب مع بعض واحنا صغيـرين ! أنا مش فاكره حاجة من دي !

والتـفـتت برأسـهـا ناحـيـة باب المطبخ ، ثم سـألتني عن الذي أريده وتركتني وذهبت .

هالني الترتيب والنظام وفخامة الصالون . المقاعد صحيح من طراز قديم ، لكنها كلها مذهبة ومازالت بزهوتها ولها بطانة فضية . ومنضدة رخامية سوداء اللون عليها مزهرية كريستال . وسجاد من الحائط للحائط . ومكتبة صغيرة في الزاوية بها ضلفة زجاجية تضم دمُية لعروسة وتماثيل صغيرة . حالهم أحسن من حالنا بكثير وأهل أمها تجـار

وشيوخ بالأزهر ، ناس كرام كما سمعت ويرعونهما.

عادت بعد برهة قليلة وفي يدها الكتاب الذي سألتها عنه . سبقتها رائحة عطر هادئ . كان واضحاً أنها وضعته للتو ، وعليها روب آخر غير الذي رأيته منذ دقائق . لونه رمادي فاتح ومشجر بورود صغيرة بلون نبيتي . وشعرها لا أعرف ما الذي فعلته به. أصبح ملفتاً . الحق أنه أصابني الغرور لما أحسست أن كل هذا من أجلي.

جلست علـى المقعد المجاور لي وكانت في موضع ترى منه باب المطبخ ، وأخذنا نقلب صفحات الكتاب معاً .

ولم يكن في ذهني بالطبع استفهام محدد أود معرفة جوابه . وبرغم ذلك كنت أبدو أمامها جاداً وشديد الاهتمام ، وأول ما أشير إلي إحدي الصفحات كانت تقول :

ـ هيه دي اللى إنت عايز تعرفها.

أجيب وأنا أهز رأسي :

ـ أيوه . أيوه .

غير أن عيني لا تستقر على الصفحة التي نتحدث بشأنها وأعيد التقليب في الكتاب وهو في يدها ، وعندما أتوقف تقول:

ـ ودي كمان .

ـ آه ودي كمان.

وكانت أصابعنا تتلامس بلا قصد فينتابها ارتباك خفيف ، وكنت ألاحظ أنها ترمقني بين الحين والحين ونظراتها تقول : إنها تفهم غرضي وأن كل هذا الذي أفعله كذب فى كذب وأشياءً ملفقةً .

لم أشعر إلا وأنا أضع كفي على يدها فسحبتها في الحال ونظرة

عتاب تلوح في عينيها، أما أنا فأرجعت كفى ثانية إلى مسند المقعد وكأن ذلك حدث مني بلا قصد واستمر الحديث بيننا . فعلتها ثانية ، لكن الزمام أفلت مني هذه المرة . أرحت كفي كله على يدها وبلا وعي مني وجدت نفسي أضغط عليها ضغطة خفيفة وأرفعها وألثمها بشفتيّ.

هبت واقفة وأنا معها .. رجعت خطوة إلى الوراء إلا أني لم أتراجع . اقتربت منها .. نمش قليل بأعلى وجنتيها .. لمسته بشفتيّ .. أنفاسي وأنفاسها تتدافعان .. قبلتها في نفس الموضع الذي قبلتها فيه وهي صغيرة . وخطفت الكتاب من يدها وانطلقت مسرعاً ناحية الباب..

قبل أن أنزل درجتين على السلم التفتت إلى الوراء ، وهي تقول لي قبل أن تغلق الباب.

ـ يبقي إبعت الكتاب مع تانت كاميليا . أوعى تجيبه انت .

نزلت مسرعاً وفي انحنائة السلم اصطدمت بعم إدريس البواب الذي كان صاعداً ، وعلى كتفه جردل تتساقط منه قطرات ماء على جلبابه وعلى مركوب له شكل القارب كان ينتعله .

صاح فيّ ضاحكاً:

ـ جرالك أيه النهارده يا جلال افندي . إنتي سرحانه كده على طول . إنتي كنتي فين يا عفريته.

* * *

(٢٤)

تصحو أمي في السادسة إلا ربع تماماً.

تبدأ يومها بإعداد ساندوتشات الفول والجبن ، وأحياناً الحلاوة الطحينية والبيض المسلوق ومعهما العيش (الكاشير)[1] . وتلف هذه الأشياء في ورق جرائد وتضعها في الجيب الخارجي لحقيبتي ، والتي أكون قد أعددتها من الليل وتركتها بجوار باب الشقة .

تتمطأ وتفتح باب الشرفة فيغمر الصالة ضوء النهار ، والذي غالباً ما يكون خفيفاً في هذه الساعة إذا كنا في الشتاء . ويتسرب النور - بالطبع - إلى الغرفة التي أنام فيها من مربعات الزجاج الإنجليزي المحبب التي تحتل النصف العلوي من واجهة الباب ، فتخف الظلمة قليلاً . ولا أعرف لماذا أنتبه مع أن نومي ثقيل . وتبدو لي الأشياء في أول الأمر غير محددة المعالم والعين عاجزة عن احتوائها .

وتأتي الأصوات من الشارع .

عم صبحي بندائه الرتيب على الحليب الطازج . كان معتزاً بنفسه وببضاعته التي يحملها على قسطين كبيرين مربوطين بخطاف حديد في الإطار الخلفي لدراجته . لايكرر النداء إلا مرة أو مرتين ، وله في كل ناصية شارع موطئ قدم تتجمع فيه نسوة البوابين وهن يحملن في

---

(١) خبز خاص بالطائفة اليهودية .

أيديهن كيزان وسلاطين من الصاج .

وعم هلال الذي لا يكف عن الصيـاح على الجـرائد والمجلات التي يحـملهـا في حـافظة من الورق المقـوى ، تتـدلى تحت إبطه بربـاط من الدوبارة معلق في كتفه . ويا ويلنا لو كان هناك خبراً جديداً . حادثة أو هجمة للشـرطة العسكريـة على من أسمـوهم - وقتـها - بالإقطاعيين الجدد ، أو تصريح ناري للرئيس أمـام المراسلين الأجـانب . يظل الرجل يدب بقدمه على الأرض ويصيح بإلحاح وانفعـال محدثاً فضيـحة في الشارع . وكان يبدو لنا آنذاك ليس كبائع جرائد متجول ، وإنما على أنه أحد المشاركين في صنع هذا الحدث.

وقد يأتي الثنائي سعيد وزكية مبكرين بعربتهما الكارو وعليها كل أصناف الخضروات ، أو الفواكة التي لا تباع عند الفكهانية كالجوافة والتوت والجميز.

يقفا أسفل عمارتنا و تبدأ زكية بالنداء على الخضار الصابح بصوت عـال أشبـه بالغنـاء . ولطالما رأيتـهـا وأنا في طريقي إلى المدرسـة وهي مبطوطة على الكارو ، وقدماها ممدودتان أمامها وعروق رقبتها منتفخة كالحبال . ورأسها التي تزيد قليلاً عن حجم ثمرة الكرنب تدور يميناً ويساراً مع النشاز الخارج من فمها . أما سعيد الذي يرتكن بكوعه على قائم التعريشة المرفوع قليلاً ، فكان يتأملها بإفتتـان وهو يمسح شاربه بطرف لسانه . وأول مـا تنتهي من وصلتها كان يضع إصبعي الإبهام أسفل شحمتي أذنيه ويتوتر كفيه الواصلين حتى منتصف عمامته ، ويبدأ هو الآخر في النداء . لكن والحق كان نداؤه ذو إيقاع عذب وأرق بكثير من صوت زكية الذي كان أشبه بالسرسعة .

والملهاة تكتمل لو تجاوب معها الحمار الذي يشد الكارو.

كان ضامراً وله كرش كبير وكفلين ليسا مستديرين أو جلدهما مشدوداً كسائر الدواب ، وإنما يكاداً أن يكونا مستطيلان وتعلوهما بقع متناثرة أخذت في الازدياد هذا الشتاء حتى وصلت إلى بطنه . ربما من الجرب أو كثرة الهزال ، وهو على ما يبدو له في الطرب . كنا نراه وهو يتلاعب بأذنيه الكبيرتين تبعاً لمسار الغناء خاصة عندما يكون بصوت زكية ، وكانت قوائمه تتقلقل على الأرض في هزات صغيرة ومرحة . ويكف أحياناً عن الحركة تماماً مكتفياً برفع منخريه في الهواء وقلب شفته إلى أعلى . أظن أنه في هذه اللحظات يكون في أقصى درجات الاستمتاع بالغناء. وفجأة كان يقطع الطريق على سعيد آخذاً منه زمام المبادرة ، ويرد هو على زكية بوصلة من النهيق الطويل .

من الظلم تصنيف هذا الذي يصدر عنه على أنه مجرد نهيق - عادي - كالذي يفعله غيره من الحمير ، وإنما كان نهيقاً فيه نغم وفيه شجن لا يصدر إلا عن حمار موهوب . ولا أعتقد أن أحداً في الشارع يقدر على النوم بعد وصول هذا الفريق إلا أصحاب الحالات الخاصة من أمثالي .

تأتيني كل هذه الأصوات مشوشة غير واضحة ، وأشعر بحركة أمي في الشقة ولكني لا أعرف ما إذا كان كل هذا يحدث في اليقظة أو في المنام .

هي ثوان قليل يكون إنتباهي فيها منقوصاً ، وسرعان ما يخطفني النوم وأبدو أمام نفسي كمن يهوي في فراغ معتم.

وتذهب أمي إلى المطبخ ، لتعد لنفسها كوباً كبيراً من القهوة

المخلوطة باللبن الحليب.

لم يكن هذا المشروب معروفاً وقتها في عمارتنا ولا حتى في حي الظاهر كله ، اللهم إلا البيوت التي عاشرت الأجانب . جدتي هي التي أتت به إلى بيتنا من صديقة لها كانت تعمل (كمريرة) في بيت القطاوي باشا . وكانت النسوة يتعجبن من هذا الذي نشربه ويقلن :

ـ حد ياختي يعمل كده !!

ـ اللبن يا أم إيزاك . اللبن الحليب ! ويتحط على أيه . على القهوة بتاعة المزاج وعدلة الراس .

وفي مرة قالت أم حسن لجدتي : إنها لما حكت لزوجها لم يصدق وعندما طلبت منه أن يجرب رد عليها ساخراً :

ـ إنتي تتكلمي في اللحمة والبامية والكوسة ولحد القهوة ملكيش دخل.

التفتت جدتي إليها مدهوشة فأردفت :

ـ معلوم دا راجل صاحب مزاج ومبيدقش القهوة إلا سادة ومحوجة بالحبهان ، ولو جت له مرة من غير وش كان يزعق ويعمل غارة وساعات كان يرْميها على الأرض .

أفلت لسان جدتي منها كالعادة وقالت :

ـ وطبعاً لازم ياخذ لحسه أفيون معاها .

نظرت إليها أم حسن بحنق ولولا أنها تحب أمي وتعمل حساباً لها لردت على جدتي باللازم ، وإن كان هذا لم يحل دون تراشق بألفاظ من العيار الخفيف أعقبه خروج أم حسن غاضبة . ولم تطب شقتنا بعدها إلا بعد صلح وحق وحلفانات .

* * *

تجلس أمي بعد ذلك على الكنبة في الموضع الذي كان يؤثره جدي وطالما جلس فيه . رشفتان والثالثة وتنادي عليّ كي أصحو من النوم . يكون نداؤها في أول الأمر هادئاً ممطوطاً وباسمي المجرد :

ـ اصحي يا جلال ..جلال .. يا جلال ..

ثم تتصاعد وتيرة الصوت عدة درجات وتأتي بنبرة حادة ، أما اسمي فيتم استبداله بالأوصاف المنكرة :

ـ إنت يا واد .. إنت يا حمار .. إصحى يا زفت .. بقولك اصحى يا بلوة انت وإلا هجيلك بالشبشب ..

وتلتقط أنفاسها مردفة بنبرة كلها معاناة :

ـ يا ربي إيه المرار ده . هو احنا اصطبحنا لموال كل يوم يا هباب إنت.

وأنا بالطبع في عالم آخر ، وأكاد أكون ميتاً ولست نائماً.

الغريب أن أمي تعرف أنه لا فائدة من هذا الذي تفعله ، فلست أنا الذي يصحو من مجرد نداء ! ومن أين ؟ من غرفة لغرفة . لكنها عادة تعودت عليها أو لعله من قبيل التسخين . إذ سرعان ما تهب واقفة ، وفي وقفتها كانت يدها تصطدم أحياناً بكوب القهوة باللبن وأنال أنا بالتالي شتمة أو شتمتين.

تدخل مندفعة إلى سرير جدي حيث أصبحت أنام الآن ، ويكون جرس المنبه قد بدأ في الرنين هو الآخر .

يتكاتف الاثنان عليّ حتى أرفع رأسي من الفراش . المنبه وهو من مخلفات الجيش الإنجليزي وله صناجات نحاسية تجلجل حتى الشارع. يبدو أنه كان مخصصاً للعساكر الكسالى أو ربما للتعذيب . وأمي الغاضبة تشد البطانية من على جسدي وتلقي بها على الأرض وهي

تصيح وتضرب بكفها على حاجز السرير.

* * *

اليوم ..

وقبل حتى أن تتناول أمي رشفة واحدة من كوب القهوة باللبن وجدتني أتثاءب على الباب . تطلعت إليّ غير مصدقة فتقدمت منها وقبلتها في مفرق شعرها . تبسمت وعلى وجهها دهشة فانحنيت وقبلت يدها . فلم أكن أعرف من قبل أن نادية يمكن أن تفعل بي كل هذا ..

وطرت إلي المدرسة ..

كان اليوم يوم أثنين .. وهذا اليوم إما أن يكون ظريفاً خفيف الدم أو يوماً ثقيلاً ، فالأمر يعود إلى الحالة المزاجية للأستاذ البصراطي الذي كان عندنا في الحصتين الأولي والثانية.

كان مدرس أول اللغة العربية وتجاوزوه أربع مرات في وكالة المدرسة، ويقولون إن زملاءه أصبحوا نظاراً بدءاً من العام الماضي. بل يؤكد مرقص أفندي معاون المدرسة أن مدير التربية والتعليم بالمنطقة كان زميله في السنة الأولى بكلية دار العلوم ، إلا أن الأستاذ البصراطي لم يتخرج معه في الميعاد الطبيعي وإنما آثر المكوث بالكلية سبع سنوات وترم .

ولفك عقدته وإيهامه بأنه شخص مهم قلدوه منصب الرائد العام للمدرسة ، وهو منصب شرفي أهم ما فيه بالنسبة للأستاذ أنه يجلس إلى جانب حضرة الناظر في المناسبات والاحتفالات عند تسليم الكؤوس والميداليات .

وتكريماً للأستاذ واتقاءً لشره - كما كانوا يتهامسون - كان حضرة

الناظر بعد أن يسلم الكأس للفريق الفائز في التصفيات النهائية ، يدعوه أحياناً لتقديم ميدالية أو اثنتين . ولم يكن يقدمها بالطبع إلا للفريق المهزوم .

غير أنه لم يفهم الأمر على هذا النحو.

وكانت العشر دقائق الأولي من كل حصة تضيع في الكلام عن وظيفته الجديدة . يقول : إنه بصفته الرائد العام للمدرسة قرر كذا وكذا. وأنه أوقف الأستاذ فلان عند حده لأنه لايفهم في أصول التربية ، أما الأستاذان مهدي طايع وفهمي ناشد اللذان سوف يحالا إلى المعاش الشهر القادم فهما متجاوبان معه ويثنيان على أفكاره . والمدرسة كانت في حال ولما عين هو في هذا المنصب أصبحت في حال آخر.

نبدي الإعجاب بكلامه ونقول : أنت لها يا أستاذ ، كان الله فى العون .

تتغير نبرة صوته لتحاكي نبرة المسئولين الكبار الذين يتحدثون في التليفزيون ، ويقول وعيناه مسبلتان قليلا : أمانة ووضعت في عنقى . أأهرب منها !! كلا وألف كلا . ثم يتثاءب ويضيف بنبرة أخري تنم عن صوت يعاني صاحبه من التعب والإجهاد : تعرفون يا أولاد . تتسع حدقات أعيننا ونمتد بصدورنا إلى الأمام ، فيكمل : أسبوعاً بأكمله وأنا أسهر حتى الفجر.

ويسكت .

نقول كلنا في صوت واحد : لماذا يا أستاذ ؟

يقول : لأني مشغول بإعداد خطة جهنمية لنقل المدرسة نقلة نوعية لتصبح في مصاف مدارس أوروبا . وأنا يا أولادي لن أعرض هذه الخطة

إلا علي الوزير مباشرة . نصحني بذلك أحد زملائي المتقاعدين . وهذا سر ياأولاد حذاري أن تفشوه لأحد ، فنحن في زمن لايعلمه إلا الله !

نتكتم ضحكاتنا ويسأله أحدنا فجأة :

هل الرائد العام هو الأعلي يا أستاذ أم وكيل المدرسة ؟

ينظر إلى السائل متأففاً من جهله ويرد على الفور بصوت قاطع : طبعاً الرائد العام يا مغفل !

ثم يخفض صوته قليلاً ويقول : هل تعلمون يا أولاد أن الأبحاث الحديثة في علم التربية تذهب إلى أن الرائد العام أهم بكثير من الناظر . وعندما يجد أننا لانزال على صمتنا ووجوهنا المتطلعة إليه تتوقع كلاماً أكثر ، يضرب بسبابته على قفصه الصدري ويقول بصوت حاسم ولكن أكثر خفوتاً : أما من وجهة نظرى فهذا المنصب يعلو على منصب مدير التربية والتعليم نفسه.

نتصنع كلنا البلاهة والعبط ونقول في نفس واحد :

ـ آه والله صحيح . كانت غايبة عننا فين دي .

ويهب أحدنا من مقعده قائلاً بانفعال :

ـ ويمكن أحسن من الوزير كمان .

يبدو الخجل علي وجه الأستاذ البصراطي ويقول بصوت ناعم ، وهو يربت على ظهر هذا الطالب :

ـ مش للدرجة دي .

ويردف قائلاً :

ـ عارفين يا أولاد ليه ؟

نسأل كلنا وبنغمة ممطوطة والدهشة الكاذبة ترتسم على وجوهنا :

ـ ليه !

يتبسم من قلة مداركنا :

ـ علشان أنا صاحب رسالة يا أولاد . أنا لا أكترث بالمناصب.

ثم يمط شفته السفلي ويشيح بيده في الهواء :

ـ يعني أيه ناظر ولا مدير ولا حتي وزير . أنا راجل تربوي وأدعو إلى مكارم الأخلاق وأعالج النفوس المريضة .

فندخل في روعة أننا صدقنا ونقول :

ـ أكيد . أكيد . بارك الله فيك يا أستاذنا .

غير أن واحداً من الصفوف الخلفية باغت الأستاذ مرة وقال :

ـ بتعالج النفوس إزاي يا أستاذ .. بحقن ولا برشام ؟

وكان نطقة للكلمتين الأخيرتين بصوت خافت ، إلا أني أظن أن الأستاذ سمعهما . إذ سرعان ما أحمر وجهه ودمدم غاضباً :

ـ بتقول أيه يا ولد ؟ علي صوتك شويه.

وكي لا يتعكر مزاج الأستاذ ، شاركناه كلنا في تقريع الولد الذي تكلم حتى مضت الأمور على خير .

* * *

ولي أنا وزميل آخر يسمي خيري واقعة لا تنسي مع الأستاذ.

ففي مرة وأثناء الشرح ترامي إلى آذاننا ضجيج خفيف آت من غرفة الموسيقي ، حيث كان طلاب أحد الفصول يعزفون فى حصة الهوايات. وهو أمر يحدث باستمرار ويمر علينا مرور الكرام عندما يكون عندنا أي مدرس ، لكن في هذه الحصة ومع الأستاذ البصراطي بالذات اختلفت المسألة .

نظرنا إلى بعضنا البعض وبسرعة رفع أكثرنا إصبعه شاكياً . حاول الأستاذ افهامنا أنها ضجة لاتذكر ، لكننا أصرينا على موقفنا وأننا لانسمع الدرس بشكل جيد.

وقال طالب بلهجة جادة :

ـ الأصول أصول يا أستاذ . والناس اللي حوالينا لازم تعرف أنه لما يكون الرائد العام في المنطقة دي كله لازم يسكت ويلزم الأدب.

أسقط في يد الأستاذ وأصبحت كرامته على المحك ، خاصة وأنه لاح في وجوهنا اتهام له بالتخاذل وأن هذا ليس من خصال من يكون رائداً عاماً للمدرسة . تلفت حوله وأشار لي أنا وزميلي خيري وانتدبنا للذهاب إلى مدرس الموسيقي كي نرجوه ونستسمحه في خفض الصوت قليلاً . وطلب منا أن نحدثه بذوق وكياسة لأننا لا نمثل أنفسنا في هذه المهمة وإنما نمثل الأستاذ نفسه، وهو كما نعلم ويعلم الجميع صاحب رسالة ويحمل مشعل التربية على كاهله . غير أننا فهمنا موقفه اللين هذا فهماً آخر ، فالأستاذ (سُمعه) مدرس الموسيقي حاد المزاج ولايطيق الذبابة لو طارت بالقرب منه . ويقولون في المدرسة إنه (شوضلي) وضيق الأفق ، وأكيد الأستاذ يعرف ذلك ويتحاشاه.

ذهبنا مسرعين ، فالتقانا الأستاذ سُمعه بوجه عابس .

قلنا له بلهجة استفزازية وبنبرة أشبه بالأوامر :

ـ بيقولك الرائد العام للمدرسة بطل الدوشة اللي إنت عاملها وإلا ..

نظر إلينا من أعلى لأسفل واقترب منا خطوة ، فتراجعنا واحدة مثلها لنحافظ على المسافة التي بيننا ، فلا أحد منا يعلم ردة فعله .

ـ دوشة أيه يا حشرة منك له . بقي شرابة الخرج ده باعت يهددني .

بيقول وإلا ... وإلا ايه يا سنكوح منك له إنت وهوه.

أجبت بأعصاب باردة وكأن الأمر منطقي وطبيعي ، وكان عليه فهمه من تلقاء نفسه.

- وإلا هياخد إجراء معاك.

- هو قال كده.

هززنا رأسينا نحن الاثنين بما يفيد التأكيد ، وأضاف خيري :

- الطيب أحسن يا أستاذ سُمعه وإلا إنت عارف أن الرائد العام معندوش تفاهم.

وأضفت أنا متمماً.

- أي والله يا خيري دا الأستاذ البصراطي ما بيرحمش . فاكر لما عبط الواد حامد ونزل عليه بالخرزانة .

وأكمل خيري الذي كان معي على نفس الموجة :

- ودي حاجة تتنسي . دا بيقولوا الإسعاف شالته من قدام الأستاذ وقالت إنه معدش ينفع تاني . وأحسن حاجة تودوه على بيته علشان أمه وأبوه يلقوا عليه النظرة الأخيرة.

فقلت أنا وعيناي على الأستاذ سُمعه :

- ولما ضرب الواد الزناتي وكفاه على وشه . ياعم دا راجل شراني ومستعد يعملها مع أي حد .

صرخ في وجهينا قائلاً :

- رائد عام أيه وزفت أيه . جتكم داهيه إنتوا وهوه . بقي واقفين عمالين تغنوا وتردوا على بعض . يللا يا وسخ منك له من هنا.

ولما تباطئنا في الانصراف من أمامه لنأخذ منه رداً نعود به للأستاذ

البصراطي ، صوب لي لكمة تجاه عيني بالضبط . كنت مستعداً لها بالطبع ، فملت بجزعي وتفاديتها إلا أن المجرم عاجلني بركلة ألقتني على الأرض ، أما زميلي خيري فولى هارباً. تدحرجت مبتعداً لما رأيته يتجهز للركلة الثانية ، وفى ثانية كنت واقفاً وطرت كما الريح من أمامه.

عدنا مذعورين للأستاذ وصياحنا واستغاثتنا بطلب النجدة تسبقنا.

وقف يستمع لشكوانا ويري آثار الحذاء على بنطالي ، وكنت ألاحظ أن قدميه تتنقلان على الأرض إستعداداً للانطلاق ووجهه من شدة الغضب لايستقر على حال . أما طاقتا أنفه فاتسعتا وبدأتا في الارتعاش وإخراج زفير متلاحق له صوت كالفحيح . من الواضح أننا أيقظنا غدد الشر لديه وأزدنا نشاطها فشحذته وجهزته لمعركة فرضت عليه فرضاً ، خاصة وأن كل الفصل ناشد الأستاذ ألا يتسامح في حقه وأن كرامته ـ وبالعربي الفصيح ـ أصبحت في مهب الريح . ولا مندوحة من أن يتلقي المخطيء جزاءه لأن من يقم بإهانة سفراء الرائد العام كأنما أهان الرائد العام نفسه . فهذه معادلة رياضية ـ وكما صاح أحد الطلاب بصوت مسرحي ـ يجب أن تحترم من كل صغير وكبير في المدرسة.

تحول وجه الأستاذ إلى لون الكبدة من شدة الغيظ وضرب باب الفصل بقدمه مندفعاً صوب غرفة الموسيقي، ولبثنا كلنا خلف النوافذ نتابع صراع العمالقة الذي علي وشك الوقوع .

ماهي إلا دقيقة وعلا الصوت وسقطت الآلات من أيدي العازفين ، وأتي السعاة والعمال من كل مكان . ورأينا حضرة الناظر يهرول مسرعاً في رهط من المدرسين . كان منظره ملفتا . أزرار القميص بعضها

لا يزال مفتوحاً ورباط الحذاء مفكوك ، وهو نفسه ملخوم في رفع حمالات البنطلون . أعتقد أنه كان في دورة المياه وصرخوا عليه.

وبعد تحقيق طويل عرفوا أصل الحكاية.

الفصل كله خصم خمس درجات من السلوك ، أما أنا وخيري فالرفت عشرة أيام مع إنذار بالفصل النهائي. وأتى الحاج محمود ، ووقع على تعهد بأن أسلك سلوكاً مستقيماً وألا أعود مستقبلاً لما فعلت.

* * *

كان هذا أول العام الماضي .

أخذ الأستاذ يدخل إلى الفصل بعدها وعيناه تطقان بالشرر ، ووجهه يقول إنه مستعد لارتكاب جريمة مع أي واحد منا . وإذا صدرت من أي طالب حركة ولو بسيطة من تلك التي كنا نفعلها في الأيام الخوالي ، كان يثني يده إلى الخلف ويدفعها أمامه - كالمجرمين المقبوض عليهم - إلى حضرة الناظر مقترحاً عليه استدعاء شرطة النجدة . يظل حضرة الناظر يهدىء من ثورته ولا يتنازل الأستاذ أبداً حتى يُعاقب الطالب بالرفت ثلاثة أيام . يسرع بعدها إلى مكتب مرقص أفندي ليقف على رأسه وهو يكتب خطاب الرفت ، ويرغمه على إضافة عبارة أو عبارتين شديدتي اللهجة على الصيغة التقليدية للخطاب.

أما أنا وزميلي خيري فكنا نعرف حدودنا معه.

لزمنا الصمت تماماً ولم تكن نلقي بالا بالدرس الذي يقوله الأستاذ ، وإنما انشغلنا بالأستاذ نفسه . همنا كله كان محصوراً في متابعة تحركاته في الفصل ، خاصة بعد أن حفظنا التكتيك الذي يتبعه معنا . فقد كان يشرح الدرس وهو يتنقل بخطاه من موقعه بجانب السبورة إلى

منتصف الفصل حيث نجلس ، وعندها يحدث خلل مّا في جهازه العصبي وتقل سيطرته علي حواسه . كانت أصابع يديه ترتعش قليلاً وعيناه - وبالرغم منه - لا تحيد عن متابعتنا من أعلى النظارة المرتخية على أرنبة أنفه . وبطبيعة الحال لم يكن يود كشف أمره أمامنا ويحاول بكل طاقته إيهامنا بأن الأمر يأتي بطريقة غير مقصودة وأنه ينظر لغيرنا كما ينظر لنا ، إلا أنه كان يفشل في ذلك .

وعندما كنت ألحظ أن شحمتي أذنه أصبحتا حمراوين كالدم أو ازدياد في رعشة أصابعه ، أعتبر هذا إشارة خطر لنا وأخبط كوعي بحذر في جنب زميلي فيفهم ما أعنيه.

وفي اللحظات التي يمسك فيها الأستاذ بزمام نفسه كان يحاول تضليلنا ، إما بالنظر إلينا بطريقة حيادية أو يسألنا سؤالاً. إن أجبنا عليه بالخطأ أو الصواب أو حتى لم نجب ، كان يربت على أكتافنا بطريقة أبوية ويمضي عنا معتقداً أن الأمر انطلي علينا وأننا نعيش في أمان كاذب . ويعود مرة ثانية من حيث أتي ويعطينا ظهره فترة طويلة موجهاً حديثه للصفوف الأولى ، عسى أن نخرج من جحرينا ونرتكب أية غلطة. وفجأة يستدير نحونا فى إلتفاتة سريعة فيجدنا في انتظاره .. الأيادي تكاد تكون موضوعة على الصدور ، ووجهينا يكسوهما الأدب والامتثال كأننا ملكين من السماء .. الابتسامة تكون في أعيننا فقط.

وعندما جاء امتحان آخر العام كان العقاب الأكبر لكل الفصل، ولولا تدخل حضرة الناظر ولجنة الرأفة التي عقدت لنا علي عجل ما نجح أحد.

تغيرت الأحوال هذا العام بعد أن بددوا تلاميذ فصلنا القديم . فصل ثانية رابع . نفوهم ووزعوهم على باقي الفصول . وبالنسبة لي أنا

وخيري حولونا إلى فصل ثالثة عاشر . ومعروف أن هذا الفصل سيىء السمعة ولايضم إلا من أعيد قيدهم بعد استنفاذ مرات الرسوب وأصحاب العاهات وأراذل الطلاب . ولم يسبق أن التحق أحد منه بالجامعة.

عندما سألنا معاون المدرسة عن هذه النقطة بالذات ، نظر في وجوهنا المتطلعة إليه وقال بعد أن نفخ في زجاج النظارة وبدأ في تنظيفه بمنديل متسخ كان في حجره :

ـ الورق اللي عندي بيقول إن تلميذ واحد بس هو اللي عملها من سبع سنين ونجح بمجموع أربعة وأربعين في المية . وآهو مكتب التنسيق وداه معهد في دمنهور.

ـ طب والباقيين يا مرقص أفندي راحوا فين .

ـ فين ! على الشارع طبعاً . اللي بقي مكوجي . واللي واقف بعربية كشري . واللي صلاة النبي دلوقتي بقي صبي فسخاني . واللي شغال في الحشيش .

ـ يعني واحد بس هو اللي فلح ودخل معهد .

ـ ومين قال لكم إنه فلح ! أنا سمعت من جماعة قرايبه إنه اترفد من سنة أولى .

* * *

أتيت اليوم للمدرسة وجلست إلى جوار خيري ، وما أن بدأنا نثرثر حتى دخل الأستاذ البصراطي .

صرخ طالب في الصف الأخير ـ اسمه الليثي ـ صرخة مدوية :

ـ قيام لسيادة الرائد العام للمدرسة .

قمنا والتفتنا ليس إلى الأستاذ وإنما إلى الوراء حيث دكة الليثي .

فالجميع يود متابعة المراسم التي يصر على تأديتها في الأيام القليلة التي يأتي فيها إلى المدرسة . فلم يكن يأتي إلا يومين أو ثلاثة في الأسبوع على أكثر تقدير . وبالنسبة للغياب معمول حسابه ، فالفراش الذي يمر بورقة الغياب كانت له شهرية عند الليثي . وإذا فاح الكلام كان مرقص أفندي يتدخل وينهي الأمر دائما لصالح الليثي ، كما كانت له طرق وحيل أخري لا نعرفها . وضعّ الليثي ـ بصراحة ـ كان مميزاً وله كلمة نافذة في المدرسة كحضرة الناظر تماماً.

يتنحنح الليثي في البداية ثم يصيح بصوت جهوري :

ـ ثابت كل الفصل .. ثابت .. ثـابت .. ولا حـركـة اكتـم نفسك يا تلميذ منك له .

ويبدأ في السير بخطوة عسكرية متجهاً إلى الأستاذ . يداه ترتفعان حتى مستوي كتفه ، وركبتاه تنثنيان بحركة لولبية وتأخذان قدميه معها إلى أعلى ثم تعودان بهما إلى الأرض محاكياً بذلك المشية العسكرية للرايخ الثالث.

تظل أعيننا عليه وهو يتبختر أمامنا كجنود النازي الذين كنا نراهم في أفلام الحرب العالمية الثانية . وأول ما يصل إلى الأستاذ يضرب الأرض بقدمه ضربة قوية ، مؤدياً التحية العسكرية مثلما يفعلون في الجيش بالضبط . ولم يكن ينسي بالطبع هز كف يده أمام عينيه عدة مرات ـ أثناء تأدية التحية ـ معبراً عن الصرامة وانفعاله بجلال الموقف .

يصيح ثانية :

ـ تمام سيادة الرائد العام .. القوة ٤١ طالب .. ٧ رفد من حضرة

الناظر .. ٩ نيام .. وواحد محجوز في قسم الوايلي .. والباقي مستعد للدرس.

كان الأستاذ البصراطي يتقلقل في مكانه من شدة الغيظ إلا أنه لا ينطق أو يبدي أي استياء ظاهر . يتمتم بصوت خفيض : انصراف ، متمنياً من الله أن تنتهي هذه المراسم على خير . فهو يعلم أن الذي أمامه ليس طالباً أرسلوه ليتعلم ، وإنما هو في مواجهة مجرم يرتدي ملابس طالب .

يدور الليثي على عقبيه بطريقة ملفتة ويعود بنفس المشية إلى مقعده، وعيوننا عليه ثانية ومعنا عينا الأستاذ ودهشته . يتثاءب الليثي عدة مرات بصوت عال ، ويعود برأسه قليلاً إلى الوراء ويغفو غفوات قصيرة إلى أن تنتهي الحصة .أما في الأيام التي يكون فيها مجهدا من سهرة بالليل أو خلافه ، كان الطالب الذي بجواره يترك له الدكة ويمد هو رجليه على مقعده (ويتصلطح) بكتفه ورأسه على الحائط أو يثني رأسه على الدكة (وهات يا نوم) . وفى هذه الحالة يصبح المربع الذي هو فيه منطقة مغلقة ، ومحظورة على المدرسين الاقتراب منها.

استحالة أن يكون هذا طالب .

طول بعرض وشارب مفتول ، وندبه أعلى حاجبه الأيسر من ضربة سكين . ويقولون إنه متزوج بامرأتين . هو ليس أصلا من مدرستنا . ابن أحد تجار روض الفرج وحولوه من مدرسته هناك بعد أن دخل هو وشلته في معركة بالعصي مع الباعة السريحة الذين يسدون مدخل السوق . خرج بكفالة من النيابة وكادوا أن يحرموه من دخول امتحان الثانوية العامة ، لولا أن أباه حصل له على استثناء من الوزير . وأتوا به إلينا .

ويحلف أحد عمال المدرسة برحمة أمه بأن سمعة الليثي كالطبل في روض الفرج ، وأنه من بعد العصر يلبس الجلباب واللاسه ويقف في المحل مع أبيه . ويؤكد بأنه رآه أكثر من مرة بشمروخ في يده لحفظ النظام في المحل وطرد الصعايدة المتطفلين.

* * *

وبدأ الأستاذ البصراطي في الدرس ، وعنوانه دراسة تحليلية لإحدى القصائد الشعرية .

ظل يشرح لنا بيتاً بيتاً إلى أن جاء إلي بيت لا أعرف لماذا لم يحذفوه من كتاب الوزارة . الغزل فيه ليس عفيفاً بالمرة ومثيراً للكلام واللغط بين الشباب أمثآلنا . حاول الأستاذ المرور عليه سريعاً ليتفادي التعليقات والرذالات ، لكني كنت في الانتظار . رفعت يدي وسألته والبراءة على وجهي عما يقصده الشاعر من هذا البيت ،وما معني لفظ بذاته .

نظر إليّ وهو يعض بأسنانه على شفتيه ، وعيناه تقولان «هو إنت تاني يا وسخ».

لاشك في أن ذكريات ماضينا المشترك حامت في باله في هذه اللحظة خاصة وأن زميلي خيري أبدي عدم فهمه هو الآخر . وتلاه الليثي ، لم يكن علي ما يبدو قد دخل في النوم واستفزه حديثنا.

أدرك الأستاذ بأني أوقعت به ، فاقترب مني وهو يصيح بطريقة هستيرية :

- يعني منتش فاهم يا إبليس . هتعيد أيام زمان تاني إنت والمضروب اللي جنبك . روح يا خويا إسأل حد من الفاميليا . ولا أقولك روح اسأل

جولدا مائير وهيه تفهمك . أظنك عارفها.

لا أعرف من أين اكتشف أن أمي يهودية . ليس بملفي في المدرسة أي ذكر لهذا الأمر . لابد أنه سأل عني بعد واقعة العام الماضي ، أو ربما تعقبني حتي مسكني وأجري بنفسه تحريات عني.

الغريب أني لم أهتز من هذه المباغتة كما كنت أفعل في الابتدائي والإعدادي . لم أشعر بأن ما يقولون عنه أستاذاً ألقى شتمة فى وجهى أو عرّض بى . قلت له بهدوء : هل تقصد أن أمي يهوديه ،وأنت تعايرني بها.

رد على الفور وهو يشيح بيديه معتذراً :

ـ حاشا الله لا أقصد هذا . أنا .. أنا ..

وتناوله الارتباك .

* * *

(٢٥)

قلبي يخفق كلما أتيت إلى محطة الترام المواجهة لسينما مصر.

أسبوعان .. قل ثلاثة أو أربعة .. وأنا أطرق الباب مرة على مكتب وكيل المدرسة ، ومرة على الأستاذ البصراطي أو الأستاذ شنودة مشرف الدور طالباً الإذن بالانصراف بعد الحصة الخامسة.

يرفعون أبصارهم إليّ بضجر ، فألقاهم بوجه تعلوه مسحة كابية حزينة أحاول بكل ما أستطيع أن أجعلها عميقة وحقيقية.. المشكلة في عينيّ .. كانت خارج السيطرة وتفضحني أمامهم .. ولمزيد من سبك الدور كنت - أحياناً - أرفع شفتي السفلي قليلاً وأهز رأسي كأنما أنا في محنة بالفعل ، ولا أنسى طبعاً النظر إلى أسفل ووضع كف يدي اليمني على الكف الأيسر أمام بطني مثلما يفعل الناس في الجنازات .

يزدادون ضجراً وتأففاً ويستحثونى بصوت غاضب أن أنطق ، ويكون صوت الأستاذ البصراطي دائماً هو الأعلي . وكنت ألمح يده وهي تجري على سطح المكتب بحثاً عن أية آلة حادة ، وعندما تستقر على مطفأة السجائر كنت أحتاط لنفسي جيداً من ردة فعله حيال أي حرف أنطق به. فمن يدريني أنه لا يخطط لإلقائها في وجهي إن بدر مني شيء يعكر مزاجه.

أقول بصوت خافت ومؤثر إنه جاءني خبر الآن بأن جدي عضه كلب

ضال أو نطحه خروف من الخراف التي تلهو طول النهار أمام جزارة عم زينهم التي في أول الشارع ، وأود اللحاق به في مستشفي الدمرداش قبل أن يلقي وجه ربه الكريم . أو أتحجج بالذهاب مع أمي العمياء إلي مستشفي (سيد جلال) ليضعوا لها مساً في عينيها . أو أن ولداً سقط في بالوعة المجاري التي أمام عمارتنا ، ومن المروءة الوقوف مع الجيران في ساعة الضيق .

كثيراً ما كانوا يأذنون لي مللا مني وليتخلصوا من وقوفي أمامهم ، وإن ركبوا رؤوسهم ولم يجنحوا إلي السلم لم يكن أمامي مفر سوى الحيل والرشاوي أو مغافلة عم سيد الأعمش بواب المدرسة .

وكانت منافع زميلنا الليثي - أعطاه الله الصحة - تظهر في أوقات الشدة هذه . فعندما كنت أبدو مهموماً ومضطرباً كان يهز رأسه بثقة ، ويقول وهو ينزع بالملقاط شعرة بيضاء نبتت في شاربه :

- ولايهمك يا واد يا جلال ولو عايز تزوغ من أول النهار إتكل علي الله وأنا المسئول . ما انت عارف إن المدرسة كلها في جيبي الصغير .

أقوم من جانبه فيجذبني من يدي مكملا الحديث بنغمة ساخطة :

- دي عالم أنطاع متعرفش يعني أيه لهلبة الحب والقلب لما يتنكد . أنا مش فاهم ليه ما يدرسوش الحب وتفانينه حصه ولا اتنين كل أسبوع . كل اللي فالحين فيه .. جا وجتا .. وظا وظتا .. والجذر التربيعي والجذر التكعيبي .

أسحب يدي فيردف متبسماً :

- عمر ما حد هيفهمك يا نمس غير واحد حبيب زيي . دا أنا حبيت لغاية دلوقتي تلاته على أم العيال ولسه قلبي عطشان . يللا يللا يا ابن

الحلال .

ألوح له ضاحكا وأسرع إلى حمام المدرسة حاملاً حقيبتي . أسحب القميص المكوي من أحد جيوبها . أرتديه في ثانية وأصفف شعري ولا مانع من لحسة من كريم الشعر الخاص بأمي والذي أكون قد وضعته خلسة في الحقيبة ، ورشة من زجاجة الكولونيا (اللافندر) أو حتي من زجاجة العطر الخاصة بأمي . أيهما تيسر لي أخذه معي صباحاً . وبحركة من حركات أنور وجدي ألقي بالحقيبة بقوة وعالياً تجاه ولد من الجيران . يتلقفها مني وكأنها كرة كي يسلمها للبواب ريثما أعود، وأطير أنا كالريح من شارع إلى شارع حتى أصل إلى محطة الترام وأندس بين الناس .

العرق يتصبب مني وعيناي تتطلعان إلى الترام الآتي من العباسية . وعندما أراه بعرباته الصفراء وصلصلته التي تتلاحق منبئه عن دخوله إلى المحطة أفقد السيطرة على نفسي . أطيش قليلاً وأتلفت حولي . أفتش عنها بين فتيات المدارس النازلات من العربة الأولى والثانية والثالثة أو اللاتي أفلتن مني ولا زلن يعبرن الشارع متجهات إلى الطوار. وأرى عن بعد فتيات خارجات من المكتبة التي على الصف الآخر ، أو واقفات يشترين اللب والآيس كريم من المحل الملاصق لسينما مصر . أقول لنفسي لعلها بينهن وأسرع باحثاً عنها لكني لا أجدها ، فأعود إلى المحطة مرة ثانية وأقف بين أناس جدد يائساً ولسعة الوجد تنقر في قلبي. وأرنو ببصري من جديد ناحية العباسية . عسى الترام القادم أو الذي يليه ولا فائدة أيضاً ، فأرجع إلى البيت وفؤادي خالياً.

ومضت الأيام والقلب يلح ، حتى أني صممت يوماً أن أغير على

شقتها مثلما فعلت فى المرة السابقة .. وليكن العذر هذه المرة كتاب الإنجليزي أو دروس اللغة العربية . وارتديت ملابسي بالفعل .. كدت أن أصعد ، لولا بقية من العقل . خفت .. خشيت أن أثير انتباه مدام السبكي فآتي بالوبال على رأسي ورأسها . قلت في نفسي : الشارع أسلم .

ظللت أتسكع فيه بالساعات لعلي ألقاها أو ربما تطل من الشرفة ، وأقترب من عم إدريس . أجلس معه على الدكة وكلام في كلام عن البوظة والنوبة والسودان والشارع الذي أصبح قذراً بعد أن خرج عم طلبه الكناس على المعاش . أحادثه وعيناي على الشارع أو بسطة السلم ، وهو يصغي ويعبث بأصابعه في شاربه أو يزيح شال عمامته البيضاء من عند أذنه ويهرش وهو يكز على أسنانه ، وعندما يمل مني كان يفرد ساقيه ليقوم وهو يقول بصوت أبوي :

ـ ما تطلعي تذاكري كلمتين ينفعوكي في الامتحان يا سي جلال . ولا إنتى مبسوطة من الرغى والكلام الفارغ اللى إنتى عمالة تقوليه .

* * *

لم يعد طيفها يلوح بين الحين والحين كما كان .. بل بقي معي .. أراه في كل وقت .. في اليقظة والمنام .. وصوتها وهو يداعب أذناي « ازيك يا جلال .. الزرار .. آه .. آه صحيح راح فين ».

وبت أسأل نفسي ألا تحبني مثلما أحبها . ألا تشعر بي كما أشعر بها . عيناها تقول ذلك.. ووجنتاها من شدة الحمرة كادتا تنطقان ، وأصابعنا التي تلامست بقصد وبغير قصد ، أم كل هذا خيال في خيال أهيم فيه وحدي .

ولما طال بي الوجد ، قلت اسأل أمي فهي خبيرة بهذه الأمور .

قمت إليها مسرعاً . كانت تمدد ساقيها على الكنبة ونظارة القراءة ساقطة على أنفها، ويداها ممسكتان بعدد قديم من مجلات الأزياء العالمية التي كانت جدتي تشتريها أيام تألقها في عالم الخياطة . لم تبال بقدومي فوقفت على رأسها أتطلع إلى ما تحملق فيه باستغراق . صورة كبيرة وبالعرض لمجموعة من حسناوات الخمسينات يتهادين فوق منصة خشبية في عرض بملابس البحر ذات القطعتين ، وفي الصحيفة المقابلة إعلان بالألوان الزاهية عن نوع من الخمور المعتقة مكتوب باللغة الإنجليزية أسفله « إن من لا يتذوقه لا يعرف للحياة معني ».

جلست قبالتها وسعلت سعلة خفيفة. انتبهت والتفتت إليّ فبدأت الحديث بالكلام في بعض الأمور التافهة ، وهي ترد بكلمات مقتضبة .. آه .. آه .. طيب .. خلاص .. عرفت .. وعيناها لا تزالا على المجلة . وأول ما دخلت في الموضوع دون أن أصرح - بالطبع - باسم (نادية) مدعياً أن الأمر يهم صديق لي ولا يخصني ، وضعت المجلة جانباً واستدارت بكل جسدها نحوي.

قالت بشيء من الحدة :

- علشان البنت هنا خيبتها تقيلة . تحب زينا ويمكن أكتر مننا ساعات. بس ودا المهم إنها ضعيفة وغلبانة ومتعرفش تعبر عن حبها . وإن اتجرأت مرة وعملتها يفضحوها. دا إن منزلوش على راسها بالشباشب ولا حبسوها في أوضه وتربسوا الباب عليها زي المساجين .

أقول مصبراً نفسي ومعللاً احتجاب نادية عني طوال هذه المدة :

- أنا بقول إن الكسوف هو السبب .

تهز رأسها رافضة فأقول :

ـ الكسوف يا ماما . الكسوف . يعني ما حستيش بيه ولا مرة مع بابا.

ـ كسوف أيه يا خايب !

ثم تردف بصوت مرتفع قليلاً ونغمة مطوطة .

ـ الخوف . الخوف .

وترنو ببصرها تجاه رقعة في زاوية السقف أعدمتها الرطوبة ، فأعرف أنها تسرح في عالمها القديم ، وأهم بالعودة إلى غرفتي ثانية. تشير لي بأن أجلس ، وتميل نحوي وهي تقبض علي معصم يدي بكفها . ويجيئني صوتها خافتاً رقيقاً وهي تقول : إنها هي التي أحبت أبي قبل أن يحبها هو .. أحبته أكثر مما يحبها.. ولو عادت بها الدنيا إلى الوراء ما اختارت غيره رغم ما تعرضت له من عذاب وفراق للأهل والأحباب .

أتطلع إليها بحنان وألثم كفها الجاثم على معصمي . لا يدوم ذلك طويلاً بيننا . تسحب كفها وتفاجئني برنة صوت غير التي كنت أسمعها من قبل ، تقول : إنها لو لم تشاغل أبي لأخذ منها قطعة القماش ولم تره بعدها. فمرة تقول له : تعال الأسبوع القادم لتري البضاعة الجديدة . ومرة ثانية تقول له : لا تشتري اليوم فالأوكازيون سوف يبدأ الشهر القادم. وهذا سر سمعته من سكرتير الخواجه سمعان صاحب المحل وممنوع عليها إفشائه للعملاء.

وترخي عينيها وهي تزيد بدلال :

ـ بس إنت مش زبون .. إنت حاجة تانية .

وكم من المرات أخذته من يده في جولات بالمحل ليري القمصان

والجوارب والأحذية ، وفي اليوم الذي توقعته طلب منها الخروج بعد انتهاء ورديتها في العمل . تناولا الغذاء في الشارع وشربا عصير برتقال من محل (ويلسون) بالعتبة الخضراء ، ومشيا في شارع محمد علي وشارع عبدالعزيز . وإنها هي التي دبرت أمر انتقاله من حي الحسين حيث كان يسكن إلي حي الظاهر.

وتمضي في الكلام ووجهها يتألق بفرحة مكتومة :

- تعرف أول مرة بوسنا فيها بعض إمتي ؟

من شدة الخجل أنحني على الكليم متشاغلاً بفردة الشبشب التي أفلتت من أصابعي ، وانقلبت على وجهها.

لا تكترث بالحمرة التي بدت على وجهي.

تقول : إنها هي التي باغتت أبي وقبلته في وجنته وهما يرتبان حاجياته في الغرفة التي استأجرها على السطوح ، وعندما استدار إليها أفلتت من يده .

- وتعرف إن عمك إدريس . الراجل الكهنة ده . مرة شفنا...

أقاطعها بانفعال ظاهر :

- ماما . يا ماما بلاش كلام في الحاجات دي .

وينتابنى شعور بالحرج مما تقول ، أعبر عنه بعودتي إلى الكلام ثانية في الموضوع الذي بدأنا به الحديث وبتصميمي على رأيي والسخرية من البنت الجريئة .. ولكن بكلمات محسوبة مراعاة لها.

ترد عليّ بغضب وتتهمني بالغباء وأني لم أتخلص بعد من الجهل الفلاحي الذي يجري في دمي ، وتنحرف بالحديث عامدة لتلوك في أشياءً لا أعرف عنها الكثير أو حتى القليل . كنت لا أزال جاهلا بديني

فلم أحسن جدالها ، وعندما أشعر بأنها تحاصرني وتكاد تضيق عليّ الخناق ،كنت من الحنق وقلة الحيلة أرفع صوتي حتي أسكتها وينتهي الأمر بيننا إلى خناقة .

والغريب أنه في أعقاب كل مشاجرة من هذا النوع لايزيد خصامنا عن نصف يوم ، يبدأ أحدنا بعدها بمبادرة صلح مع الآخر.

أتحين وجودها بعيداً عني وألقى بشيء ثقيل على الأرض ، فتأتي مسرعة لتجدني ممسكاً بكاحلي وأحجل على القدم الثانية. تفهم وتتبسم. أو أذهب إليها مباشرة حيث تجلس وأقبلها في مفرق شعرها فتحتويني بحنان ، وكثيراً ما كانت هي التي تقبل عليّ . وتأتي بعد ذلك المناورة ، والتي غالباً ما يقوم بها الطرف المبادر بالصلح .

تبدأ المناورة دائماً بمحاولة لجس النبض .

أقول وكأن كلامي جاء عرضاً وبلا قصد .

ـ والله دي الناس شكلها يفرح وهيه خارجه من صلاة الجمعة .. الغني والفقير .. والصغير والكبير .. اللي صلوا جوه .. واللي فرشوا حصير على الأرض .. واللي بيسلم على أخوه بعد الصلاة ... واللي ..

لا تقاطعني مثلما كانت تفعل من قبل احتراما للصلح الذي أبرمناه منذ دقائق ، فأستطرد أنا كلمة من هنا وكلمة من هناك عن سماحة الإسلام . وأنه دين الفطرة .. والعقل .. كلمات أشبه برؤوس الموضوعات كنت أعرفها من دروس الدين أو من الشيوخ الذين يتحدثون في التليفزيون .

ومن جهلي كنت أفرغ من الحديث سريعاً وأتوقف محملقاً في وجه أمي لأعرف أثر ما أقول ، أجده جامدا وخالياً من أى تعبير ، حتي

عيناها لا وميض لها أوترمشان .. أتذكر ساعتها بيت الشعر الذي طالما حفظناه في المدرسة « لقد أنلتك أذناً غير واعية .. ورب منتصت والقلب في صمم » .

وأفهم وأسكت .

أما هي فتكلمني عن باريس بلد الجمال والنور حيث يعيش جدي الآن، وأن اليهود يملكون هناك نصف محلات شارعي ريفولي وأوسمان . وفي أمريكا لهم كلمة مسموعة وهم أصحاب البنوك والمصانع والمال . وكلمتان عن اينشتاين وفرويد وفلان اللي أخذ جائزة نوبل في الطب ، أو في الأدب أو العلوم .

وعندما تشعر بأن حدقتى عينّي تتسعان ، تلوح الراحة على وجهها وتبدو وكأنما قلبها يقول إنه ليس أمامها إلا جولة واحدة وتجهز عليّ.

تبدأ حينها في التلاعب بصوتها . يأتيني هادئاً .. مؤثراً .. وهي تسترجع معي ما كانت تلقنه لي وأنا صغير عن سيدنا يعقوب وسيدنا داوود ، والملاك الذي أتي إلي سيدنا إبراهيم .

أقول لها :

- بس دا كان فدو لسيدنا إسماعيل .

- بتقول أيه !

- لسيدنا إسماعيل .

- جبت الكلام دا منين يا جاهل . الفدو لسيدنا إسحاق .

وتكررها مرة ثانية بنبرة قاطعة ، وهي تمسك بأذني على سبيل المداعبة.

- سيدنا إسحاق . سيدنا إسحاق .

أصمم على ما أقول وهي كذلك . وعندما تدرك أن مبادرتها للصلح توشك على الانهيار وأننا مقبلين على مشاجرة أعنف من السابقة، ترمش بعينيها وهي تتبسم في وجهي ، غير أن شفتيها اللتين تختلجان ووجهها المربد كانا يكشفانها . كنت ألمح ذلك وأطاوعها عندما تنتهي إلى حل وسط وتقول :

ـ إسماعيل ولا سيدنا إسحاق . الاتنين ولاد سيدنا إبراهيم .

وشيئاً فشيئاً يلحظ كلانا فتور الآخر مما يقول فيسكت عن الكلام على أمل العودة إليه من جديد ، إلى أن جرت واقعة ألزمت كل واحد منا حدوده ولم نجرؤ بعدها على طرق هذا الموضوع ثانية أو حتى أن نحوم حوله.

إذ طق في رأسي أن آتي بشيخ يهدي أمي إلى الإسلام . شيخ بجبة وقفطان ، حامل للقرآن ويفهم في الدين . فأنا لا أنفع معها . جاهل ولا أملأ عينيها . ولم لا ؟ خاصة وأني سمعتها مرة تحكي عن (إستر) التي كانت تعمل بقسم النوفوتية بمحل سمعان .

قالت لجدتي : إنها تركت دينها وأسلمت بعد أن تزوجت من جارها في السكن.

ـ مش إستر دي بنت حنه (البلانه) اللي كانت بتلف على بيوت اليهود كل يوم سبت . .

ـ أيوه هيه يا ماما.

ـ بنت جريس اللي بيشتغل تمرجي في المستشفي اليوناني.

ـ هيه هيه ياماما.

ـ مش غريبة عليهم . يعملوها ويعملوا أبوها كمان . ماهم ناس

أوساخ وملهمش مبدأ ، اوعي عمرك تبصي في وشها مرة تانية .

* * *

كنت لا أزال في الثامنة عشرة وخبرتي قليلة والموضوع نفسه حساس، فمع من أتكلم .. ومن يرشدني إلى هذا الشيخ .. الحاج محمود .. هو في مقام أبي لكني أخجل من الكلام معه . حسن .. خائب مثلي ، واكتشفت في هذه اللحظة أنه ليس لي أحد في هذه الدنيا لا خالة ولا عمة ولا صدر حنون ألوذ به . ولما أتت أم حسن في بالي انطلقت إليها مسرعاً.

توهج وجهها بالفرحة وعرت رأسها لأول مرة أمامي منذ أن كبرت ، وهي تدعو الله أن يكلل مسعاي بالنجاح . ومن شدة فرحتها قبلتني في رأسي ووجنتّي حتي يديّ انحنت تقبلهما وهى تقول بصوت لاهث ولمعة تطل من عينيها.

- مفيش غيره شيخ الزواية . نروح له سوا يا ابنى . استنى عليه بس لما ألبس.

وأخذت أنفاسها وأردفت :

- وإن مفلحش تروح الأزهر إنت وعمك الحاج محمود . تجيبوا واحد تاني وتالت ورابع لحد ما ربنا يكرمها .

- شيخ الزواية ! إني زاويه فيهم .

- يوه يا جلال . الزاوية اللي كنت إنت وحسن بتجروا وتروحوا لها أول يوم في رمضان تسمعوا الأذان وترجعوا لنا بالبشارة .

قطبت حاجباي متذكراً الشيخ خلف . الرجل الصالح الذي كان يصعد على سقف الزواية للأذان ، وعيوننا من أسفل ترنو إليه برهبة.

ـ قصدك الشيخ خلف .

ـ الشيخ خلف يا ابني كبر ومعدش بيطلع من البيت . وأهل الشارع راحوا جابوا واحد مطرحه من البساتين اسمه الشيخ سلموني أبو جاموس. آكل شارب نايم في الزواية.

قلت :

ـ طيب ..

توجهنا إلى الزاوية معاً ، وانتظرناه إلى أن خرج بعد صلاة العصر.

كان قصيراً وبديناً بشكل لافت ويقبض بيده اليمني على عصا غليظة أشبه برجل السرير ، أما لحيته فكانت كثة ومخضبة بالحناء . لم أرتح له من النظرة الأولي . ظللت أرمقه بامتعاض وهو يمضي أمامنا . كان أشبه بقاطرة تتحرك وليس بني آدم يمشي. ولا يكف عن السعال والبصق في الشارع.

دفعتني أم حسن لألحق به :

ـ أروح فين يا ماما وده ينفع ده . دا عامل زي الشوضلي .

ـ يا ابني حرام عليك . ومتخدش بالمظاهر .

ـ إنتي شايفه التعويره التي فوق حاجبه ولا الزقله اللي في ايده . دا باين عليه بتاع خناقات.

ـ وبعدين يا جلال . أنا غلطانه اللي جيت معاك . إنت هتنده عليه ولا أسيبك وأرجع.

اتجهت إليه واستوقفته . التفت إليّ متأففاً.

ـ عايز أيه ياوله.

باغتني بنبرة صوته الغليظة ولحقت بنا أم حسن . انتحينا به جانباً

وأخذت هي تحكي له حكاية أمي وهو ينصت ويهز رأسه . وعندما تدخلت موضحاً بعض التفاصيل الغائبة عنها زجرني قائلاً :

ـ احترم نفسك يا وله . ولما الكبار يتكلموا ، الصغار يحطوا لسانهم جوه بقهم ويسكتوا.

نظرت إليه ساخطاً وكدت أن أهم بتوبيخه لولاها . لكزتني في ركبتي كي أسكت.

بعد أن فرغت أم حسن من الحديث ، إلتفت إليّ :

ـ يللا يا وله . قول اللي عندك.

أشحت له بيدي رافضاً ، فقال وفتحتيّ أنفه تتسعان وشعيرات كالمسامير تطل منها :

ـ أحسن برضه . وكفايه المختصر المفيد اللي قالته خالتك.

ثم أزاح العمامة إلى الوراء وأخذ يلعق شاربه وهو يقول لها بالفصحي :

ـ لاتقلقي يا امرأة فأنا لها . أربطي العقدة في عنقي وتوكلي على الذي لا يغفل ولا ينام .

ـ بتقول أيه يا سيدنا .

تدخلت موضحاً :

ـ بيقولك إن الحكاية سهلة .

ـ سهلة . سهلة أيه يا وله . أنا قلت كده يا واد يا كداب إنت. وبعدين سهلة ولا صعبة دا شغلنا وانتوا لكوا النتيجة . دا أيه البلاوى دى على المسا .

أشحت بيدي في وجهه وقبل أن أنطق ، سبقتني أم حسن قائلة.

ـ بس خلي بالك يا سيدنا دي راسها ناشفة وزي الطوبة.

ـ طوبة مين يا حاجة . دا أنا أبو جاموس والأجر علي الله . ومش هتاخد في إيدي غلوة واحده .

ومشينا نحن الثلاثة .

كان يسير بالعرض ويصطدم بي دون أن يعتذر ، وأنا من جانبي كنت أتحاشاه قدر الإمكان . وتركتنا أم حسن مسرعة ، وهو يتابع مؤخرتها من الخلف فزغدته بضيق وأنا أقول له :

ـ جرى أيه يا سيدنا الشيخ . خليك هنا معايا.

توقف عند أول محل لعصير القصب وطلب (شوياً) ثم آخر وتجشأ مشيراً لي أن أدفع الحساب ، واقترح عليّ ألا يبدأ هذه المهمة إلا بعد تناول وجبة كبدة ساخنة فتأففت .

ـ عربية الكبده مش بعيدة يا وله . دي على ناصية الشارع.

ـ مفيش وقت . .

ـ وقت أيه وبتاع أيه . دي عاده وربنا مايقطعها . أصل أنا كل ما يجيني نفر في شغلانه أخده الأول على الحاتي وفيها كيلو كفته ليه أنا لوحدي . دا غير المشكل . كبدة على طرب على مخاصي علي حتتين سمان ودا طبعاً غير الحلو وعلبة سجاير مقفولة . دا كده يا أول يا هادي.أنا بوفر عليك وبقول كبده علشان صعبان عليه شكلك وانت عامل كده زى الأرزقية . إنت بتشتغل أيه ياوله . فران ولا بتقف بقدره فول فى الشارع . قول ياوله .. قول الصراحة..

همسة واحدة وكدت أصفعه على وجهه . واحترت في أمره وفي مصداقيته للمهمة التي انتدبناه لها ، لكن ما باليد حيلة سوف أكمل

المشوار حتي لا أخيب رجاء أم حسن فيّ.

غير أني رفضت اقتراحاته ، قلت له بحسم :

- لا كبده ولا دياولو يا شيخ حلموس . وهنطلع من هنا على البيت على طول.

- حلموس مين يا وله .. أنا اسمي الشيخ سلموني .. ومش كفايه إنك نتن ومبيهونش عليك المليم طلعت أطرش كمان . وبعدين بلاها الكبدة من وشك وإنت فقري كده وتقطع الخميرة من البيت.

ومشى حانقاً وعلى باب العمارة قبض على معصم يدي ، وهو يقول بنبرة قاطعة :

- قبل ما أطلع نتفق الأول .

- نتفق !! نتفق على أيه !

- على الحلاوة يا بطل . وهو إنت عايز تاكل حقي . عشرين جنيه . جنيه ينطح جنيه.

لم آخذ كلامه على محمل الجد ، وقلت :

- زي بعضه .

- وتدبحوا عجل ولا خروف سمين .

- حاضر .

- وأنا اللي أقف على الحلة وأفرق اللحمة .

- برضه حاضر يا شيخ سلموني .

- قول يا عم الشيخ سلموني . خليك مؤدب.

- حاضر يا عم الشيخ سلموني . تحب ألحنها لك كمان.

- إلزم حدودك يا وله . هو احنا بنهزر !

وكان صعودنا على السلم أول المشاكل.

إلتفت إليّ حانقاً :

- هو مفيش مصعد هنا ..

- بتقول أيه ..

- مصعد يا جاهل .. متعرفش يعني أيه مصعد .. رافعة تحمل الناس إلى أعلى .

- آه .. قصدك أسانسير .. مكنش ينعز يا سيدنا الشيخ .

واضطررت إلى تقديم المساعدات له ، وخاصة عند انحناءات السلم. كنت كمن يدفع برميل زيت أوكيس قطن مكبوس ، وهو يشجعني قائلاً.

- شد حيلك شد .. أيوه كده زق من عند بيت الكلاوي .

وعند البسطة الثانية استدار إليّ :

- هيه أمك اسمها أيه .

قلت وصبري يكاد ينفد .

- اسمها كاميليا.

- لا كاميليا ولا فامليا بعد النهارده .. بعد ما أخلص مأموريتي نسميها أم ديل على اسم أمي .. أيه رأيك يا وله ؟

أجبته والبصقة على لساني :

- مفيش مانع يا عم الشيخ سلموني .

وعلى باب الشقة أسرع قبلى وأخذ يدق علي الشراعة بشدة وبكلتا يديه .

- حيلك حيلك ياعم الشيخ زفت . فيه أصول . فيه ذوق . أنا اللي أخبط مش إنت وأنا اللي أدخل الأول مش جنابك . وكمان فيه جرس .

- دا تكتيك يا عبيط . لازم نخطفها خطف وندخل عليها نلخبطها زي ما المباحث ما بتكبس على الناس في البيوت .

ثم انتبه :

- وبعدين تعال هنا يا قليل الأدب ، إنت بتقول يا شيخ زفت ! أنا زفت ، دا أبوك ...

وكدنا أن نتشاجر بالأيدي وفتحت أمي الباب وانفتحت أبواب الشقق الأخري وعيال صغار تندفع منها تجاهنا ،وسمعت لهاث الحاج محمود وهو يصعد مسرعاً ووراءه عم إدريس مشوحاً بالعصا التي يخصصها لطرد قطط الشارع التي تتسلل إلى المنور.

صاحت أمي ووجهها أصفر كالليمونة .

- فيه أيه يا جلال . ومين الراجل ده . انطق يا ابني .

وأمسك به الحاج محمود من كم الجبة :

- بتعمل أيه هنا يا أبو جاموس .

والتفت إليّ :

- وإنت يا جلال ، مالك يا ابنى ومال الراجل ده ، ايه اللي لمك عليه.

فرد أبو جاموس :

- بعمل أيه ! هو أنا برمي جتتي يا حاج محمود . أنا جاني الواد ده ومعاه وليه منفوخه شحم ولحم وقد كيس القطن . استرجوني آجي هنا علشان أعمل اللازم مع الوليه الكافرة دي.

وأشار إلي أمي وهو يقول لي :

- مش هيه دي أمك برضه يا وله .. ضروري هيه دي اللي أنا جاي أنشلها من الضلال ..ومالك يا حرمه واقفه تتعوجي كده وبتتكلمي

بالعين والحاجب.

أمسكت برقبته وصاحت أمي :

ـ ضلال أيه وكفر أيه وبتعوج أيه يا راجل يا ناقص . شاهد يا حاج محمود ، مش عيب تقول كده وانت لابس عمه ودقنك متحنيه . إنت شيخ إنت . إنت صرمه قديمة.

وزغدتني في كتفي بأصابعها :

ـ كده برضه يا اللي ناقص ربابة ، دي عمله تعملها وتفضحنا وتلم علينا الناس كده ، على كل حال مش وقته وحسابنا مع بعض .

وتدخل الحاج محمود :

ـ حصل خير . حصل خير . وإنت يا أبو جاموس ربنا يهديك وامشي من سكات .

ـ أيوه تمشي من سكات وإلا ها ..

قالها عم إدريس وهو يتراجع عدة خطوات ملوحاً بعصاه ، ثم أردف :

ـ هنا عمارة محترم .. ناس أشراف . يللا روحي على بيتك يا أبو جاموس .. دي مفيش غير خمسة ولا ستة نفر هما اللي بيصلوا في الزاوية بعد إنتي ما طبيتي فيها . إنتي جايه هنا تعملي غاغة في العمارة بتاعي .

ـ بس يا راجل ياللي عامل زي عفريت العلبة إنت . وإنت يا حاج محمود أروح إزاي . أمشي كده من غير أبيض ولا أسود . دا العربون حتي ما أخدتوش .

ـ عربون !! عربون أيه هو إنت جاي في مقاوله . دا إنت جاي في عمل إنساني . خد ربع جنيه أهوه واتكل على الله .

وارتفع صوت أمي معاتبة الحاج محمود :

- عمل إنساني أيه يا حاج محمود .. ما يصحش كده .. اصحي لكلامك .

- مقصدش يا أم جلال . مقصدش والله . وبعدين والنبي تدخلي إنتي وتقفلي الباب وسيبيني أفض الدور بمعرفتي .

وبعد أن أنصرف أبو جاموس ، قال لي الحاج محمود :

- أيه ده يا جلال . هو فيه واحد عنده شوية عقل يروح يجيب شيخ ولا غيره علشان يهدي واحد تاني . الهداية من عند الله يا ابني . وبعدين أمك مش كافرة زي الراجل الناقص ده ما بيقول . أمك ست من أهل الكتاب. ست طيبة وأبوها راجل طيب وعشرة تيجي تلاتين سنة .. الله يخرب بيتك يا أبو جاموس.

ثم أمسك بيدي وهو يستطرد :

- إنت تعرف الوسخ ده كان أيه .. كان شيخ منصر .. أي والله !! كان تُربي ومعمول له خمسين محضر في قسم البساتين . قال أيه .. ينط على الحوش من دول ويسرق الرخام بتاعه . وأعوذ بالله أي تربه يلاقيها في وشه يفتحها وياخد العضم اللي فيها .. اشي رجل .. دراع .. أي حاجة .. ويبيعهم للتلامذه بتوع كلية الطب .. دا أنا سمعت والله أعلم إن التُربية هناك لما زهقوا منه لبدوا له السنة اللي فاتت وضربوه علقه كسروا فيها دراعه .. منهم لله اللي جابوه الزاوية عندنا .. ويا ريته ستر.. دا فيه إشاعه دايره في الحتة .. ولا أقولك أيه يا ابني ربنا حليم ستار .. وإن كان ديل الكلب عمره ما يتعدل .

وقبل أن أدخل إلى الشقة ، قال الحاج محمود :

- والنبي تعتذر للست الوالده علشان الكلمة اللي فلتت من لساني ، إنت عارف معزتكم عندي.

- محصلش حاجه يا عم الحاج ، ومعزتك محفوظة في قلوبنا.

- استني استني .. إلا بحق قولي يا ابنى مين هيه الست اللي كانت معاك وإنت رايح لأبو جاموس ، اللي بيقول عليها أد كيس القطن . ألا دا راجل فلاتي ومعندوش ضمير والواحد لازم يحرص منه .

- ست مين وبتاع مين دا بيجيب من دماغه ياعم محمود.

- آه .. على قولك . . ما أنا عارف إنه كداب الشيخ خرا ده.

ولم يمض هذا الأمر بيني وبين أمي مرور الكرام ، أسبوعان بأكملهما ونحن على خصام حتي صفا الجو.

* * *

(٢٦)

بعد أن هدأ الجو في البيت وعادت المياه إلى مجاريها بيني وبين أمي، قلت في نفسي « طيب ونادية .. هفضل ساكت لحد إمتي . حكاية التزويغ دي كل يوم بعد الحصة الخامسة والوقوف علي محطة الترماي مش جايبه نتيجه ولا لها أي مفعول ، ولا طيف نادية حتي عاد بيبان لا علي سلم ولا في الشارع وباب البلكونة مقفول ليل نهار ».

ليس أمامي خيار إلا التزويغ من أول النهار ، ومداهمتها في عقر دارها . في مدرسة العباسية الثانوية للبنات .

لازلت أذكر هذا اليوم .

كان يوم ثلاثاء . هببت من النوم مبكراً بلا نداء من أمي أو رنين منبه . جسدي أخف من الريشة وفي أذني أغنية عبد الحليم « أنا لك علي طول خليك ليه .. » ، حالاً على الحمام والمشط هنا وهناك والكولونيا بعد حلاقة الذقن والفانلة (المونتيجو) التي أرسلها جدي من باريس .

وعندما تأكدت أني تمام فتحت باب غرفتي وعيناي ترنوان بحذر نحو الغرفة الثانية التي تنام فيها أمي .. بابها مقفول والحمد لله . هس . هس . وهذا هو المطلوب ، فسحبت ترباس الشقة وفي ثوان كنت على السلم ومتجنباً بالطبع لمس الدرابزين المغبر حتى لا أفسد هندامي.

قبل أن أفرغ من السلم وأدخل في معمعة الشارع ، جاءني النداء

باسمي حاداً وعالياً . رجعت عدة درجات وأنا أرفع رأسي إلى أعلي باحثاً عن أمي.

كانت تقف بالروب على الباب . شعرها لا يزال منكوشاً وبيدها الحقيبة ولفة الساندوتشات.

قلت بصوت مشرق : صباح الخير يا ست الكل . لا داعي للحقيبة ـ فأنا ذاهب في رحلة مع المدرسة . لكن لا بأس من الساندوتشات ، وصعدت لآخذها.

التقتني بوجه عباس .

ـ رحلة أيه دي اللي جت علي غفلة .ما احنا سهرانين ليلة امبارح سوا في البلكونة . يعني لا اتكلمت ولا قلت . وبعدين دا أنا شايفاك وإنت بترتب كتبك في الشنطة قبل ما تنام ، تبقي رحلة أيه دي.

ـ يا ماما . دا أنا كنت بدور على كتاب الرياضة علشان أراجع فيه مسألة قبل ما أنام.

ـ مسألة !! وبعدين .

ـ نسيت أقولك يا ست ماما .. نسيت .. جل من لايسهو .. أعمل أيه في دماغي دي اللي مدياني الطرشة وشغاله في النسيان .. عربي أنسى .. كيميا أنسى .. إنجليزي أنسى ...لما شكلي بقي وحش قدام المدرسين . أنا محتاج أكشف عند حكيم يشوف أيه الحكاية دي..

ـ ولد .. لم الدور وبلاش استعباط . وقولي هنا رحلة أيه دي اللي إنت إن شاء الله رايحها.

أعرف تماماً أنها لن تكف عن حصاري حتي تصل إلي مرادها ، فبدأت في المناورة.

ـ إحنا يا ستي رايحين نزور الجوامع الإسلامية . الأزهر والحسين ومسجد السيدة زينب كمان . وإن كان فيه وقت حنروح السيدة نفيسة والإمام الشافعي . كله كله .

ـ كده !

ـ آه .

رمقتني بريبة دون أن تنطق بحرف ، وتركتني ودخلت.

قلت أتلكأ أمام باب العمارة لعلي أري نادية وهي خارجة ، لكني وضعت ذيلي في أسناني « وهات يا فكيك » عندما تطلعت ببصري إلى أعلي بحكم العادة لأجد مدام السبكي تستند على سور البلكونة وعيناها عليّ . طرت طيران من شارع إلى شارع حتي وصلت إلي محطة الترام .جلست على الدكة الخشبية للمحطة ألملم نفسي وأطرد الوساوس التي تحوم في بالي . أتي ترام والثاني وأنا أقول لنفسي « اقصر الشر يا جلال . اقصر الشر.أحسن تكون أمها واخده بالها وهتيجُي وراك تشوف أيه الحكاية».

وعندما جاء الترام الثالث وأطلق المحصل صافرة الانطلاق وجدت نفسي أتجه نحوه كما الريح ، وضربتين بالكوع وزُغد هنا وزُغد هناك حتي وجدت لي موطئ قدم على السلم مع شلة من عساكر الجيش ، وفي غمضة عين كنت على الرصيف المواجه للمدرسة.

ضجيج وحركة وأبواق وبنات في بنات بالمرايل الكحلي . الطويلة والقصيرة والتي تضع إيشاربا على شعرها والتي تتركه مسترسلا على أكتافها . من تأخذ الحياة على محمل الجد وتمشي مشية عسكرية ، والتي تضحك عمال على بطال . التي تأتي وحدها من شارع مجاور

والتي تصل بسيارة وسائق ، واللائي يلملمن أطراف الجونلات وهن ينزلن من الترام.

وعندما بدأ الطابور عبرت الشارع ،وأخذت موقعاً متميزاً أمام فتحة من فتحات السور الخشبي للمدرسة . كانت والله فتحة لا بأس بها ، وكنت أستطيع إدخال كل رأسي منها لو أردت . ووجدت إلى جواري واحد أكتع يرتدي بنطلون بيجامة وعليه قميص كاكي من مخلفات الجيش ، وامرأتين أظن أنهما كانتا من زوجات البوابين ، وولد كبير . كان واضحاً من الهباب الذي يملأ (العفريتة) التي يلبسها أنه صبي في ورشة ومتجه إلى عمله.

وقفنا كلنا نتابع الطابور..

الست الناظرة ـ ماشاء الله ـ هيبة وشياكه ونظارة بإطار مذهب وبشرة بيضاء بحمرة خفيفة وإستدارات محسوبة بالمسطرة . بدن فالت وممشوق كجسد صوفيا لورين بالضبط . كانت آتية من مكتبها وبدأت تتبختر أمام صفوف البنات كأنها وزير التربية والتعليم ، ووراءها بخطوتين مدرسة ببنطال أسود وفي يدها خيزرانة . جسمها مدكوك وكله عضل . أكيد مدرسة التربية الرياضية . وبمحاذاتها مدرس في حجم التمساح لهاثه لا ينقطع ، وفي يده كراسة يدون فيها الملاحظات .

تلتفت إليه الست الناظرة وهي تشير إلي إحدي البنات ، فيقول :

ـ عارفها يا هانم عارفها وريقي نشف معاها . قلتلها ميت مرة . بلغتهم كلام حضرتك بأن ديل الجونلة يوصل لحد نص الرجل.

ويتوقف فتستحثه بهزتين من رأسها . يعاود الكلام بصوت متقطع.

ـ حاضر . حاضر . بس آخد نفسي. أنا قلت وعملت اللي عليه ومعلياش

ذنب . أعمل أيه أنا بقي في البنات الملاعين اللي مبتسمعش الكلام.

- خلاص يا أستاذ لمعي . وما دام همه قلالات الأدب كده تتبعت جوابات النهارده لأولياء الأمور.

- حاضر يا هانم . حاضر .

- إنت عارف إن الكلام ده مش من عندي . دي تعليمات الوزارة . عايزاهم يلبسوا (شانيل) يعني فوق مشط الرجل بشبر . مش زي البنت المضروبة دي كمان اللي في الصف الثاني. دي زي ما تكون لابسه (ميكروجيب) . دي جايه مدرسة ولا رايحه فين .. وشايف البنت أم فيونكه كحلي على شعرها يا أستاذ لمعي . ولا اللي في آخر الصف .

- شايف يا هانم . شايف شايف.

وانطلق بصوته الجهوري موجهاً حديثه للبنات :

- سامعين وشايفين الست الناظرة زعلانه كده ليه . مش ياما حسي اتنبح في الحكاية دي . على كل حال الجوابات هترف النهارده على البيوت وكل واحدة بأه ذنبها على جنبها. من بكره اللي مش هتلبس عدل مش داخله من باب المدرسة.

انصرف الرجل الذي بجوارى وفي أثره الصبي ، لم تبق إلا المرأتان. سمعت إحداهما تقول للأخري.

- شوفي يا أختي الراجل طول بعرض كده ليه وعامل زي الفرخة قدام الوليه . والأكاده إنه مربي شنبه.

- أمال أيه إسأليني أنا .دي كمان رايقه النهارده . تعالي شوفيها لما تكون متزربنه وراكبها عفريت . بتبهدل الدنيا ويبقي الفلق ده واقف قدامها قاطع النفس . وليه جامدة .. قادرة !

ـ صلاة النبي دا احنا بقي معيز مش ستات . وتستجري يا أختي تعمل كده قدام جوزها ؟

ـ ومتعملش ليه الجامد جامد في أي مطرح . وعلي قولك يا أم بدوي عيني علينا . دا أنا لو اتأخرت دقيقة واحدة وأنا بعمل الشاي لزغلول جوزي كان يبهدلني . دا مرة الوسخ ده حدفني بباور الجاز . شوفي معلم كده ليه على كتفي .

عدت بعينيّ إلى أرض الطابور ، عندما بدأت المرأة تعري جانباً من كتفها لتريه لرفيقتها . كانت الست الناظرة قد فرغت من التفتيش ووقفت في منتصف الحوش تتابع باقي المراسم . وعلى جنب كان يوجد رهط من المدرسات . كلهن تقريباً من أحجام خالتي أم حسن ، ويبدو أنهن يتعاملن أيضاً مع الترزي البلدي الذي يحيك لها فساتينها . نفس الذوق وهي هي التفصيلة . الفستان مؤدب ومحترم وما شاء الله لايعرف لا لف ولا دوران ، ولايوجد به حتي زرار واحد (كبشة) والسلام من عند الرقبة ونازل حته واحدة كما الشوال حتي بز الرجل .

ظللت أتابعهن . كن حوالي سبعة أو ثمانية . كلهن ممتعضات كأنما طاقات الأمل أغلقت أمامهن والدنيا سواد في سواد . مدرستان فقط هما اللتان شذتا عنهن . انتحيتا ببعضهما وهات يا غمز ووشوشة علي الست الناظرة ، وعيناهما تجري عليها من أول الحذاء الإيطالي الذي في قدمها حتي شعرها الذي تصففه تصفيفة (فرح ديبا) . أما البنات ـ فوالله ـ عفاريت مثلنا يتغامزن ويخفين ضحكاتهن ، وواحدة تقرص الثانية فترد عليها بزغدة في مؤخرتها ، وبدأ ناعمة وخفيفة تخطف فيونكة شعرَ فتلقي من صاحبتها خبطة كوع في جنبها . ثم بدأت تحية

العلم « تحيا مصر.. تحيا مصر .. تحيا مصر » ، سمعت التحيه فانشرح قلبي وأحسست بأن الدنيا حلوة وكلها خير ولعنت الليثي وفؤاد ودرويش وخيري ، وبقية الشلة أصحاب الحناجر المخرومة من شرب المعسل .

دخلت البنات إلى الفصول ، وأنا إلى المقهي الذي على الميدان.
كان العمال قد فرغوا من فتح أبوابه وبدأوا في مسح الطاولات والمقاعد بالفوط الصفراء ورش الأرضية بالخراطيم حتي بدا المقهي نظيفاً ، وإن كانت رائحة عطن خفيف لاتزال تهب من داخله . عندما هممت بالدخول أشار لي أحدهم وهو يجفف العرق العالق بجبهته إلي مقعدين موضوعين (خلف خلاف) في صدارة المقهي، ففهمت أنها إشارة بأن المكان ليس جاهزاً بعد لاستقبال الزبائن . ولاحظت أن بجوارى جمع من كبار السن يثرثرون ، ويقبض كل منهم على جريدته تحت إبطه أو في يده . وثلاثة أو أربعة مثلهم يمشون جيئة وذهاباً أمامنا . وعندما فك أحد العمال عقدة المقعدين اندفع الجميع إلى الداخل ، ولكن بتؤده وفى صمت وواحداً إثر الآخر . اتجه كل واحد منهم إلى طاولته التي ألفها وبدأوا في الجلوس ، وطفق غيرهم ومن المسنين أيضاً في القدوم تباعاً من الخارج .

كان بادياً أن رواد الفترة الصباحية من أرباب المعاشات . والجرسونات يعرفونهم بالاسم ويأتون لهم بالطلبات من تلقاء أنفسهم . لهذا شاي بالحليب ، وللآخر جنزبيل ، والذي يجلس في الزاوية أشعل السيجارة فلابد من أن يأتوا له بالقهوة السادة في الحال .

ومضي الوقت وأنا لا أسمع إلا قلقلة المقاعد وخروشة الجرائد، وكان الجرسونات مؤدبين ومسالمين . لا يحدثون ضجيجاً أو يناكفون مع أحد أو

نسمع نداءاتهم العالية التي اشتهروا بها، كأنما هم ملائكة يجوسون في المقهي . كانوا والحق مختارين بعناية أو ربما أعطيت لهم تعليمات حازمة بالتزام الهدوء والتعامل برفق مع هذا النوع من الزبائن.

لم أمكث طويلا .

شعرت بالملل فقمت أتسكع في شوارع العباسية ، وفي ميعاد الخروج كنت على باب المدرسة وفي رأسي ألف عين إلى أن لمحتها وهي خارجة . نظرت بتلقائية إلى ذيل الجونلة . كانت (شانيل) كتعليمات الست الناظرة ، والهمسة التي بقت عارية من ساقها بدت ملفوفة لفة تدير العقل ولا يملك من يتأملها إلا أن يزفر من جوفه ويقول « سبحان الله » ، والبشرة .. صبغتها الشمس بسمرة يتخللها نمش خفيف .. والرأس مرفوع .. والأقدام تضرب الأرض بزهو كالمهرة التي لم يكبح جماحها خيال .

طغي عليّ لحظتها إحساس جارف بأن هذا الذي أتامله يخصني أنا.. أملكه وحدي . وأن نادية مني .. من أهل بيتي.. وأنا منها .. ولا أطيق أن ينشغل بها أحد في هذه الدنيا سواي، وألا يراها غيري إلا خطفاً أو لمجرد السلام..

عبرت الشارع وأنا وراءها . ركبت الترام فركبت معها . وعلى محطة سينما مصر وقفت برهة تتلفت حولها والتقت أعيننا . بدت كأنما لا تبالي بوجودي إلا أن عينيها قالت كلاماً آخر . وقبل أن تصل إلي شارع الخليج المصري بمسافة أسرعت حتي سرت بحذائها ، فرمقتني بنظرة خاطفة وأبطأت من خطواتها.

ـ إبعد أحسن حد يشوفنا .

لم أنطق . كنت مرتبكاً .

ـ بقولك إبعد . إبعد يا جلال . إنت اتجننت !

قلت بتوسل :

ـ دا أنا من الصبح واقف قدام مدرستك علشان الدقيقة دي.

ـ عارفه . عارفه وشايفاك من بدري . بس إبعد دلوقتي.

ـ دا أنا بقالي شهر بدور عليكي ونفسي أشوفك . وبستناكي كل يوم علي محطة الترماي.

ـ أصل أنا كنت عيانه . هيه تانت مقلتلكش .دي زارتني مرتين . وأنا قلت لما يعرف ضروري هيعمل أي حيلة علشان يطمن عليا.

ـ آه منها ماما دي . مقلتليش والله . وأنا لو أعرف كنت جيتلك على طول لابس بالطو أبيض والسماعة نازله على كتفي وعامل نفسي دكتور.

ـ يا سلام !

ـ وإنتي نايمه علي السرير وشعرك سايح على المخدة . تفتحي عنيكي تلاقيني واقف قدامك . وتقوليلي زي ما كانت ليلي مراد بتقول في الفيلم « ياطبيب القلب بقيت حبيب القلب ».

ـ وبعدين بأه يا جلال . وبعدين ..

لم نعبر شارع الخليج . استدرنا بشكل تلقائي وعدنا ثانية إلي شارع الجيش وظللنا صامتين برهة . مددت يدي لأحتوي كفها فسحبته وعيناها ترمقني بنظرة خجولة ، وفي المرة الثانية استكان كفها في يدي فأخذت أتحسسه وأضغط عليه ضغطات خفيفة . كان دافئاً وبدأت أصابعها تغوص في يدي الواحد تلو الآخر.

وأخذتنا دفقة الحب فلم ننتبه إلى عم إدريس الذي كان قادماً في

مواجهتنا يتوكأ على عصاه . رأيناه في نفس اللحظة وأظنه رآنا.
أحاطت نادية ذراعي بكفها وعيناها خائفتان ، وأصابني الارتباك أنا
الآخر ، ووقفت مشدوداً من المباغتة .
- شافنا ؟
- لأه مشفناش . دا رجل غلباوي ولو كان شافنا كان وقف واتكلم معانا.
- أنا بترعش كلي . دي كانت ماما تموتني .
وتركتني . أمسكت بيدها .
- لأه أنا ماشيه . هعدي الشارع وعلى البيت على طول . وإنت خليك
هنا . أوعي تيجي ورايا.
- طب هشوفك إمتي .
- بعدين . بعدين .
وأسرعت وعيناي تلاحقها حتى أخذها الشارع مني .
وبت ليلتي وسري في قلبي.

* * *

تكررت اللقاءات بيننا .

اتفقنا على أن أنتظرها علي محطة الترام كل يوم ثلاثاء الساعة الواحدة مساءً.

وقالت هي : إن تأخرت أنا انتظرني حتي الساعة الثانية ، أما إن تأخرت أنت فلن أبقي دقيقة واحدة .

قلت : حاضر ، وأنا ألف يديَ على يدها .

كنت آتى من المدرسة دائماً قبل الميعاد ، وأجلس على الدكة الخشبية وقلبي وعيناي يتطلعان بشغف إلى الترام القادم من ناحية العباسية وعندما أري مقدمته تلوح من بعيد ، أود لو أطير وألقاه في منتصف الطريق . وإذا حدث وتأخرت وحام في بالي أنها سوف تنفذ شرطها ،تكذب ظني وأجدها جالسة في انتظاري. الحقيبة بين أقدامها وفي يدها مجلة تقرأ فيها ، غالباً ما تكون مجلة (الكواكب).

ترفع رأسها فتراني أعبر الشارع ، تشير إليّ بأصابعها المضمومة كي أبطيء من سرعتي وأن أهدأ . أشعر بالخجل من نفسي وأقول لها ولهاثي يسبقني :

- آسف . آسف . أنا واخدها جري والله من المدرسة لحد هنا.

- دول كلهم عشر دقايق تأخير . اقعد . اقعد بس وخد نفسك.

وتبدأ هي بوضع كفها على يدي أو تمسح بمنديلها حبات العرق التي على جبهتي . أتأملها بعينّي وقلبي يزداد تعلقاً بها .

تبادرني قائلة :

- عامل أيه في المذاكرة .

- الحمد لله من ساعة لما بقيت أشوفك بقي حالي حال . باكل الكتب أكل. نفسي أجيب مجموع كبير . تمانين في المية ولا أكتر . آه لو أدخل كلية الطب.

- وهو انت مبتحبش الكليات العسكرية . الجيش يعني ولا الشرطة.

- إنتي عارفه إن الناس اللي زيي لا بيرضوا يدخلوهم الجيش ولا حتي الشرطة . الناس اللي أمهاتهم ...

ولم أكمل . أحسست بالحرج .

احتوتني بعينيها ، وأردفت أنا :

- أنا مش عارف ذنبي أيه ! ولا أنا أقل من أي واحد في أيه ! أنا مصري زيك وزي أي واحد ماشي في الشارع ويمكن أكتر كمان.

يبدو أن الأنفعال قد أخذني فارتفع صوتي قليلاً ، إذ قطع رجلان يقفان على مقربة منا حديثهما والتفتا نحونا ، وانتقلت إمرأة عجوز من الدكة المجاورة إلى حيث نجلس وهي تنظر إلينا وتقول :

- فيه أيه يا ولاد . زعلانين من بعض ولا أيه !

ردت عليها نادية بجفاء:

- مفيش حاجة يا ماما .. مفيش .. مفيش .

وأخذتني من يدي كي نترك المحطة والمرأة تلاحقنا قائلة :

- يوه . أنا بس بسأل . هو السؤال حرام . بنات الأيام دي معندهمش

طولة بال كده ليه . دا أنا في زماني ...

قلت بعد برهة صمت :

- إنتي عارفه إن بابا مات شهيد.

- عارفه .. وكل الشارع عارف..

- وأهل بابا في البلد . نفسي الظروف تسمح وتيجي معايا مرة وتشوفيهم .. دول أصل مصر .. دول اللي بيزرعوا الأرض ويأكلونا ويشربونا .

وأضفت وأنا أكثر انفعالاً :

- وجدي .. جدي لوالدتي .. آه لو شفتي حاله وهو مسافر.

- مصدقاك يا جلال .. تلاقي كان صعبان عليه البيت ساعه لما كان مسافر .

- صعبان عليه ! صعبان عليه دا أيه ! دا كان بيموت ! بيتقطع حتت.

قالت وفي عينيها تساؤل :

- طب وأيه اللي خلاه يسافر ويسيب مصر مادام مكنش عايز.

- منهم لله بأه . مقدرش عليهم . غلبوه . جدتي وخالي جبروه على السفر . العيله كلها اتكاترت عليه.

- طب الحمد لله إنهم مخدوكش معاهم .

- لو كانت جدتي تقدر كانت عملتها . أصل أنا كنت تحت وصاية عمي ساعتها ولسه لغاية دلوقتي . وهو مرضيش يوافق على سفري . ولا حتي إنهم يطلعوا ليّه جواز سفر من أصله . وتعرفي .

ثم تبسمت ، فرنا وجهها إليّ بابتسامة أكبر.

- أصل ماما قالتلي مرة إن عمي من خوفه ليأخدوني من وراه فضل

مراقب الشقة سنة بحالها . بعت شويه رجاله من البلد على الشارع . مرة يتمشوا رايحين جايين .أو يقفوا بالساعات قدام محل العصير بتاع المعلم حبيب . ومبطلوش قعاد على دكة عم إدريس ويفضلوا يقرروه عني. ولا اللي كانوا بيخبطوا علينا ويعملوا نفسهم تايهين وغلطانين في العنوان . دا مرة واحد خايب منهم خبط علينا مرتين في يوم واحد. في الأولانيه قال هو الأستاذ زناتي موجود . ماما قالت له لأه ومع السلامة وهيه طبعاً فاهمه . وفي التانية قال هو الأستاذ عوف ساكن هنا . ماما قالت له عيب عليك وإنت راجل كبير كده وشنبك قد مخرطة الملوخية وتبقي كداب وتقلق الناس في بيوتها . إنت عايز الاستاذ عوف . الأستاذ عوف قاعد جوه . وقعدت تنادي بصوت عالي .يا أستاذ عوف. قصدي يا جلال .. يا جلال .. ومسكتني من أيدي وقالت له الأستاذ عوف أهه . عايز منه أيه !! وقعدت ماما تضحك وتقولي إن الراجل اتخض ومعرفش يعمل أيه . وفي الآخر قال لها أنا مش قصدي عوف ده.. عوف اللي أنا بسأل عليه متجوز وعنده عيال . ونزل جري على السلم وماما من علي البسطة تقول له أوعي تطب هنا تاني يـا راجـل يا خايب إنت .. وقول للي باعتك ميصحش كده .

كنت أحكي لها وأنا أضحك وهي تبادلني الضحك.

- أيوه كده اتبسط وفرفش يا دكتور جلال .

تأملتها.

- أيوه أنا عايزاك تبقي دكتور . دكتور قد الدنيا وعندك عيادة كبيرة فى شارع الجيش ، وواحدة تانية في العباسية قدام مدرستي.

وانزلق لسانها :

ـ ويقولوا عليّه ...

ثم وضعت يدها على فمها وهي تنخفض برأسهامن شدة الكسوف .

أكملت أنا وعيناي تأكلانها أكلا :

ـ حرم الدكتور جلال .

قرصتني في يدي :

ـ عيب .. أحسن عم إدريس يسمعنا .

ـ لا دا انكشف من ساعة المرة اللي فاتت . عينيه شيش بيش وتلاقي كمان ودنه مفوته ومبيسمعش .

وأخذنا الحديث في الكلام عن عم إدريس .. عن طيبة قلبه ونوادره التي لا تنقطع ، وعن سعيد الابن البكري للحاج محمود الذي اشترى سيارة فيات قديمة من أحد أصحابه بشارع أحمد سعيد وأخذ يتباهى بها أمام العمارة ، وبعدها بأسبوع تبين أنه أخذ مقلباً والسيارة مسروقة.

ـ دا عم الحاج محمود كان هيتجنن ، ومن غيظه طلع من المحل بالمغرفة الحديد اللي بيكيل بها البضاعة وراسه وألف سيف ليفتح نافوخ ابنه سعيد.

ـ لا وأيه كمان .. دي ماما بتقول إن تانت أم حسن صوتت في وشه ورمته بكوز ميه كان في إيديها أول ما دخل عليها الشقة.

نظرت في ساعتها فعرفت أنها تود العودة . استوقفتها قائلاً:

ـ نادية . تفتكري مامتك توافق لو اتقدمت لخطبتك .

نظرت إليّ بدهشه :

ـ تخطبني ! دلوقتي ! طب أصبر شويه لغاية لما تدخل الجامعة.

انتابني الضيق مما قالت ، فسألتها جاداً:

ـ أنا بقول هتوافق .

ـ يعني .. مش متأكدة .

إزددت ضيقاً :

ـ أنا بتكلم جد .

أمسكت بيدي :

ـ طبعاً هتوافق . دا أنا بنتها الوحيدة وملهاش غيري ـ عمرها ما هتقف في وش سعادتي.

وأردفت وعلي وجهها ضحكة ماكرة :

ـ إنت مستعجل قوي كده ليه.

وانقطعت لقاءاتنا بعدها ثلاثة أسابيع . أذهب إلى المحطة كل يوم ثلاثاء ولا أراها . ربما تكون مريضة . ربما أمر آخر. ولم أعرف ما الذي أفعله . فكرت أن أسال أمي بطريق خفي ، أو أصعد بنفسي إليها ، أو يكون عم إدريس مرسالا بيننا .. لكني ترددت.

وفي يوم لقيتها مصادفة علي السلم . كانت صاعدة وأنا في طريقي إلى الشارع.

تلفتت حولها وبدا وجهها خائفاً وحزيناً.

ـ مالك . أنا قلقت عليكي.

ـ روح دلوقتي يا جلال .

اقتربت منها فرجعت إلى الوراء حتى كادت تلتصق بجدار السلم.

ـ بقولك روح . روح والنبي علشان خاطري.

ـ نادية . فيه أيه .

ـ مش عارفه ماما متغيره معايا ليه ومدققه عليّه في الخروج.. وزعيق علي أي حاجة .

ـ تفتكري لاحظت حاجة .

ـ مش عارفه .. اللي قالقني كمان إن خالي الشيخ محمد راح المدرسة وسأل عني .. دا عمره معملها قبل كده ..

ـ يمكن كل دا أوهام.

ـ مش عارفه .. ياريت ..

ولم أشعر إلا وهي بين أحضاني ، وأقبلها قبلات محمومة في خديها وعلى شفتيها . وهي تدفعني عنها دفعات خفيفة.

ـ كفاية . كفاية . إبعد يا مجنون . إبعد أحسن حد يشوفنا.

أفقنا على صياح عم إدريس.

ـ بس . بس . ياقطه يا قليلة الأدب .

كان أمامنا . وجهاً لوجه وأكيد رآنا . هبط قلب نادية ومن الخوف لم تعرف ما الذي تفعله .. اتكأت عليّ للحظة ، ثم تأملتني بنظرة خاطفة وصعدت بسرعة لتتركني وجها لوجه مع هذا الرجل السوسه .. لا أعرف من أين أتي .. أكان صاعداً أو نازلاً .. أم هبط علينا من أى سماء . كان عاري الرأس .. شعره كله « مفلفل » ومساحة على جنب في حجم ثمرة البلح صلعاء تماماً وليس بها شعرة واحدة وجلبابه الأبيض يتدلي إلى ما بعد ركبتيه بقليل وفي يده عصا.

قال وعيناه الماكرتان تجوسان في وجهي المصفر.

ـ قطة يا سي جلال قطة مجنني . سوده وديلها مقطوع . وكل يوم تتسحب وتقلب صفايح الزبالة بتاع السكان .

لم أنطق بحرف.

ـ شفتة يا سي جلال . أنا غلبت فيه . عايز أضربه واحد عصايه على

راسه علشان يحزم .. أمال .. يستاهل !

ـ لأه ياعم إدريس أنا لا شفت قطة ولا فار . ما انت شايفني نازل في أمان الله أشتري حاجة من تحت وبعدين إنت ماشي حافي كده ليه . مش خايف حاجة تدخل في رجلك وتعورك وإنت عضمة كبيرة .

ـ أمال .. أنا خالع المركوب من رجلي وطالع واحده واحده علشان أظبط القطة الملعونة دى .

تركتـه وهممت بالصعـود ثانية إلى الشقة . قلت في نفسي «قصر يا جلال في الكلام مع الراجل ده أحسن يعملك فضيحة».

إلا أنه نادي عليّ :

ـ إنتي راجعه ليه ياسي جلال . مش بتقولي رايحه تجيبي حاجة من تحت .

إلتفت إليه.

ـ والنبي تسيبني في حالي يا عم إدريس .

ودخلت إلي الشقة وتركته يصعد إلى أعلى ، وقلبي يخفق ويقول «ربنا يستر . دا لو عملها وقال لمدام السبكي يبقي خلص علينا ».

* * *

(٢٨)

لم أذهب إلي المدرسة في اليوم التالي .

مررت أولاً علي عم إدريس . أردت أن أسأله ، أفتح معه الكلام ، أفعل أي شيء كي أرتاح.

زوجته الست شوق هي التي كانت تجلس مكانه على الدكة، وأمامها صينية عليها كومة لا بأس بها من الأرز.

قالت وأصابعها لا تزال تروح وتجيء على الأرز.

- آهو عندك نايم جوه يا سي جلال .

- لسه نايم لحد دلوقتي !

رفعت رأسها نحوي وهي تنكت حبة أرز علقت بين أصابعها .

- وهيفضل على كده يا ابني لحد صلاة الضهر ويمكن أكتر كمان . أصل بعيد عنك عمك إدريس لما بينام محدش منا بيعرف هيصحي تاني إمتي . لا أنا ولا العيال . عايزه في حاجة مهمة وأنا أنده عليه وإنت وبختك .

أشرت لها بيدي بألا داعي . ووضعت الحقيبة إلى جوارها ولفة الساندوتشات ، وفرخ ورق مقوي ومعقود بأستك كنت قد رسمت عليه لوحة تعبيريه عن حرب أكتوبر نويت أن أدخل بها المسابقة التي أعلنت عنها مديرية التربية والتعليم . تركت لها هذه الأشياء ومشيت .

قلت أقف عند أحد النواصي القريبة لعلي أري نادية وهي خارجة فألحق بها ، وأعرف إن كان قد حدث شيء بعدما تركتني.

كنت مضطرباً وكأن قلبي مسحوباً مني ، وكلما رأيت أحداً ممن أعرفهم قادماً تجاهي كنت أتواري عنه في شارع جانبي . لم تكن بي طاقة للكلام مع أحد ، أو حتي أن أرفع يدي له مسلماً . ولم أكف عن سؤال نفسي عن إلذي حدث بالأمس .. كنت أهبط على السلم مصادفة وليس في بالي شيء .. حدث ذلك رغماً عني وعنها .. لماذا أزج بها .. أنا الذي بدأت .. أنا أصل الحكاية .. أولها وآخرها .. وأنا الذي عرضتها لنظرات عم إدريس .. لعنة الله عليه من رجل لا لزوم له .. ويلوح طيف نادية أمامي فأزداد ألماً..

طال انتظاري حتي انقضي ميعاد نزولها فعاودت المشي ، ولا تبارح خيالي اللحظة التي تشبثت فيها بي وقت أن فوجئنا بهذا الرجل .. ارتج جسدها من شد الخوف .. أحسست بيديها تضغطان على كتفي وعلى ذراعي من أعلى .. كانت تحتمي بي.. أخذت تحملق فيّ بعدها وهي ترجع بظهرها إلى الوراء وتستند إلى حافة الدرابزين .. وأنا كالأبلة لا أعرف ما الذي أفعله .. لن أنسى أبداً وجهها الذي تقلصت ملامحه .. ولا عيناها اللتان كادتا أن تتكلسا .. أو النظرة التي ألقتها عليّ بعدما صعدت بضع درجات على السلم .. لم أقو عليها فنزلت ببصري إلى الأرض .. ولم يدر بخاطري مطلقاً أن هذه هي آخر مرة أرها فيها .

مضيت من شارع إلى آخر حتي سمعت أذان الظهر .. لم أدخل مسجداً من قبل .. ولا انحنيت قط للصلاة إلا في المناسبات،أو إذا شجر خلاف بيني وبين أمي وأردت أن أريها أني لا أزال مسلماً .. خاطر

ألح عليّ بأن أصلي ..وعبرت الشارع بالفعل متجهاً إلى الزاوية التي ينبعث منها الأذان .. كان المؤذن واقفاً بالباب .. كفه مشدوداً ويدور برأسه إلى اليمين وإلى اليسار .. ينادي عليّ بأعلي صوته أن أقترب .. أن آتي .. لكني لم أفعل.. ظلت قدماي علي حالهما .. ثقيلتان وتسيران بغير هدي.

وبعد أن جبت أغلب شوارع حي الظاهر ووصلت إلى شارع رمسيس، عدت ثانية إلى البيت . لم تكن أمي موجودة لا في غرفتها أو في المطبخ فتمددت على السرير ، ومن شدة التعب غفوت غفوة هببت منها على صرير باب الشقة . كانت أمي . قمت إليها فسبقتني بالكلام ووجهها تعلوه الدهشة :

ـ أيه ده اللي إنت هببته على السلم.

قلت مرتبكاً :

ـ وهو انتي عرفتي.

ـ أيوه عرفت يا فالح والخبر شاع في العمارة كلها . والأهم من دا كله إن صاحبة الشأن عرفت.

خبطت بكفي على جبهتي وعدت ثانية إلى السرير ، وأنا أقول لها:

ـ مين ! مدام السبكي ! آه يا عم إدريس يا راجل يا خباص . أنا عارف من الأول إنك هتخربها.

نظرت إليّ باستغراب :

ـ إدريس مين ! إدريس بتاعنا . وهو راخر شافكم . يا دي الخيبة .

ـ أنا بحسب هو اللي قال .

ـ لأه يا فالح . الخدامة بتاعة أبو السعد أفندي هيه اللي شافتكم

من شراعة الباب . وعلى طول كان الخبر عند مدام السبكي.

ثم تأملتني وهي تدق بظفر إصبع الإبهام على شفتيها دقات خفيفة وعيناها سارحتان قليلاً :

ـ طب إداري يا وله . خدها وروح أى حته بعيده واعمل اللي إنت عايز تعمله . مش هنا يا أهبل علشان الناس تشوفك وتفضحك.

ـ أداري ! ماما إنتي فاهمه الحكاية غلط .

ـ والنبي !؟

رددت عليها بحنق :

ـ أيه الكلام ده اللي إنتى بتقوليه .. إنتي فاكراها أيه .. دي نادية يا ماما.. نادية المحترمة بنت الناس .

لم تبال بما أقول .

تركتني وخرجت من الغرفة لتعود بعد برهة وتجلس على السرير إلى جواري ، بعد أن وضعت كوب الشاي الذي كان في يدها علي منضدة قريبة.

ظللنا صامتين لعدة دقائق إلي أن قالت بنغمة لينة :

ـ أنا عارفه إن البنت حلوة ومدورة . ودلوقتي أنا بسألك بالهداوة إنت عايز تضيع وقت معاها وبس . يعني بوسه وفسحه وحاجات زي دي. ولا الحكاية بجد وبتفكر مثلا ترتبط بيها.

قلت وأنا أضرب بيدي علي السرير:

ـ تاني يا ماما . تاني.

وهببت واقفاً لأترك لها المكان ، إلا أنها أمسكت بي من ذراعي.

ـ بس قبل ما أقعد لازم تعرفي إني بحبها . بحبها . بحبها.

ثم أردفت بعد أن جففت حبة عرق تتسلل خلف أذني :

ـ واللي حصل ده عـايز أشوف له حل .أنا مكسوف من نفسي ومش عارف هقابل الناس بعد كده إزاي . تانت أم حسن ولا عم الحاج محمود . ولا . ولا . والأهم من دول كلهم مدام السبكي هشوفها بآني عين ..

قاطعتني بإشارة من يدها:

ـ طب بس خلينا خطوه خطوه . إنت عارف الأول أهلها مين.

ـ أعرف إن لها خال اسمه الشيخ محمد.

ـ أيوه عليك نور . وبيلبس عمه وكاكوله وبييجي يزور أخته مرة كل شهر. وأول ما يدخل من باب العمارة يفضل يقول يا ساتر يارب وعينه متترفعش من على الأرض طول ما هو طالع على السلم. وخالها التاني الشيخ مصطفي . جنبنا هنا . إمام جامع الشيخ الشعراني . وبيقولوا إنه ألعن منه . لا بيخلي أهل بيته يتكشفوا لا على رجاله ولا حتي على ستات . وأمها زي ما انت شايف الإيشارب علي راسها ليل ونهار ومبتعرفش تقول إلا قال الله وقال الرسول . تفتكر دول يوافقوا عليك . على واحد أمه يهودية . ويا ريت كده وبس جده وجدته وخلانه وخالته كلهم يهود ! تفتكر يا حبيبى !!

ـ جدي وجدتي . وأنا مالي بيهم . دول في دنيا وأنا دلوقتي في دنيا تانيه.

ـ عيب عليك يا جلال . دول اللي ربوك.

ـ عارف .. أنا بقول إنهم فاتونا خلاص .

ـ وأنا أيه وهما أيه . أنا أيه وجدك زكي أيه . إنت نسيته يا جلال ..
وأضافت بصوت بدا متحشرجاً:

ـ أنا لسه راجعه من عند مدام السبكي . ومش عايزه أسمعك الكلام اللي قالته . كلام عيب ومفيش واحده تقبله علي نفسها. مش عارفه دول مسلمين إزاي ولا شيوخ إزاي .ويبقولوا أهل الكتاب ومش أهل الكتاب . أهل الكتاب أيه بأه . نهايته يا ابني الست بتقول إنها لا عايزه شوشره على بنتها ولا سيرة تطلع عليها . إنما لو قربت منها تاني يبقي إنت ناوي على شر وساعتها هتقول لإخواتها على طول وهما يتصرفوا معاك.

ظللت ساكتاً وهي تتابع ما يدور على وجهي ، ثم قالت :

ـ دي كمان بتقول إنه بعد البنت ما تخلص من المدرسة هيعزلوا من هنا .

ـ يعزلوا !

سرحت بعينّي وهي لا تزال تقول :

ـ إنتوا شباب والكلام ده يا ابني بيحصل في كل حته . والبنت كويسه مقلناش حاجة . لكن حكاية الدين لزومها أيه . دي زي ما تكون بتعايرني.

بقيت على صمتي .

ـ نصيحتي لك يا ابني إنك تبعد عنها . أنا واحده ملياش حد ومش قد المشاكل . ولا حد يقولي صنفك أيه ولا ملتك أيه . أنا يا ابني اللي فيّه مكفيني.

أحسست بالدم يثور في عروقي ، ويضرب في رأسي كالنافورة .

ـ ومين ده اللي يعايرك ياماما .. طب هتشوف مدام السبكي ولا الشيخ محمد ده أيه اللي هيحصل بعدين .. إن مكنتش أتجوز نادية

غصب عنهم .. بس أنا أتخرج من الجامعة .

ـ لما تتخرج . وهو إنت فاكر إني هعيش لك هنا على طول .

لاح جدي بمخيلتي فقلت :

ـ أمال هتروحي فين . عند جدي.

ـ أيوه .. ورايحه على طول .

قلت بجزع :

ـ وتسيبيني !

ـ أسيبك إزاي . رجلك على رجلي . شد حيلك إنت بس وخد الثانوية واحنا علي باريس علي طول .

قلت وعيناي تتوهجان :

ـ باريس !

ـ أيوه باريس ، وكل حاجة مترتبة ، والوظيفة كمان مستنياك . هتشتغل مع خالك شمعون .مفاجأة مش كده .

سحبت مخدة السرير واضعاً إياها على حجري ، وعيناي تحملقان فيها وهي تكمل الكلام.

ـ لا وأيه . سوسو ابن الأستاذ شولح .

تتقلص تقاطيع وجهي قليلاً ، وتمتد رأسي همسة إلى الأمام.

ـ لا . دا واحد من قرايبنا متعرفوش .

ثم تكمل :

ـ كنت بقول أيه .. آه .. آه .. الواد سوسو كان عندي هنا من شهرين وبيقول إن راشيل كبرت واحلوت والفلوس بتجري في ايديها . تعرف بتشتغل أيه :

أزداد إنصاتاً ..

- مع السواح العرب . إنت عارف إنهم ميعرفوش يتكلموا فرنساوي . تاخدهم هيه بقي من المطار تفسحهم وتلف بيهم علي المحلات وتفضل معاهم لغاية لما ترجعهم المطار تاني . وبيطلع لها من الحكاية دي سبعة ولا تمن تلاف فرنك في الشهر . دا بالميت .

- وأنا بأه لو رحت أشتغل أيه مع راشيل ، ولا شيال زي خالي .

- بس إنت تنوي . وهتلاقي كل السكك متسهلة .

- لا يا ست ماما. يفتح الله . أنا مرتاح هنا .

قالت بعصبية :

- إنت فاكر إنك هتطول نادية دي طول عمرك . دا بعدك . شوف مصلحتك فين وتعالي معايا.

قلت بأسي :

- مش بس نادية . أنا حابب العيشة هنا . الشارع بتاعنا وعم إدريس ومحل العصير . والمدرسة والجامعة اللي هدخلها وشارع الجيش . أسيب دا كله وأروح بلد غريبة . لا ناس ولا صاحب وإن لقيت شغلانه تبقي بالكتير شيال ولا زبال ولا كناس في شارع.

بدا وجه أمي كئيباً.

- ماما مقدرش أعيش هناك . نروح زياره شهر . اتنين . تلاته . ونرجع . لكن على طول مستحيل.

- إتكلم عن نفسك لأني هستني هناك على طول . أنا عملت اللي عليه . اترملت عليك . وفارقت أهلي علشان خاطرك.

- بس يا ماما ..

- بس أيه . إنت عارف إن جدتك قعدت تزن على ودني علشان أسيبك عند أهل أبوك في البلد وأسافر معاهم .أنا اللي قلت لأه . مرضتش وقلت مسبش ابني لوحده وهربيه ولو حتي اشتغل خدامة في البيوت ولا أشحت عليه . وجدك كمان ياما اتخانق مع جدتك علشان كلامها ده .

- عارف

- وعارف كمان إن جدك سابلك ألف جنيه في دفتر التوفير . نص تحويشة عمره . سابهم من ورا جدتك علشان يساعدوا في تربيتك . ملوش حق عليك هو كمان.

تأملت وجهها .. وكان عقلي مشوشاً ولا أعرف ما الذي أقوله أو أفعله .

* * *

(٢٩)

قالوا الشيخ خلف مات ..

كنت جالساً في الصالة أراجع دروسي وفرغت للتو من حل أحد الامتحانات التجريبية في مادة الرياضيات ، ثم قارنتها بالإجابة النموذجية في كتاب (المرشد) فوجدت نفسي أستحق الدرجة النهائية .

تمطأت منتشياً واتجهت نحو الشرفة وأنا أقول لنفسي .. كلية الطب إن شاء الله ، ولسوف أفوز بنادية في النهاية رغماً عن أنف الشيخ محمد وكل الشيوخ الذين في الدنيا .

تطلعت من أعلي على الشارع ، فبدا لي مضطرباً بعض الشيء وليس كعادته .

عم الحاج محمود وبعد أن خطا عدة خطوات بعيداً عن المحل يعود ويلتفت منادياً بصوت متوتر على صبيانه كي يأتوه بالكوفية وعلبة السجائر من على البنك ، ويتحسس السيالة وجيب الصديري فلا يجد حافظة نقوده . يشيح بيده نحو الأرض متأففاً ويزعق على من بالمحل كي يبحثوا عنها هي الأخري في أحد الأدراج أو أسفل البنك ، ثم يتجه مسرعاً صوب العمارة حيث أبو السعد أفندي والكابتن فريد الساكن الجديد كانا في انتظاره . وألمح حسن وهو يمرق خارجاً من باب العمارة ، يسر شيئاً في أذن أبيه ويتطلع إلى أعلى فيراني . يشير لي بأن أنزل

ويدخل هو ثانية إلى العمارة . وعلى رصيف العمارة المقابلة كان يقف رجلان أو ثلاثة من السكان ومعهم عم محمد بائع الفول وما تزال مربوطة علي صدره مريلته التي اكتسحتها بقع الزيت والفول اكتساحاً ، ولم تبق فيها بوصة واحدة تخبرنا عن لونها الأصلي . انتظروا برهة حتي أتى لهم المعلم حبيب وشرعوا جميعاً في السير، وأقبل عليهم المعلم زينهم الجزار من الناحية المقابلة ومعه الحاج شلبي صاحب محمصة البن.

سأل أبو السعد أفندي الست شوق عن عم إدريس ، فأبلغته بأن الخبر جاءه بعد صلاة الفجر ومن وقتها لم تره.

قال لها بحده وهو يقلب كفه :

- يعني هو فين دلوقتي ؟

- يوه ! هيكون فين يعني ! راح الزاوية من ساعتها زيه زي الخلق .

- طيب ما تقولي كده من الأول .

واستدار إلى الواقفين . .

- كلمتهم في الشغل وأخذت أجازة عارضه لما البت ضحى الشغالة قالتلي وهيه راجعه من عند بتاع العيش .

رد عليه الحاج محمود:

- الله يرحمه . فين من سنين طويلة . عشنا احنا وأولادنا على أدانه. كنا بنستبشر بيه ونحب نصلي وراه .دي الزاوية كانت بتشغي ناس في صلاة العشا وخصوصاً في رمضان . وآه علي صلاة الفجر مع الشيخ خلف ! ولا صلاة التهجد ! كانت الناس بتنهنه وراه ومنهم اللي بيبكي بالدموع . كانت أيام حلوه وتتعاش يا كابتن فريد . والخلق جايه منين اللي من شارع الخليج . واللي من نواحينا هنا في الضاهر . واللي من

باب الشعرية . وعندك فوق لحد ميدان الجيش . أي والله !!
ويلتقط أنفاسه :
ـ وأيه ! الناس مش لاقيه حته تقعد فيها .. ويجيبوا حصيرة من هنا وحصيرة من هناك . وأفرش يا عم في الحته دي وفي الحته اللي هناك لحد ما الشارع يتقفل .
ويركز بصره على الكابتن فريد :
ـ وتعرف . الجامع اللي ورانا . جامع الأوقاف . كان بينش وتلاقي صفين تلاته واقفين ورا الإمام ودمتم . الناس المستعجلة هيه بس اللي بتصلي فيه . راجل ولي صحيح مش القحف اللي اسمه أبو جاموس .
يقاطعه أبو السعد أفندي :
ـ آه بحق هو فين الراجل العره ده . إلا ما عاد حد بيشوفه يتسنكح في الشارع رايح جاي زي الأول .
ـ آهو عندك متلقح في السجن . آل أيه ! واحدة بتاعة خضار. من اللي بيقعدوا دول على ألرصيف . غلبانه والغلب قاطع قلبها. فاكراه بني آدم بصحيح وهيصالح بنتها على جوزها . راحت له الخايبة . والمصيبه إنها عورة ووليه لا مؤاخذة كبيره في السن وشكلها يقرف الكلب . إنما هتعمل أيه في اللي ديله نجس . بقولكم أيه ربنا حليم ستار وآهو مرمي على البرش دلوقتي بياخد جزاءه . يللا بينا يللا يللا . الضهر وجب وزمانهم طالعين بالراجل .
وبدأوا في السير ، وسمعت أنا طرقاً على باب شقتنا . كان حسن.
ـ طبعاً جاي معاك . بس ثانية واحدة لحد ما أغير هدومي .
وقلت لأمي .. تلقت الخبر بكآبة أدهشتني :
ـ مين ! الشيخ خلف ! ربنا يسامحه . كان راجل صالح وقلبه كبير .

دا أنا عارفاه وياما شفته . تعرف إنه حضر كتب كتابي أنا وأبوك هنا في الشقة . وكان قاعد في الحته دي .

وأشارت إلى أحد المقاعد ثم أردفت :

ـ دا ياما جدك زكي شكر فيه . وكان يقول آدي الناس المسلمة صحيح . وتعرف إني ...

استعجلتها مشيراً إلى حسن الواقف بالباب .

ـ خلاص خلاص روح يا حبيبي . بس ما تتأخرش إنت عارف الامتحان بعد إسبوعين . دي الثانوية العامة يا جلال .

يبدو أن الخبر شاع في حي الظاهر بأكمله.

كانت الزاوية أشبه بخلية النحل والخلق من حولها أمم أمم ومن كل الأعمار . عيال وكبار وصبيان وبنات ، وكان الشارع مغلقاً من شدة الزحام . وعلى النواصي وفي مداخل الشوارع القريبة والحارات تصطف عربات نصف نقل وباص قديم وعربات أجره بعضها آت من الأرياف، وأخرتان ملاكي من طراز حديث تحمل إحداهن لوحة محافظة أسوان . والسائقون إما واقفين إلى جوار المركبات ، أو خلف عجلات القيادة في انتظار الانطلاق إلى المدافن بالناس .

كنت أنا وحسن على أول الشارع وتصادف أن وقفنا إلى جوار عدداً من الرجال ، بشرتهم سمراء ونحاف وجلاليبهم زاهية البياض . عرفناهم من العمامات التي على رؤوسهم . كانت كبيرة ومعقودة على غرار عمامة عم إدريس .

قلنا أكيد أنهم من النوبة مثله . والغريب أننا لم نسمع واحداً منهم ينطق بكلمة أو يهمس في أذن الآخر ، يعطون الموت حقه ويهابون جلال

الموقف . ظلت أياديهم معقودة أسفل صدورهم ، وبقوا كلهم صامتين.

لم نغامر أنا وحسن بالتقدم إلى الإمام . أحببنا الوقوف مع هؤلاء الناس الطيبين ، وإذا أخذت دفقة الناس واحد منا خطوتين أو ثلاثة إلى الإمام كان الآخر يشده إليه مخافة أن يضيع منه في الزحام.

وفجأة عم السكون ، ورأينا الجثمان يخرج من الزاوية.

وانجذبت أنا إلي الرجل الذى يحمل مقدمة المحفة من الأمام . كأني أعرفه . يا سبحان الله . إنه عم إدريس . خدعني البصر أول الأمر لما رأيته وقد شاخ في العمر مرة واحدة وبدا وكأنه في الثمانين. ربما من قلة النوم أو الإجهاد أو لعله الحزن وصفرة اللون عندما تكتسيان السمار ، فقد سمعت أنه لم يكن يفارق الشيخ وحتي بعدما لزم بيته كان يعوده بلا انقطاع . وحامت في بالي لحظتها الرهبة التي كانت تتغشانا أنا وحسن ، عندما كنا نري الشيخ خلف وهو يتأهب للأذان .

لم يدم السكون سوي لحظة واحدة وانطلقت زغرودة من إحدي الشرفات ، تلتها الزغاريد من كل مكان . ووجدنا مصاحف صغيرة وأيادي تشير نحو السماء وأصحابها بملء أفواههم يصيحون « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ... « لا إله إلا الله الشيخ خلف حبيب الله ».

كان حسن يتابع ما يجري باستغراق ، ويلكزني كل ثانية كي أنتبه لهذا أو أنظر إلى ما يفعله ذاك . وأنا لا أكاد أشعر به .. تأتيني كلماته مشوشة كأنها قادمة من بعيد .. من عالم آخر غير العالم الذي أنا فيه الآن .. وتخبو صور الناس في عيني .. تبدو كالظلال .. والأصوات .. لا أعي منها إلا كلمة لاإله إلا الله .. وكأن قدميّ قد خفتا وأطير في الهواء .. وأدخل دفعة واحدة في بكاء ونشيج ولا أكف عن الصياح

بأعلي صوتي « لاإله إلا الله محمد رسول الله » ، وحسن المصعوق لما أفعل يحيطني بذراعه ، ويرجوني أن أهدأ حتي لا أكون مضحكة للناس. وانشقت الأرض عن الحاج محمود . أخذني في أحضانه وأخذ يقرأ على رأسي الفاتحة وقصار السور وبعض الأذكار، فأستكين بين يديه برهة قليلة ثم ما تلبث أن تبدأ شهقاتي وأهم ثانية في البكاء.

أخذني هو وحسن إلى البيت . أذكر أني ظللت نائماً حتى منتصف الليل .. وعندما سمعت أذان الفجر نزلت إلى الجامع أصلي مع الناس .

* * *

(٣٠)

عزيزي جلال ..

أكتب لك هذا الخطاب صباح اليوم الذي نترك فيه البيت ، ومن أول الليل وأنا لا أعرف بأي وجه سوف تهل علينا شمس الصباح ولا كيف سوف أترك هذه الدنيا التي ولدت وتربيت فيها. غرفتي التي لا أذكر أني نمت مرة واحدة بعيداً عنها ، والشارع الذي لا أعرف سواه .

ظللت أتقلب طوال الليل في الفراش .. أتألم لفراقك .. وتارة أخري خوفاً من الحياة التي أنا مقدمة عليها .. ووجدت نفسي اتأسي على حالي وأدخل في نوبة بكاء .

واعلم يا حبيبي أنك من الآن سوف تكون بمأمن . سوف أخبئك في قلبي .. في أعمق مكان فيه .. وأغلق عليك .. ولن يعرف أحداً غيري بمكانك .. لا أمي ولا أمك ولا أحداً . قد يروني جالسة أطالع كتاباً . أو مستلقية على الفراش أتهيأ للنوم.. أو هنا أو هناك .. لكن لو كانت لهم قلوب لعرفوا أني لست وحدي .. وإنما معك .. أكلمك وتكلمني .

قد لا تصدق إذا قلت لك إنني لا أعرف عنوان السكن الجديد الذي نحن فى طريقنا إليه الآن ، فقد حرصت أمي سامحها الله على ألا تبوح به لأحد حتى لايتسرب إلى أهل العمارة ، فأخفته حتى عني .. وعن صديقتها الحميمة زوجة أبو السعد أفندى.

جلال ..

أنا يتيمة الأب كما تعلم وأهل أمي هم الذين تكفلوا بتربيتي والقرار قرارهم في كل شيء يتعلق بي . ويبدو أن أمي تسرعت وأخبرتهم بالذي بيننا ، وها أنا أجني ثمار ما فعلت . والأدهي من ذلك أنها قالت لي من يومين أن خالي الشيخ مصطفي كلمها في أمر خطبتي لابنه الكبير الضابط بالجيش ، وقبل أن أنطق بكلمة قالت لي إنني لو أكثرت في الجدال لن يكتفوا فقط بنقلنا من السكن القديم ، وإنما سوف يخرجوني من المدرسة وأجلس معها في البيت .

والذي أود أن تعرفه أيضاً أن هذا الحال الذي انتهينا إليه جاء على هوى تانت كاميليا . هذا ما فهمته من أمي .

اهتم بنفسك وبدروسك يا جلال ..

وأستحلفك بالله ألا تمني نفسك بشيء تستكثره علينا الظروف والأيام .. لأنك لو أقدمت على شيء ولو كان حتى مجرد السؤال عن عنواني فسوف توقع بي ، فما زال لأمي عيون في العمارة تنقل لها الأخبار .

نادية

٧ يونيو ١٩٧٤،

كنت عائدا من صلاة الظهر فوجدت الست شوق في انتظاري أمام باب العمارة . تلفتت حولها وقالت : إن معها أمانة لي.

- أمانة !!

- أيوه . جواب من الست نادية .

رفعت بصري إلي أعلى صوب شرفتها.

ـ بتبص على أيه يا ابني مفيش حد فوق . دول عزلوا خلاص . مشيوا من امبارح الضهر .

ـ عزلوا ! سابوا البيت خلاص ! نهائي نهائي !

ـ إنت لسه بتبص فوق .. يا دي الخيبة .. يا ابني خليك معايا !

وأخرجت الخطاب من صدرها وسلمته لي .

ـ أوعى يا سي جلال يقع في إيد حد كده ولا كده . إوعي . دا يبقي فيها خراب بيوت . وبالخصوص الست والدتك .

ـ بتقولي أيه ..

ـ أيوه الست والدتك . دي وصية نادية . وقالتلي إنها كانت عايزة تقولك كده في الجواب بس انكسفت.

وعندما صعدت إلى الشقة وجدت أمي جالسة على الأرض في غرفتها ، وإلى جوارها حقيبتان من الخشب حجمها كبير وكل واحدة منهما مبطنة بصدغ من الحديد ، وفي المنتصف من أعلى (رزه) بمسامير كالتي تستخدم في غلق الأبواب وقفل يزيد وزنه عن ربع كيلو . الحقيبتان اللتان كانتا أسفل سرير جدي ولا أذكر منذ أن وعيت على الدنيا أنهما تحركتا بوصة واحدة من مكانهما ، وكان الدولاب مفتوحاً على آخره ومحتوياته متناثرة في كل مكان . بلوزات .. وفساتين .. وشماعات .. ومفارش وبلاطي قديمة .. وأرواب وقمصان نوم .. وزجاجات عطر فارغة أو بالكاد فيها نقطة أو نقطتين .. وشباشب بيتي وخروج بعضها مقلوب على وجهه .

رفعت رأسها نحوي متبسمة ، وعيناها تلمعان من أعلى النظارة المتدلية على أنفها .

ـ إنت فين يا جلال . مش كنت تقف معايا وأنا بعمل بروفة للحاجات اللي هناخدها معانا . كنت فين واتأخرت كده ليه . مش قلتلي دقيقة وراجع.

ـ كنت في الجامع .

قالت وهي تهرش بأظافرها في صدغها :

ـ آه . . الجامع .. طيب ماكنت تقفل أوضتك عليك وتصلي فيها .. ولا ضروري يعني حكاية الجامع دى .

لم أجبها ، وظلت عيناي على الهدوم والكراكيب التي تملأ الغرفة .

ـ تعرف يا جلال ولا حاجة من كل ده هتنفع . هبقي زي اللي جايه من الفلاحين . يمكن آخد معايا بس الفستانين دول . والكام جزمة وشوية الغيارات دي .

وأشارت إلى كومة من الملابس ، وعلب للأحذية مرصوصة فوق بعضها بجوار السرير.

ـ آه .. والباقي أشحته .. أشحته لمين .. لمين . . أشحته دا أيه .. واد يا جلال إلا هو عمك يونس بتاع الروبابيكيا لسه بييجي زي زمان وأنا أبيعهم له .

ونظرت إليّ مكملة الكلام ..

ـ طب وطربوش جدك ده أعمل فيه أيه . دا مزيت وميساويش نكله ولا هينفعك بحاجة هناك يا عم زكي . ولا حتي هنا . دا لا يتباع ولا يتشرى .

وحدقت فيّ غاضبة :

ـ وله .. مالك واقف ساكت ومطرشم كده ليه !

ثم أخذت تقلب طربوش جدي في يدها وكأنها تتكلم معه :

ـ وإنت يا عم زكي كلها شهر بالكتير وأكون عندك . إلا قولي إنت بتلبس أيه على راسك دلوقتي .. تلاقيك بتلبس برنيطة وبقيت خواجه.. وإنتي يا ست ماما عامله أيه دلوقتي...

لم أسمع بقية الكلام . تركتها وعدت إلى غرفتي وتمددت على السرير.

* * *

كانت أعجوبة من الأعاجيب التي تستحق الإدراج في موسوعة جينيس ، أن يحصل طالب في فصل ثالثة عاشر على سبعة وثمانين في المائة في امتحان الثانوية العامة . وحدث يجب أن تتناقله وسائل الإعلام ، كما قال الأستاذ مرقص معاون المدرسة.

كان الرجل يمسك بكشف الدرجات في يده ، ويتفحصني من أول الفرق الذي في شعري حتى ربطة الحذاء . يدقق في الكشف ثانية ، ويعاود التأمل فيّ من أعلي نظارة القراءة وحدقتا عيناه تتسعان من الدهشة ، وكأنما شيئاً يقول له إنه في حلم وليس في علم . معذور - ورب الكعبة - فأنا الآخر مثله ولم أستوعب بعد هذا الذي حدث.

يحدث جلبة وهو يقوم من على كرسيه ويمد يده مسلماً.

- واد يا جلال يخرب بيتك . أيه ده اللي إنت عملته . الأول ! وعلى المنطقة كمان ! أنا بقالي تلاتين سنة في المدرسة دي ومشفتش كده . الأول على المنطقة من مدرستنا . دي حكاية لوحدها . ومنين !! من تالتة عاشر !! دي بأه اللي تفوت في النافوخ وتخلص عليه . من تالتة عاشر !!

وينظر ناحية الأستاذ سُمعه ، الذي كان جالساً على مقعد يطل منه على حوش المدرسة.

ـ ولا أيه رأيك يا أستـاذ سُمـعـه .. مش والنبي الحكاية دي تنفع حدوته تتحكي للعيـال في الليل زي حدوتة الشاطر حسن والزير سالم وأبو رجل مسلوخه .

يتأملني الأستاذ سُمعه ، وعيناه تقولان أنه يفتش عن صاحب هذه السحنة في الجانب غير السار من مخزون ذكرياته .

وأتحول أنا إلى الأستاذ مرقص مستفسراً !

ـ والباقيين يا أستاذ عملوا أيه ؟

ـ باقيين ! هو عاد فيه باقيين يا ابني . كله على الشارع . ولا واحد نجح طبعاً.

ـ والليثي كمان ؟

ـ ليثي ! ليثي مين .. وهو الوسخ ده بتاع علم .. آل أيه جاي من الصبح بدري يسأل على النتيجة .. تعرف جاي بأيه .. النطع ده لابس جلابية بلدي وعلى رأسه لاسه وماسك في إيده خرزانه.. يكونش احنا هنا سوق خضار ولا شادر سمك .. تعرف جاب كام..

تطلعت إليه ..

ـ جاب تسعة فى المية فى المجموع الكلى ، وفى الكيميا والطبيعة والرياضة . صفر . صفر . صفر . قلت له سبع سنين يا ليثي في الثانوية العـامـة .روح شوف لك حتـه بعيد عننا . إنت لا ينفـع لك تعليم ولا مدارس. دا حتي حكاية المدرسة دى بقت مش لايقه عليك ولا تناسب سنك . دا يا ابنى مدرس الرياضة اللي اتعين عندنا السنة اللي فاتت من دورك . إنتوا الاتنين مواليد سنة واحدة .

واستدعانى حضرة الناظر إلى مكتبه .

شد على يدي بحرارة وهو يقول : إني رفعت رأسه ورأس المدرسة عالياً بعدما يأس من فصل ثالثة عاشر ووضع يده في الشق .

واحتضنني الأستاذ البصراطي ، ثم التفت إلى حضرة الناظر :

ـ دا فصل ملعون يا سعادة البيه . دا كان الواحد ناقص يرخص بندقية آلي ويعلقها على كتفه وهو داخل من باب الفصل ويضرب له عيارين تلاتة في الهوا على سبيل التهديد قبل ما يشرح الدرس . إنما الولد ده ..

وأشار إليّ .

ـ ولد محترم . وأنا طول عمري اتنبأ له بمستقبل زاهر . مش بعيد يبقي زي الدكتور مشرفة ولا الدكتور أنور المفتي . أما من حيث الأخلاق . ذوق ومؤدب ومطيع . حاجة تفرح .

هز حضرة الناظر رأسه طرباً ، فاستمر الأستاذ البصراطي .

ـ دا تربيتي . وكنت كده زي أبوه الروحي . أقوله شد حيلك يا جلال يقولي حاضر . عايزك ترفع راس حضرة الناظر في الامتحان يقولي حاضر . وعلى كده على طول . حاضر حاضر .

ويلتفت إليّ :

ـ مش كده يا جلال .

قلت :

ـ طبعاً يا سيادة الرائد العام .. ربنا يخليك لينا .

وفي البيت استقبلتني أم حسن بالزغاريد على سلم العمارة ، وصعدت إلينا بدسته شربات ورد وثلاثة أقماع كبيرة من السكر . وأرسل المعلم حبيب صندوقين إسباتس وكوكا كولا . وأتي الحاج محمود

وأبو السعد أفندي والكابتن فريد وباقي سكان العمارة مع زوجاتهم وأولادهم ، ودارت الست شوق بأكواب الشربات. وكلما همت بإلقاء زغرودة ، كان الجالسون يسارعون بحماية رؤوسهم مخافة أن تقع عليهم صينية الأكواب التي ترتعش في يدها الثانية . مسكينة ! باءت محاولاتها بالفشل .. وكانت الزغرودة إما أن تنحاش في زورها وإن خرجت تبدو كمواء قط عجوز حنجرته معطوبة .

وفي المساء أخذني حسن إلى سينما مصر .

شاهدنا فيلم (أطول يوم في التاريخ) ثم فيلم (الخطايا) ، ظللت أتابع عبدالحليم حافظ وهو حائر ضائع ، وتبدو لي نادية لطفي وكأنها نادية حبيبتي ..

وعندما تمددت على الفراش في آخر اليوم حام طيف جدي لأبي في خيالي ، وحال بيني وبين النوم . لم أكن قد تذكرته من أشهر وربما سنة بطولها ، أحاول الإفلات منه فيستمر في الإلحاح.. أفكر في شيء آخر.. أضع مخدة على رأسي ولا جدوي .. وهببت فجأة من النوم على أذان الفجر .. يبدو أني غفوت غفوة قصيرة ، وأكاد أجزم أنه جائني في المنام.. هي العمامة .. ونفس العصا التي يتوكأ عليها .. وهو هو الوجه إلا أنه أكثر شباباً .

* * *

(٣٢)

- اسمع يا جلال أنا لحد كده عملت اللي عليّه . خلفتك وربيتك واتحملت كتير علشانك . ودلوقتي عايزاك تريحني .

كانت هذه هي أول الكلمات التي نطقت بها أمي ، ونحن نتناول الإفطار في اليوم التالي .

تسارعت دقات قلبي ، وقلت في نفسي « أكيد هتفتح موضوع السفر . استر يارب » .

نحيت كوب الشاي جانباً وأنا أنظر إليها خلسة .. عيناها شاخصتان نحوي وتقاطيع وجهها متوترة قليلاً ، فعرفت أنها شحذت كل طاقتها ومعركة من النوع الثقيل تلوح في الأفق إن لم أتجاوب معها .. قلت أراوغ.

نظرت إليها وعلى شفتي ابتسامة كاذبة .. لم تعبأ ..وبدا وجهها وكأنما ينتظر مني رداً على الفور .

قلت :

- صباح الخير يا ست ماما . أيه رأيك نتفسح النهارده بمناسبة نجاحي. نروح الهرم . هرم أيه الدنيا حر . نروح جنينة الحيوانات.

- ولد .. أنا مش فايقه وبتكلم جد .

- نشوف الحمار المخطط يا ماما .. ونلاعب القرود أو نركب الفيل أبو زلومه.

صاحت في وجهي ..

ـ بطل الكلام الخايب ده واسمعني كويس . أنا خلاص ناوية على السفر . أروح أشوف ماما وبابا . ألحق أقعد معاهم لحسن حد يجراله حاجة منهم وأفضل ندمانه العمر كله .

ـ طب نأجل الكلام في الحكاية دي لبعدين .

ـ لا بعدين ولا قبلين .. وكلامي دا نهائي .

ـ يا ماما .

ـ لا ماما ولا بابا .. إنت خلاص كبرت وريني كده هتصرف أمورك إزاي.

توترت أنا الآخر وقلت بضجر .

ـ وأيه المطلوب مني ؟

ـ نصفي حاجتنا هنا . الشقة نشوف هنسيبها لمين وهناخد فيها خلو رجل كام . واللي لك في ورث أبوك . تروح لعمك تحايله تخانقه أي حاجة المهم تشوف اللي لك وتاخده .

إسمعي يا ماما أنا بالعربي كده مقدرش أسيب هنا . معرفش أعيش هناك .. أموت .. أفطس .

ردت بأسي :

ـ تفطس !!

ومضت برهة طويلة تحاشا كلا منا النظر فيها إلي الآخر .

لم يكن يُسمع إلا صوت الرشفة أو الرشفتين اللتين تناولتهما أمي من كوب الشاي ، وتطاير أوراق النتيجة الورقية المعلقة على الحائط بفعل نسمة هواء هبت علينا ، وكانت الحركة في الخارج هادئة على غير العادة، والشارع ساكت لا يأتي منه صوت .

ـ طب تعال وجرب .. تعال وصل ماما .. تعال شوف جدك . ولا

كتير علينا دا يا سي جلال .. كتير على ماما اللي علشانك مشافتش يوم حلو في دنيتها ولا جدك الراجل الغلبان اللي نفسه يشوفك.

- ماما ..

- ماما أيه بأه!

قالتها على نحو حرك قلبي .

- بس حكاية نصفى حاجتنا دي .. إزاي نسيب شقتنا دي .. أمال لما أرجع هنا هقعد فين .. وبعدين أنا لسه ما بلغتش سن الرشد ومش هقدر آخد حاجتي وأرضي من عمي دلوقتي .. لسه فين ! سنتين ولا تلاتة على الأقل .

- يعني هتيجي معايا ؟

- آجي بس أرجع آخر الصيف .

- خلاص ...

- وترجعي معايا .

ردت بانفعال :

- بتقول أيه ! أرجع ! . أرجع دا أيه دا أنا بحسب السنين سنة بسنة. والأيام ساعة بساعة . أرجع لمين .. للست شوق وأم حسن والكام جاره اللي عايزين الحرق .. دا أنا مبنمش الليل .. ليلي طويل ونهاري ليلي.. اسكت اسكت .

- ومالها أم حسن يا ماما ؟

- أم حسن دا أيه . أنا عايزه ناس تانيه . عايزه أهلي . ناسي . أعيش بينهم وأروح وآجي معاهم .

- ياماما مش كده . إنتي فاهمه الدنيا غلط .

- غلط ! خلي الصح لك إنت يا جلال .
ظللت ساكتاً وهي تكمل كلامها :
- تروح لعمك وتحاسبه . تشوف أيه اللي لك . واللي تعرف تجيبه منه هاته .
- حاضر . .
- تروح بعد يوم ولا اتنين .
- حاضر . .
- يعني على آخر الاسبوع تكون رجعت وجبت الفلوس معاك .
- حاضر .

* * *

بدت البلدة من بعيد ، عندما انحرف بنا الباص ناحية اليسار ثم عبر الترعة .

شجر الكافور . ومدخنة وابور الطحين . وبيوت من طابق وطابقين أنشئت حديثاً على أطراف الحقول . وحوائط من الطوب الأحمر وسقوف وأعمدة من الحديد المسلح في وسط الزرع ، تبرز منها أسياخ نالها الصدأ ومربوط بأطرافها خرق من الخيش تتطاير في الهواء . ورجل سبق الجميع وفتح دكان بقالة في الخلاء ، مركون بجوار بابه برميل زيت يلطخ السواد حافته وبرميل أكبر له صنبور وفي أعلاه طست صغير به فوارغ من كل المقاسات.

وكنت أرى الحمير على طول السكة الزراعية وهي تنوء بأحمال الذرة، ومع ذلك كانت تزفر برضا وبين الحين والحين ترفع رؤوسها وتنظر بألفة إلى الزرائب والشون التي تلوح مع البيوت من بعيد . وتسرع في خطاها ، كأنما تطمح في أن تريح ظهورها بعد هذا المشوار الطويل وتحظي بشربة ماء أو تستلقي في الظل كسائر خلق الله .

ومن نافذة الباص طفقت أتابع الفلاحين الذين يملأون الحقول.

كانوا بملابس العمل . الفانلات ذات الأكمام الطويلة والسراويل . وأسمع الصخب الذي يحدثونه والنداءات . وألمح الذين يجلسون منهم

في دوائر حول براد كبير للشاي مدسوس بين جمرات النار ، والذين يتمددون في ظل شجرة أو بين أعواد الغاب وأبدانهم المتعبة راحت في سبات عميق . والبنات اللائي كن يحملن كيزان الذرة في حجورهن ويلقون بها في أكوام وضحكاتهن ترن في السماء.

كنا في أول الحصاد والفرح مولود لتوه ، وريحه تسري في كل مكان.

، وعندما بدأ الباص يبطيء من سيره ، اقترب مني المحصل .

قال وهو يريح كف يده على حافة المقعد الذي أجلس عليه :

ـ أظن الأستاذ قاطع لحد المنصورية.

هززت رأسي بالإيجاب ، فطلب مني أن أتجهز.

نزلت .

تلفت حولي ببطء وبشيء من الثقة كي لا أبدو غريباً أو أثير أي فضول ، وإن كنت في الحقيقة مشدوداً وكأن رجفة تسري في بدني . شتان ما بين هذه المرة والمرة السابقة . كنت في الأولي وثاباً وعيناي ملهوفتان على أي شيء تراه .

الحال الآن غير الحال. والحمد لله أن بيني وبين عمي إبراهيم مرسال والعلاقة من بعيد لبعيد .. ترى سوف يعرفني بعد أن صرت في طول جدي ، وأصبح لي ذقن خشنة وطلعة كطلعة الرجال ؟ وما هي الهيئة التي يبدو عليها العم الآن ؟

ظللت واقفاً أتطلع حولي ، إلى أن لفت نظري مقهي صغير على بعد ياردات من الطريق فاتجهت إليه.

ليس مقهي كالمقاهى التي في شارعنا . مجرد عشة كبيرة يحيط بها

سياج قصير من الغاب المضفور ، وجزء منها مسقوف بلوحين من الأبلكاش والباقي بالخيش وأعواد الجريد . والسقف كله يرتكز على أربعة جذوع من النخيل . لم تكن متساوية الطول. الجذعان الأماميان هما الأقل طولاً ، ولذا بدا السقف مائلاً ناحية الواجهة وكأنما على وشك السقوط .

أما المقاعد الخشبية فكانت من طراز فريد . استحالة أن تكون خرجت من ورشة ، أو ساهم في صنعها نجار ولو كان حتى جديداً في الكار . صاحب المقهى هو الذي صنعها بيده .أكيد هو هذا الرجل السمين المتكوم على البنك الذي في أول المقهى ، وعشر ذبابات على الأقل تلهو على شال عمته . مقعد بخمسة قوائم وآخر بثلاثة ومقعد بمسند مخلوع . والغريب أنها ترتفع عن الأرض ارتفاعاً غير مسبوق في عالم النجارة ، ولو جازف أحد وجلس على أي منها مرة واحدة وبلا حذر أو أية إحتياطات لكان هو المقصر في حق نفسه والمسئول عما يجري له .

وطاولات قصيرة كأنما أعدت لزبائن قصار القامة ، ويفضل لو كانوا أقزاماً . والرعشة والتزييق إذا لمستها ولو بحنان ناهيك عن المسامير التي تطل برؤوسها في كل مكان ولو لم تضع عينيك في رأسك لصار أي ثوب ترتديه (ضبة ومفتاح) في الحال.

آثرت ألا أجلس في الواجهة ، توقياً للغبار الآتي من جرارات الحرث والدواب التي تعبر الطريق . اتجهت صوب الجانب الأيمن المحاذي لبوابة وابور الطحين . تخيرت مقعداً أتسلى منه برؤية الداخلين والخارجين من البوابة وكانت الريح تهب خفيفاً ، فأتاني غباراً من نوع آخر وفعمتني رائحته . رائحة الدقيق . وكنت أرى ذراته وهي تسبح في أشعة الشمس

المتسللة من بين أعواد الغاب، وأتابعها وهي تدور حول نفسها دورات متعاقبة إلى الأسفل لتستقر أخيراً على بنطالي وخاصة في موضع الركبتين.

وتذكرت الميزان القباني الذي كان موجوداً بجوار البوابة ، غير أني لم أجده.

يبدو أنهم وضعوه في مكان آخر خلف الوابور . إذ كنت أرى النسوة اللائي يحملن قفف الحب متجهات صوب الحائط الغربي للوابور ، ليظهرن بعدها من الجانب الآخر ويمرقن من البوابة وفي يد كل واحدة منهن الورقة المسجل عليها مقدار الوزن والمبلغ المدفوع . أما الحمير المحملة بالأجولة فكانت لها سكة أخرى ذات التواءات وتفضى في النهاية إلى الوابور من الخلف حيث الميزان.

وانداح بصري نحو المدخنة .

لم تعد عالية ، جاورها بيتان من ثلاثة طوابق لا يزالا تحت الإنشاء ، ودهنوا الوابور كله بلون أزرق فاقع ، فبدا كعجوز يقول إنه ابن اليوم والناس لاتعطي لقوله إعتباراً . والمساحة الواسعة التي كانت تربض فيها الحمير ضاقت . أقاموا فيها أربعة دكاكين تطل على الطريق .

لم يعد الوابور مهيباً مثلما رأيته وأنا صغير .

ورغم أني أطلت النظر فيه هذه المرة ، إلا أنه كلما ورد على خاطري لا أتذكر إلا الحال الذي كان عليها يوم أن رأيته وأنا صغير .

لم يطل بي المقام في المقهي . غادرته ومشيت نحو بيت جدي. قادتني الذاكرة من شارع إلى آخر . كنت متوتراً بالطبع وأعمل ألف حساب للسحنة التي سوف يلقاني بها العم ، إلا أنه شيئاً فشيئاً بدأت

تومض أشياءً لم أكن أحسب أنها لا تزال في بالي .. وكأن قلبي يألف لهـا وتخف ضرباته .. وبدا لي الأمـر وكـأن البيـوت تتطلع إليّ بعد غيـاب .. والرجل الآتي في مواجهتي الآن كأنه أحد صاحبي جدي اللذان أتيا إليه وجلسا يسامرانه على الحصيرة وأنا موجود .. والمرأة العجوز التي تقعي على عتبة بيتها في الظل النحيل للجدار .. وجهها يقول إنه الخالق الناطق وجه جدتي .. وهذه الدكاكين .. وهنا .. في هذا المكان .. عند هذا المنعطف بالتمام رأيت رجلا بصديري وقميص طويل من الدمور وجلبابه مطوياً على كتفه . شاهدنا أنا وأمي فهرع إلينا وظل يدفع الأولاد عنا بعود من الحطب إلتقطه من الأرض وهم يتقافزون أمامه . وأمام هذا البيت صادفتنا المرأة ذات الشعر المنكوش والحزام التيل الذي تلف به خاصرتها. أخافتني نظراتها فأمسكت بيد أمي مستنجداً ، فشددت قبضتها على يدي وفي عينيها خوفاً أكثر مما بي.

لم أكن أحسب أن كل هذا محفور في رأسي ، وأن الأمر ليس كما ظننت مجرد مشوار عمل وتسوية حسابات . وعندما وصلت إلى مفرق لعدة حارات ، سألت فقالوا : إن البيت القديم لم يعد موجوداً . هدموه بعد أن مات جدي ، وأشاروا إلى بناية من الطوب الأحمر القاتم والحديد المسلح أقيمت مكانه . ورأيت أولاداً كباراً يقفون أمام بوابتها التي صفحوها بالحديد الأسود ، وركبوا عليها قضباناً ملتوية لها سنون كسنون الحراب . وكان ولداً منهم يعبث في مقبضها الفولاذي الذي أتخذ هيئة رأس أسد منكوش الشعر ويكشر عن أنيابه.

وقفت على مقربة منهم وخفقان دافق يلاحق صدري .. وقلبي يهيم في البوابة القديمة .. البوابة الخشبية التي دلفت منها خلف جدي أول يوم

جئت فيه .. والجدار الغربي .. والدهليز .. وغرفة الخزين التي كنا ننام فيها أنا وأمي .. حتي شجرتا التوت ليستا موجودتين .. اقتلعهما أصحاب البيت الجديد وأقاموا مكانهما صفاً من أشجار الزينة التي تنبت أزهاراً حمراء .

تريثت برهة لأضبط مشاعري ، ثم أقبلت على الأولاد الذين يرمقوني بدهشة ويتهامسون . عرفتهم من أكون . لم يبدو عليهم أي انفعـال . لا بالخير أو بالشر . سلموا عليّ بتحفظ كما يسلمون على عابر سبيل ، وقادني أكبرهم إلي غرفة فسيحة . أجلسني وخرج دون أن يحكم إغلاق الباب فظل موارباً.

كانت الغرفة طويلة وأقرب لأن تكون مضيفة لاستقبال الغرباء وليس للاستعمال الدارج لأهل البيت ، ومليئة بكنب بلدى تعلوه بياضات لها لون أخضر زرعي وفي الزواية ثلاثة أرائك مذهبة أمامها منضدة عليها دفاتر وأوراق . وكان بمواجهتي ثلاثة شبابيك ذات مقاسات كبيرة تطل على الشارع.

لفت نظري أن الأولاد الذين لقيتهم على الباب قد اتخذوا أماكن يرمقوني منها جيداً ، وأنهم يزدادون . بلغوا عشرة في حين لم يكونوا سوى أربعة لحظة دخولي . أحببت أن أناورهم فانتقلت إلى الناحية المقابلة . جلست وظهرى للحائط ورأسي ويداي وباقى أجزائي مختبئة بين ضلفتي شباكين . وانكمشت تماماً مضيعاً عليهم أي منفذ لمراقبتي اللهم إلا إذا ابتدعوا حيلة جديدة، وهم في هذا - والحق - لايبارون . وكانت المفاجأة أن أري صورة جدي معلقة على الجدار المقابل لي . لم أرها من قبل .. لعلها الرهبة التي أخذتني عندما دخلت .. فم جدي كان

مزموماً وتقطيبة تعلو جبهته ، ورغم ذلك بدت قسمات وجهه طيبة ورخية..

وشاع الخبر في البيت..

أحسست بحركة خفيفة وهمهمات وعيون تتطلع من فتحة الباب الموارب . أولاد وبنات يتزاحمون على الفتحة ، ومن تدافعهم كانت تنفرج منهم لكن يداً كانت تسرع بشكل تلقائي وتعيدها إلى حالها الأول للمحافظة على الوضع الصحيح الذى يفصل بيني وبينهم حيث يرونى ولا أراهم .

وبعد برهة سمعت صوتاً أنثوياً يهش هذا الجمع ويدفع الباب، وتدخل فتاة شعرها ملموم بمنديل أبيض به خطوط حمراء. قدمت لي الشاي في كوب من الحجم الكبير . سألتها عن الأكواب الصغيرة والشاي ذى الرائحة النفاذة الذي كنت أشربه مع جدي . لم تجب . مددت يدي لها مسلماً ، فسلمت عليّ دون أن تغطي يدها بكم الجلباب كما يفعل أهل الريف عندما يسلمون على رجل غريب . ولما سألتها عن اسمها قالت : ليلي . وأسرعت خارجة تتعثر في خطواتها .. أظنها كانت أختي ..

وأتي إمام .

دخل على عجل ووجهه يتألق بضحكة كبيرة .

- سي جلال . أهلا . أهلا . أهلا .

وأخذني بالأحضان .

لم أره من سنين طويلة . جف وجهه وضمر واستغربت أكثر من اللحية التي رباها في منطقة الذقن حتى التحمت بشاربه ، والشعر الذي برز من حواف الطاقية صار أشيباً ومجعداً وأشبه بقطن التنجيد . وبان عليه

الهزال . أحسست بذلك لما احتضنته . شعرت بأنه ضئيل في يدي وأني قادر على حمله .

سألته عن جدتي . قال : إنها ماتت من سنة أو يزيد ، واندهش من أني لا أعرف ذلك . وأردف بأنه جاء لأمي في اليوم الثالث لوفاة جدتي خلسة من وراء عمي إبراهيم ، وطلب منها إبلاغي وأن نأتي معاً للعزاء فيكفي إنها قصرت في عزاء جدي . وسألها بعدها أكثر من مرة فقالت: إنى مريضة ولا أقدر على السفر إلى الأرياف ، وأن ابني مشغول بالمذاكرة الآن وعندما تنتهي الامتحانات سوف نحضر للعزاء .

والتفت إليّ وهو يزيح طاقيته للخلف كاشفاً عن جبهته المبللة بالعرق، مسحها بمنديل كان في حجره وقال وعيناه تبرقان بعلامة استنكار: ألم تبلغك ؟

صمت .

ربت على يدي وقال بصوت هامس : إن جاءت السيرة مع عمك فلا تقل أنك تعرف أو أني أبلغتكم ..

وصفق عمي إبراهيم الباب ودخل ونظرة معتمة تلوح في عينيه . بدا أطول وأعرض مني بكثير ، وبعينيه اليسري حول خفيف يبدو أني لم ألحظه عندما كنت صغيراً ، وازداد مهابة لما استبدل الطاقية بالعمامة .

قال قبل أن يجلس :

ـ مش كان واجب عليك يا جلال تعزي في الحاجة الكبيرة . مش هيه برضه جدتك . طب ساعة لما مات جدك كنت صغير ومعلكش حساب .

وسكت برهة ، ثم أردف والضيق على وجهه :

ـ إنما دلوقتي .. أقول أيه .. عاق ومفيكش خير .

انعقد لساني ، وأسرع إمام قائلاً :

- وهو كـان يعرف منين يا سي إبراهيم ! الغلط غلطي أنا . أنا اللي كان مفروض أروح وأبلغه بنفسي ..

هز رأسه هازئاً ، وحل علينا صمت قاتم لا تخدشه إلا السعلات المتبادلة ورشفات أكواب الشاي .. وكان كل شيء في الغرفة ينظر إلينا مثلما ننظر إليه .. الأرائك والكنب والحيطان .. وبدا الصمت ذاته كالكلام له صوت وطنين ثقيل على الآذان.

قلت بعد برهة سأم طويلة :

- أنا ناوي أسافر مع والدتي وكنت محتاج موافقة حضرتك.

- موافقتي ! موافقتي على أيه ! على السفر والغيبة والبعاد ولا على أنك تطلع جواز سفر زي ما بتقول الحكومة .

باغتني فتطلعت إليه مرتبكاً ..

أردف وعيناه تحدقان في وجهي ..

- مش إنت برضه لسه قاصر ومحتاج لموافقتي قدام بتوع الجوازات . هو ده اللي إنت عايزه ولا جاي تسلم علينا وتستأذن مني .. مش أنا برضه في مقام والدك الله يرحمه ..

وتدخل إمام فأشاح له العم بيده كي يسكت .

قلت متلعثماً :

- هو ده اللي أنا أقصده .

- تقصد آني واحده فيهم .

إزداد ارتباكي ..

- هوه فيه فرق بينهم يا عمي .

ـ أيوه فيه فرق ..وكل واحدة لها حسابها وتمنها ..

قلت في نفسي إنه يناور ، وأكيد يود الاستفادة من الوضع الذي أنا فيه .

فنظرت إليه بنصف عين .

ـ مش فاهم يا عمي .. حساب وتمن إزاي .

تأملني ثم قال .

ـ اسمع يا ابني .. إذا كنت عايز موافقتي على جواز السفر تتنازل عن اللي ليك عندنا . مبقولش تتنازل كده ببلاش يعني ناخده بيع وشرا ومع السلامة بعد كده . ترجع من بره ماترجعش إنت حر . وكل حي في حاله .وإن كنت جاي تزور تربة أبوك وجدك وجدتك وتترحم عليهم . وتقعد معانا يوم واتنين وتلاته . وبدال ما تقعد معايا دلوقتي لوحدك تيجي عماتك وأختك ليلى وكلنا نقعد مع بعض ، وآخر قعدتنا تستأذن مني في السفر والغيبة وعلى شرط إنك ترجع تاني وميضحكوش عليك بره . كده أقولك أرضك محفوظة . ومش كده وبس واسمك محفوظ في قلوبنا ، وكل الفلوس اللي إنت عايزها علشان السفر لك ولوالدتك وأكتر منها كمان جاهزه.

هب إمام .

ـ براوه عليك يا سي إبراهيم ..

وانسابت دموعي وأنا أقول :

ـ معاك حق يا عمي .

وقام واقفاً واحتضنني ، فوجدت نفسي أبكي على كتفه ..

ولم يجل بخاطري أبداً وأنا أهم بركوب الباص عائداً ، أن هذه هي

آخر مرة أري فيها البلدة .. غير أني وبعد حين عاودت التفكير فيما قاله عمي ، ولا أعرف لماذا ثار هاجس في نفسي بأنه غير صادق وبود أن أذهب مع أمي ولا أعود .

أختي ليلى هي التي ران قلبي إليها .. ولا زلت أذكر قولها بأنها كانت تعد الأيام لتراني ، وأن صورتي وهيكلي هما اللذان سوف يلوحان أمامها كلما جاء أبي في خاطرها ..

* * *

(٣٤)

حطت بنا الطائرة في مطار (أورلي) .

ووطأت أقدامنا الأنبوب الطويل الذي يصل بين باب الطائرة وأرض المطار ، والحال بين الركاب ما بين فرحة على الوجوه وثرثرة وضحك أو تعليقات ساخرة على وجبة الغذاء التي تناولناها في الجو قبل قليل ، وعلى طاقم الضيافة وخاصة الرجل القصير أبو شارب مثل شارب هتلر .

كان وحق الله أعجوبة في شكله وفعله . لم يستجب هذا (الزلنطحي) ولا مرة لنداءات الركاب . طلب منه أحدهم كوباً من الشاي، وناشدته امرأة أن يأتي لها بقرص مُسكن لأن رأسها تكاد تنفجر، وراكب آخر توسم فيه الخير وطلب منه جريدة الأهرام. قال للجميع . حاضر. حاضر . حاضر ، ثم اختفي عن الأنظار . وعندما طال الوقت قام أحدهم مغتاظاً لتحري الأمر ، فوجده مسترخياً على مقعد في مؤخرة الطائرة (وهات يا نوم) ومخدة صغيرة موضوعة على رأسه حتى لا يوقظه الضجيج أو يقلقه أحد. ولما أيقظه الراكب معاتباً هب غاضباً وشمر عن ساعديه استعداداً للدخول معه في خناقة ، وكان الراكب هو الآخر رجلا لا يستهان به ومن النوع الذي يضرب بالرأس . ولولا لطف الله وتدخل أولاد الحلال لتطور الأمر ، ولوجدنا الآن سيارة الإسعاف في انتظارنا على ممر الهبوط .

كنا نسير أنا وأمي في ذيل الناس ، ملهيان بأنفسنا ونعمل ألف حساب لما يمكن أن يحدث لنا لو لم نجد أحداً في انتظارنا على باب المطار . ولم يكف قلبينا عن الدق وجلا من هذه الدنيا التي نحن مقبلان عليها .

وفي نهاية الأنبوب توقفنا فجأة .

لا أعرف لماذا ؟ ربما لأن رجلاً كان يسير أمامنا انتحي جانباً وتوقف ليشعل سيجارته ففعلنا مثله . والغريب أنه مضى إلى حال سبيله ، إلا أننا استمرينا واقفين حتى أغلقوا باب الطائرة وبدأ طاقم الضيافة في الانصراف وفي مقدمتهم أبو شارب . وعندما طال بنا الوقوف واختلط بنا ركاب طائرات أخرى أخذنا أنا وأمي نتلفت إلى بعضنا ولا ندري ما الذي نفعله ، وأحسست بكف يدها بارداً وهو يلتف حول رسغ يدي فربت عليها مطمئناً . قلت في نفسي.. أنا الرجل ولابد أن أتصرف وآخذ زمام المبادرة، وتصادف أن لمحت جمعاً من المسافرين ممن كانوا معنا على الطائرة يقفون عن بعد ويدققون النظر في إحدي اللوحات المعلقة على جدار أحد الممرات .

أخذت بيد أمي وأسرعت تجاههم وأنا ماأزال أحاكي نفسي وأقول ، لاخيار لي سوي السير خلفهم فهم من قومنا ولن يضيعونا .

كانوا ثلاثة رجال لا يكفون عن الضحك بصوت عال أو الكلام المصحوب بإشارات اليد ، ومعهم إمرأةً مسنة وأخري يافعة تحمل طفلاً صغيراً يتململ على صدرها وكانت مشدوهة مثلنا بما تراه من إعلانات براقة عن سجائر الكنت والجلواز والجيتان أو أصناف الخمور والعطور ، وبفتيات شقراوات كن يمرقن عكس اتجاهنا وهن يثرثرن بكلمات سريعة

ذات إيقاع ونغم .

قلت في نفسي .. هذه إذن اللغة الفرنسية ، وتبسمت على اللغة المضحكة التي كنا نتعلمها على يد الأستاذ تادرس . وكنا نرى رجال الشرطة بقاماتهم الفارعة وملابسهم الزرقاء الداكنة وقبعاتهم المستطيلة، التي طالما رأيتها عندما شاهدت فيلم (إيرما لادوس) لشيرلي ماكلين نجمة هوليود وفيلم (جميلة أبو حريد) للفنانة ماجدة .

ائتنسنا بهذه الصحبة التي من طرف واحد ، وأومأت لأمي كي نستمر في السير خلف هؤلاء المصريين الذي يبدو أنهم محنكين في الأسفار وقلوبهم ليست في أرجلهم مثلنا . فكانوا إذا سلكوا أحد الاتجاهات نسلكها معهم ، وإذا توقفوا فجأة وعادوا من حيث أتوا فأيضاً وراءهم . أما إن توقفوا لشراء شيء أو لمساندة المرأة الصغيرة عندما يتلوي منها الطفل ويصرخ عالياً، فكنا ننزوي على مقربة منهم ونظل نتطلع إليهم حتى يفرغوا ويعاودوا السير فنقتفي أثرهم . وبعد جولة من المشي الممتع وجدنا أنفسنا قبالة موظف الجوازات ، ثم السير الكهربائي حيث قمنا بأخذ حقائبنا التي كانت - وبحق - تحفة بين الحقائب وأكيد ذكرت الناس حولنا بموديلات الحقائب في منتصف الأربعينات .

ترتب على انشغالنا بمسألة الحقائب أن ضاعت منا الصحبة التي كنا نسير خلفها . انتابني الارتباك وأنا أتلفت بحثا عنهم كي نمضي وراءهم كالمعتاد .. ولا فائدة .. ضاعوا منا .. تلاشوا ..

أحسست ببعض المرارة وكأني تعرضت لخديعة ، وأنه كان من الواجب عليهم انتظارنا . وأخذنا طوفان الناس فوجدنا أنفسنا نتجه معهم صوب الباب الزجاجي للمطار ونخرج أنا وأمي.

لفحتنا لسعة برد خفيفة رغم أننا لانزال في أواخر الصيف ، ووقفنا ننظر إلى بعضنا وقد أسلمنا أمرنا لله إلى أن انشقت الأرض عن غادة حسناء ترتدي بنطلون جينز وبلوزة شفافة وشعر متهدل.

وقفت تحملق فينا وعلى وجهها ابتسامة عريضة :

- تانت ! تانت كاميليا مش عارفاني ولا أيه . أنا راشيل ! راشيل ! راشيل !

- مين . راشيل !

وارتمتا في أحضان بعضهما تتبادلان القبل وكلمات الاشتياق ودمعهما ينساب .

- وبتتكلمي عربي كمان . كنت فاكراكي نسيتيه .

- أنساه إزاي يا تانت . دا احنا كلامنا مع بعضنا على طول بالعربي.

والتفتت نحوي .

- جلال !!

واحتضنتني وقبلة هنا وقبلة هناك ، ولم أتوان أنا الآخر عن معاملتها بالمثل ما دامت هذه هي عادة أهل باريس .

اصطحبتنا في سيارة رينو اسبور . عرفنا أنها تملكها . وأنها تعيش الآن وحدها في غرفة كبيرة بمنافعها حمام ومطبخ صغير ومدخل خاص في شارع (سان ميشيل) بالحي اللاتيني ، بعدما ملت من العيش مع أمها وأبيها اللذين يقطنان في حي (بلفيل) المليء بالمهاجرين والفقراء.

سألتها أمي عن جدي وجدتي فقالت إنهما شاخا لكن لا يزالا قادران علي الحركة والخروج وقضاء طلباتهما بنفسيهما ، وهما يسكنان بحى(بارباس) وهو حي فقير ويمتليء بالمهاجرين هو الآخر خاصة الأفارقة

وأبناء المغرب العربي .

- ولسه بابا بيشتغل ؟

- شغل آيه يا تانت ! دا ساب الشغل بقاله سنتين .

- وعايش إزاي !

- لأ دا من الناحية دي هو مرتاح . أنا بديله ألف فرنك في الشهر وبياخد كمان ألفين مساعدة من الضمان الاجتماعي بتاع البطالة. دا بقي غير اللي بيبعته خالي إيزاك.

- إيزاك !

نطقت أمي اسم خالي بوجد شديد وأردفت وعيناها سارحتان :

- وإزيه دلوقتي . عامل أيه . بتشوفوه .

- طبعاً يا تانت طبعاً . دا بييجي يزورنا مرة كل سنة . والفلوس جريت في ايده بعد ما فتح سوبر ماركت كبير في حيفا.

أخرجت أمي منديلاً صغيراً من حقيبتها تجفف به دمعه أفلتت من عينيها ، وهي تقول بصوت ملتاع :

- كده برضه يا إيزاك . سنين وسنين . آه يا وحش .. آه..

- وإنتي كمان واحشانا يا تانت وعمالين نعدلك بالأيام ونقول إمتى هتيجي .. وإمتي القرد ده هياخد الثانوية العامة .

واستدارت ضاحكة إلى المقعد الخلفي حيث أجلس ، وأنا أنظر إلى الشقاوة التي تطل من عينيها وشعرها المتطاير بفعل الهواء الآتي من النافذة .

قالت أمي وعلى وجهها ابتسامة رضا ، وإن كانت عيناها لا تزال تلوح فيها نذر البكاء :

- نفسي أشوفه يا راشيل !

- يا خسارة دا لسه راجع إسرائيل بقاله أسبوع .فضل قاعد شهر بحاله في شقة جدي هوه وحنه مراته وبنته إستر .

هزت أمي رأسها بأسي ، فأردفت راشيل :

- الأيام جايه يا تانت وياما هتشوفيه بدال المرة عشرة .وإن كنتي مشتاقة له أوي أرتب لك سفريه لإسرائيل إنتي وجلال.

ملت برأسي نحو نافذة السيارة متأملاً الشوارع الواسعة التي نمضي فيها ، والبنايات الدسمة التي تحفها من الجانبين . ذكرتني بالبنايات القديمة ذات التماثيل الصغيرة التي تتخلل البناء والجداريات المنحوتة والأعمدة النحيلة القصيرة التي في الشرفات . كنت أراها في شارع شريف أو شارعي عدلي وعبدالخالق ثروت وعند تقاطع شارع فؤاد بشارع رمسيس ..ولم أحسب أنها محفورة في مخيلتي على هذا النحو.

يبدو أن أمي فطنت إلى ما ألم بي ، فغيرت مجرى الحديث سائلة عن خالي شمعون فقالت راشيل : إنه سيء الحظ ولا يستقر في عمل واحد أكثر من سنة .

- وساكن فين دلوقتي . جنب جدك ولا بعيد .

قالت : إنه يسكن في المنطقة (العشرين) ، وهي منطقة موبوءة وتعتبر وكراً للعصابات والعاطلين وتدبر فيها مختلف أنواع الجرائم ، وتباع فيها كل الأشياء الممنوعة وأولها المخدرات.

- وشمعون مش خايف على نفسه !

ضحكت راشيل .

- وهو عنده حاجة علشان يسرقوه ولا حتى حد يبص له . وكمان كل

الشارع عارف إنه كناس في البلدية ومحلتوش أي حاجة .

ـ كناس !!

ـ أيوه كناس. ولولا إني بساعده كان مــات مــن الجـوع . منفعـش يا تانت في أي شغله هنا . اشتغل بياع في كشك بتاع واحد جزائري لحد ماالخبط له الدنيا فكرشه . واشتغل شيال وبرضه منفعش . وفضل يبجي سنة من غير شغل لحد ما طلبوا كناسين في البلدية واشتغل هناك. آهو بقاله شويه ولسه محدش إشتكى منه لحد دلوقتي .

واستمرت متأففة :

ـ تعرفي يا تانت أنا ساعات وأنا معدية بالعربية قدام الأوبرا ولا شارع (أوسمان) ألاقيه واقف بالمقشة .أشاور له وتبقي عينه في عيني وما يردش عليه . مرة والتانية لحد ما قلت يتفلق ومعتش بعبره.

ـ شمعون ! الطيب ! العاقل ! أيه اللي جراله ؟

ـ ومش كده وبس دا بيتحسر على أيام مصر .. ولو كان الأمر بأيده زى ما بيقول كان رجع من زمان .

قالت أمي والدهشة على وجهها :

ـ عايز يرجع !!

ولم يفرغا من الحديث إلا بعدما توقفت بنا السيارة أمام عمارة متواضعة بزقاق ضيق ، لا تفترق كثيراً عن عمارتنا بحي الظاهر . وفي الأسفل محلاً للجزارة مكتوباً أعلاه باللغة العربية وبخط كبير « اللحم الحلال » ، شدني إليه رجلان يقفان أمامه ويشرثران بلغة تمتزج فيها الكلمات العربية بكلمات فرنسية.

وبمجرد أن دلفنا من باب العمارة ، سمعت من أعلي صوت جدي وهو

يصيح علينا :

ـ جلال . كاميليا . حمد الله على السلامة .

وإذا هو في أعلى الدرابزين .. وقفت أتطلع إليه ورغم ما بيننا من مسافة ، إلا أني لمحت على الفور التغير الذي طرأ عليه . وعندما دفعتني راشيل كي أتحرك ، انطلقت مسرعا على السلم مسرعاً كما كنت أفعل على سلالم عمارتنا وقلبي يرنو إليه ..

* * *

(٣٥)

شقتنا في حي الظاهر كانت ـ والله ـ جنة ، إذا قارناها بالشقة التي يسكنها جدي الآن .

غرفتان . الصغيرة والتي خصصوها لنا تحتوي على سرير ودولاب يتسع بالكاد لحاجات فرد واحد ، وشماعة مدقوقة في الحائط ، وكنبتين أفرنجي من عمر جدي كل واحدة منهما تتحول إلى سرير وقت اللزوم.

لكن كيف ؟ فهذه هي المشكلة .

فقد حاول جدي مرتين إجراء تجربة على واحدة منهما أمامنا وفشل ، فانحنيت لمساعدته مسترشداً بتعليمات جدتي التي تقف على رأسي وبوز حذائها ينغز ساقي . نسمع تزييقاً من النوع الثقيل وينبعث في وجوهنا غبار مشبع برائحة الأبلكاش فيبدأ جدي في السعال . نتوقف برهة ونفتح الباب على آخره حتى يصلنا الهواء الآتي من شباك المطبخ ويطرد هذه الرائحة ، فالغرفة لم يكن بها نوافذ . مجرد طاقة صغيرة تطل علي المنور وهوائها راكد.

نعيد المحاولة من جديد ولكن في كل مرة وفي آخر لحظة بالضبط تحرن منا الكنبة وترفض استكمال دورتها ، فنعيدها إلى حالها الأول ونحن نلعن أباها وأبا النجار الذي صنعها . وتفاقمت المشكلة أكثر وأكثر في المحاولة .. لا أدري بالضبط..ربما المحاولة العاشرة ..تحركت

معنا الكنبة في أول الأمر سلسة ولينة ثم توقفت فجأة في منتصف الطريق . لا خطوة للأمام أو حتى للخلف . وحرنا في أمرها ، فلا هي صارت سريراً أو عادت كنبة كخلقتها الأولى . اغتاظ جدي وركلها بقدمه ثم غادرنا إلى الحمام ليجفف العرق الذي سال على وجهه وعنقه ، أما جدتي فرأت الأمر عادياً وقالت من طرف لسانها:

ـ نو بروبلم (مفيش مشكلة) . شويه كده وأنا أنده على الكونسيرج (البواب) وهو يشوف أي حل معاها.

لم أندهش من عوجة لسان جدتي ، فهي إن لم تفعل ذلك لن تكون مدام ايفون أم منقار كما كانوا يسمونها في مصر.

الغرفة الكبيرة هي غرفة جدي وجدتي .

أول ما دخلناها لاحظنا أنها رطبة ومعتمة ، وبحيث لاتستطيع أن ترى أي شيء فيها حتى لو كنت في عز النهار ونظرك ستة على ستة ، إلا إذا ضغطت على زر الكهرباء واشتعلت اللمبات الثلاث المتدلية من السقف . والأثاث ما شاء الله . تشعر من أول نظرة أنه من أيام ماري إنطوانيت آخر ملكات فرنسا ، وكله ـ بالطبع ـ خروم وسوس وخرابيش . ولا أعتقد أن أي شخص مهما كان رشيقاً يستطيع حفظ توازنه إذا جلس على كرسي التسريحة ، وإن فعلها فمن المستحيل النهوض من عليه بدون مساعدة لوجستية . والمرآة تناسب الأعمى والبصير على السواء . أما السرير والدولاب فحدث ولاحرج . قالت جدتي : إنها أخذت كل هذه الأشياء (شروة) بثلاثمائة فرنك من سوق اسمه (سوق البراغيث) تباع فيه الأشياء القديمة مثل (سوق الكانتو) عندنا.

والشقة بمجملها بينها وبين نور ربنا عداوة ، فكل نوافذها على منور

تهيم فيه فرقة من القطط لايقل إجرامها وقلة أدبها عن القطط التي كان يطاردها عم إدريس بعصاه.

سألت جدتي فقالت :

ـ نعمل أيه في الجزار الوسخ اللي فاتح تحت. هو السبب . القطة من دول تخطف حتة اللحمة منه وجرى على المنور ووراها خمسين قطة ويدور الخناق عندنا.

يصعب عليك معرفة النهار من الليل في هذه الشقة إلا إذا خرجت إلى الشارع ، أو شببت على أطراف أصابعك ونظرت من نافذة المطبخ ذات العصيان الحديدية فهي وحدها التي تطل علي الشارع . لكن والحق كان المطبخ كبيراً ويتسع لطاولة من الحجم المتوسط لتناول الطعام . ولا توجد صالة تقريباً ، مجرد ممر طويل ومتسع قليلاً وضعت به عدة مقاعد متقابلة كأننا في معزى . والجزء الأخير من هذا الممر أخلوه لأنابيب الغاز المتصلة بالجدار ، والتي تشع بالحرارة لتدفئة الشقة .

مكثت يومين كاملين لا أخرج من هذه الشقة اللعينة . أمي وجدتي في المطبخ أغلب الوقت ، ولا يكفان عن الكلام الذي ينقلب إلى وشوشة إذا شعرا بأن أحداً يقترب من المطبخ . وأنا وجدي قبالة بعضنا على مقعدين في الصالة .

ذقنه غير حليقة . ووجهه ليس نحيلا وشاحباً فقط من أثر الشيخوخة، وإنما تشعر بأن مرضاً يسري في جسده.

يدقق النظر في وجهي وأحسب أنه سوف يتكلم إلا أنه يظل صامتاً ، وساعات كان يرفع حاجبيه قليلاً ثم أراهما يتهدلان منه، وينحني برأسه داخلاً في غفوة . لم تكن تستمر طويلاً. دقيقة أو دقيقتين يفتح عينيه

بعدهما متبسماً لي ، وهو يمسح اللعاب الذي ظن أنه يسيل من شفتيه . ففي غفوات كثيرة لم يكن يخرج من فمه أي لعاب ، غير أنه كان يفعل نفس الشيء بحكم العادة.

ويتركني ويقوم ليأت بعلبة سجائره . يسير متحاملاً على نفسه بسبب الدوالي التي في ساقيه وتبدو رأسه منكفئة على عنقه . تلحظ أمي ذلك وهي واقفة في المطبخ وتسأل جدتي . أسمعها وهي تجيب :

- من كتر الهم اللي معيش نفسه فيه . قاعد زعلان على طول . أقوله اخرج فك نفسك . تعالى نروح هنا ولا هناك . ابنك إيزاك ياما اتحايل عليك علشان تزوره دي كلها أربع ساعات بالطيارة ويلاقينا داخلين عليه ومفرحينه ومفيش فايدة يا بنتي.

لا أعرف ما الذي دفعني إلى الاعتقاد بأن نظر جدي أصبح ضعيفا هو الآخر وأن سمعه صار ثقيلاً ، وأتأمل باب الغرفة الذي دخل منه ولا يزال موارباً . لا ألحظ أي حركة بالداخل وأخشى أن أسمع صرخة خافتة وصوت شيء يرتطم بالأرض ، ونهرع إلى جدي فنجده في غيبوبة .

يفاجئني بخروجه وهو يعقد على وسطه حزام الروب الذي ارتداه للتو. يبدو أكثر مهابة من الأول وأتطلع إليه وهو يقف أمام المطبخ صائحاً في جدتي :

- وأيه اللي جاب الهم والغم دلوقتي يا إيفون . مش كنتي معايا عند الدكتور وسمعتيه وهو بيقول إن عندي خشونة في الرقبة . مفيش فايدة فيكي . مش هتبطلي تأليف وكذب . واللي في بالك ده عمري ما هعمله حتى ولو انطبقت السما على الأرض.

وينقطع الصوت في المطبخ .

أكيد يتوشوشان عن هذا الذى في بال جدتي ، ويرفض جدى الإقدام عليه.

وكنت ألاحظ أن النار المشتعلة فى صدر جدتى قد خفت حدتها ، ولم تعد تدخل في مشاجرات مع جدى مثل الأول وطالما سمعتها تقول لأمي إنه لا يكف عن لومها وتوبيخها بسبب وبلا سبب وأحياناً أمام الغرباء وأنها تعمل بأصلها وتتحمله.

تربت عليها أمي وتقول :

- وهو من أمتى على الحاله دي .

- السنتين تلاته الأخرنيين .

تصمت أمي .

- وآل ايه ! بيقول إنه كان نفسه يقضي اللي باقي من عمره في مصر ويندفن هناك . شوفي الراجل الخرفان .

- يا حبيبي يا بابا ..

يعود جدي إلى الجلوس معي .

يخرج سيجارة (جولواز) من العلبة التي بين يديه . السيجارة قصيرة ومدكوكة وبلا فلتر . يشعلها وينفخ الدخان في وجهي . لم يكن يفعلها في مصر . كان يدخن سجائره دائماً إما في الحمام أو فى الشرفة، وعندما تنادي عليه جدتي كان يقول لها : إنه يخاف أن يؤذينى برائحة الدخان.

دخان السيجارة كثيف ورائحته أشبه بالرائحة المنبعثة من تبغ السيجار ، وجدي مشغول بتثبيت طقم أسنانه . .

أداعبه فيهز رأسه وشيئاً فشيئاً تبدو ابتسامة شحيحة على وجهه .

أذكره بأيام حي الظاهر . يسترخي للوراء ويمد ساقيه إلى الأمام وهو يتمطأ .

- وإزي المعلم حبيب ؟

- الحمد لله . بيسلم عليك يا جدي .

- والحاج محمود العطار أبو حسن ؟

أتمهل برهة قليلة وأقول :

- يا سلام يا جدي دا إنت واحشه جداً وباعت لك ألف سلام.

لا يعرف جدي اننا اقتدينا به وسافرنا خلسة دون أن نخبر أحداً وكل هذه السلامات من عندي . منها لله أمي حرمتني من توديع أحب الناس إليّ وتركنا شقتنا فجأة كما اللصوص أو المطاردين.

- ولبيب الصرماتي ؟

أقول له : إن دكانه مغلق منذ سنوات ولا أعلم عنه شيئاً.

يندهش .

- ملكش حق يا جلال . مش كنت تسأل عليه وتعرف أيه اللي حايشه عن فتح الدكان.

- والشيخ خلف ؟

- مات . تعيش إنت يا جدي .

- بتقول مات !! الله يرحمه . ويعني أمك مقلتليش في جوابها الأخراني . أما ملهاش حق . جواباتها كلها كلام فاضي وهلس فى هلس والحاجات المهمة مبتقولش عليها .

ويستدير ناحية المطبخ منادياً على أمي بصوت يشوبه الضيق.. لاتسمع .. يعود إليّ :

ـ وتلاقيك على كده مبترحش شارع الأزهر.

ـ إزاي يا جدي ! رحت كام مرة .

ـ مبصتش على محل الحاج دسوقي .

أحملق فيه ..

ـ الحاج دسوقي تاجر المانيفاتوره اللي اخدتك معايا في العزا بتاع والدته.

أهز رأسي ويبدو عليّ كأنني أتذكر.

ـ ياواد الحاج دسوقي اللي إنت فضحتنا وقعدت تعيط لما سمعت الشيخ عبدالباسط وهو بيقرا قرآن .

أحاول التجاوب معه .

ـ آه .. آه ..افتكرت يا جدي .

ـ وياتري لسه بترينه الساعات واقفه قدام المحل بتاعه.

أصمت .

ـ وعباس الصبي بتاعي هو برضه اللي واقف عليها.

أتطلع ببصري ناحية الجدار . أري صورة حديثة لجدي وجدتي معلقة في برواز براق ، فيه من أسفل وعلى ناحية صورتين صغيرتين وقديمتين لي أنا وراشيل وفي الناحية الأخري صورتين حديثتين لطفلين آخرين .. لا أعرفهما .. ربما كانا أولاد خالي إيزاك أو خالي شمعون .

ـ دا واد مظبوط . لما ساعتك تتعطل يا جلال روح صلحها عنده . فكره بنفسك . قوله أنا ابن المعلم زكي وهو يحط الساعة في عنيه ومش هيرضي ياخذ منك فلوس .

أنتبه إليه مومئاً برأسي.

يطرق صامتاً وتبدو نظرة مرتعشة في عينيه ، وهو يضم أطراف الروب ليغطي ركبتيه.

- تفتكر أقدر أرجع مصر تاني .

أحدق فيه صامتاً.

تخرج جدتي من المطبخ متوجهة إلى غرفتها فيتوقف عن الكلام ، وبعدما تغلق الباب عليها يقول :

- تعرف إنها كانت عايزانا نروح نعيش هناك مع إيزاك.

أشعر بالدماء تسري في وجهي ولا أجيب .

- إسرائيل دي مش بلدي .. يمكن تكون بلد إيزاك ولا البت راشيل أو حتى شمعون . إنما أنا.

أتطلع إليه .. فيقول بصوت باكي :

- منهم لله اللى كانوا السبب .

* * *

(٣٦)

أتت راشيل بعد أسبوع ..

البنطلون كتان لونه رمادي فاتح ومعقود برباط عند سمانة الرجل ، والبلوزة شفافة وتصل بالكاد إلى حافة البنطلون . ويبدو أنها لم تكن تضع حمالة للصدر أو ربما كانت الحمالة من النوع الرقيق ، فقد كان صدرها غير محكوماً وثدياها يهتزان لأقل حركة.

ولأول مرة أعرف أن كلمة (بارفا) هذه ليست كلمة هينة.

كانت أنفي تعيش في الحضيض من قبل ، ولا تفهم إلا في زجاجات الكولونيا أم جنيه ونصف التي كنت أشتريها من عم زوزو . والغريب أنني إذا سألته مرة أن يخفض ربع جنيه في الزجاجة ، كان يشمخ بأنفه إلى أعلى ويقول: إن أسعاره محددة وبضاعته « برفكس » .

أتطلع إليه ، فيضيف :

ـ يعني أصلية ياسي جلال . أصلية . بتيجي من المصنع على طول على عندي ومفيش فيها فصال .

استمر في الجدال مصمماً على التخفيض ، فيلوح الغضب على وجهه .

ـ اسمع يا ابني . أنا هنا ببيع شغل مضمون وماركات مسجلة . اللي عاجبه السعر أهلا وسهلاً ، واللي مش عاجبه أحسن له بقي يروح يدور

له على بصلة ويقعد يشم فيها .

- ياعم زوزو !

- زوزو مين وبتاع مين يللا زق عجلك . أمال لو شممتك أسانس الورد ولا الفل البلدى أبو أربعة جنيه تقول إيه .

- طب وريني كده .

- مينفعكش يا حبيبي . أنا مخليه للزبون التقيل .

أين أنت الآن يا عم زوزو . والله لو اتبعت كلامك لأصبحت أنفي في خبر كان .. ياعم زوزو لو كنت معي الآن وشممت العطر الذي يفوح من راشيل لعرفت أن الدنيا لا تزال بخير ، وعدت فى أول طائرة إلي مصر وأضرمت النار في هذه الكناسة التي تبيعها. صدقني ياعم زوزو هذه أول مرة في حياتي أعرف أن حاسة الشم هذه حاسة جهنمية وقادرة على أن تجعل الدم يغلي في العروق.

يبدو أني تبسمت أو لاح شيء على وجهي ، إذ لمحت أمي وهي ترمقني وعلى وجهها استفسار باسم . وأقبلت راشيل نحوي . جلست على يد (الفوتي) الذي أجلس عليه وهي تضرب بأصبعها على شحمة أذني مداعبة ، وجذعها وجانباً من مؤخرتها يلتصقان بكتفي . أفلتت عيناي رغماً عني تجاه أمي ، فوجدتها تتابعنا ووجهها يكسوه الراحة .

وضعت راشيل حقيبة يدها على الأرض ، وكورت البلوفر الأبيض الخفيف الذي كان في يدها وألقت به في حجري ووراءه الإيشارب النبيتي الذي كان يحيط بعنقها . تحسسته - أكيد حرير - ورأيت على طرفه رمزاً يشير إلى الصانع .. مدام (شانيل).

اعتذرت لنا عن غيابها .

قالت : إنها انشغلت مع ضيف من سلطنة عُمان وصل فجأة مع أسرته ، وكان يرغب في لف باريس من شرقها لغربها في أسرع وقت قبل أن يطير إلى لندن .

قالت لها جدتي وهي تختلس النظر إلى جدي :

ـ يعني على كده جيبك عمران يا بت .

ـ كان راجل طيب وكريم يا نينه . إداني مبلغ محترم ولو طلبت أكتر مكنش هيمانع .

ـ طيب إيدك بأه على ألفين فرنك . وتفوتي عليه بكره نشتري الخاتم اللي قلت لك عليه.

نظر جدى إليها غاضباً :

ـ عيب كده يا إيفون . البنت تقول عليكي أيه .

قامت راشيل نصف قومه وهي تقول عاتبة :

ـ جدي ! كده برضه .

ـ كده ونص كمان . أنا منبه عليها ميت مرة متبصش لحاجة العيال . اللي معانا مكفينا . خاتم أيه ده اللي هيه عايزاه . عندها في الدولاب جوه عشرين خاتم.

وأخرجت جدتي منديلاً صغيراً من صدرها تمسح به عينيها ، وهي تقول بصوت مخنوق :

ـ كده برضه يا زكي . وبتغلط فيه قدام العيال. هو أنا لسه هتعلم الصح من الغلط على كبر . اللي بكلمها وبتعشم فيها دي بنتي وأنا مربياها وليه حق عليها.

وشاطت النار في البيت . فشلنا جميعاً في السيطرة على جدي الذي

انفتح على آخره في الكلام والزعيق ، ولم يكتف بتقريع جدتي وإنما استدار إلى راشيل يلعنها ويلعن أباها وأمها والدنيا والعيشة وكل شيء، فتركوه كلهم ودخلوا إلى غرفة جدتي.

بقيت أنا وهو وحدنا.

ساعة بحالها وثلاث أو أربع سجائر حتي هدأ . سألني بعدها وهو يتمطأ :

ـ هو انت مجبتش جرايد معاك ولا مجلات أو أي حاجة تنقري.

ـ جرايد !

ـ أيوه جرايد .

ـ والله يا جدي . .

قاطعني :

ـ يعني مجبتش . طيب .

ثم قام ورفع وسادة المقعد الذي يجلس عليه وأخرج مجلة قديمة اسمها (الجيل) كانت تصدر في مصر أيام الستينات ، ورفع ساقيه متربعاً علي المقعد وبدأ في القراءة . هما دقيقتان فقط وأعادها ثانية إلى مكانها وأخذت عيناه تتنقل بين السقف والجدار والمقاعد واحداً تلو الآخر، وتبدو صفحة وجهه يابسة لا حياة فيها . وكان صوت الجالسين في غرفة جدتي يعلو أحياناً فيمد رأسه إلى الأمام مرهفاً السمع ، وبعد أن يخفت الصوت يستدير ببصره ناحيتي . أقول إنه سوف يتكلم معي وأتطلع إليه مشجعاً ، لكنه لا يفعل . يتركني ويعود إلى التحديق في الأشياء مرة ثانية.

يلتفت إليّ فجأة .أسأله :

ـ بتضيع وقتك إزاي يا جدي .

يرد بفتور :

ـ زي ما انت شايف . يا على الكرسي ده ، يا نايم في السرير.

ـ مش تخرج شوية يا جدي .

ـ أخرج !

ـ أيوه يا جدي . تمشي رجليك . تتسلي . تعمل أي حاجة .

ـ أعمل أي حاجة . آه . طيب .

ودخل في نوبة تثاؤب من النوع الذي له صوت ويأتي من أعماق القرار ، وبعد أن هدأ مدد ساقيه إلى الأمام وأرخى جفنيه.

حشرة صغيرة أكبر قليلاً من حجم النملة ، كانت تقف على حافة المقعد الذي يجلس عليه . ألاحظها منذ مدة وهي على هذا السكون . من المؤكد أنها من سكان الخروم والخرابيش التي بسرير جدي وتاهت في الشقة ، وتنتظره الآن لتعود معه إلى بيتها .

لا أعرف ما الذي استهوي هذه الملعونة في أذنه بالذات . تحركت حتى صعدت على كم البيجامة ، وسارت في خط مستقيم بحذاء الخياطة حتى بلغت الياقه وبقفزة واحده أصبحت أسفل العنق .

لم أدعها تفلت مني في هذه المنطقة المليئة بالشعر . ظللت معها حتى شقت طريقها بشقة ودخلت في صيوان أذنه وهو لا يشعر.

يرجع بساقيه إلى الوراء ، وعلى وجهه ابتسامة كئيبة .

ـ بقي عايزني أخرج يا سي جلال . أروح فين . لا هنا محل المعلم حبيب ولا شارع كلوت بيه ولا ميدان العتبة .أنزل في الشوارع هنا أعمل أيه .. أتبصص على الخنافس ! ولا النسوان الملط !

وتركني متجهاً إلى الحمام.

كانت إحدي فردتي بنطلون البيجامة مشمورة شمرتين والأخري مفرودة ، والجزء العلوى واسعاً يخب فيه والأكمام قصيرة قليلاً .. ظللت أرمقه وهو يمشي حتى واراه باب الحمام.

* * *

(٣٧)

قالت راشيل وأنا أهم بالجلوس إلى جوارها في المقعد الأمامي للسيارة :

ـ معلش هنفوت الأول على الشانزليزيه . عندي ميعاد شغل هناك وبعدين نكمل.

هززت رأسي فأردفت :

ـ وكمان الشانزليزيه من ضمن برنامج فسحتنا . آهو نبتدى بيه.

وانطلقت بنا السيارة من شارع إلى آخر وأنا أتأمل الدنيا من حولي ، وكأني أركب سفينة فضاء أتابع منها ما يجرى في كوكب آخر .. الناس الذين في عجلة من أمرهم .. والقبعات .. والمظلات التي في الأيدي تحوطاً لمفاجآت الغمام .. والكلاب التي تتجول برفقة أصحابها كأنما هو حق لها وفرض .. والحمرة التي تعلو الخدود وخصلات الشعر المتدلية من الأغطية الصوفية التي على الرؤوس .. والقطط المحمولة في سلال صغيرة وحول أعناقها شرائط بكل الألوان .. والسيارت الستروين بشكلها غير المألوف.

كنت أشبه بالقروي الذي أسقطوه بمظلة وتركوه . أحاول أن أقرأ المكتوب على لافتة أو في إعلان فأفشل ، ويشدني بصري إلى سلالم تتدلى في باطن الأرض ورجال يصعدون منها أو ينزلون ، وأندهش من فتى وفتاة يتعانقان أمام الناس بلا حياء أو وازع من ضمير .

ومن شدة توهاني لم أنتبه إلى أن راشيل تنادي عليّ.

دفعتني بإصبعها في كتفي فاستدرت نحوها .

الدلال الذي طغى على نغمة صوتها وهي تقول « إنت يا واد .. رحت مني فين .. خلي شويه لبكره » ، والنظرة الماكرة الشقية التي تلوح في عينيها ، أطاحا برأسي وشعرت بدم مجنون ينطلق في كل عروقي.

تماسكت وأنا أقول ورعشة تسري في بدني :

- آه . آه . صح . دي باريس فعلاً زي ما بيقولوا عليها .

- وهو انت لسه شفت حاجة يا واد إنت . أما لما ألففك في الحتت اللي تستاهل وأسهرك في الليدو هتقول أيه . وبعدين أخدك على غابة بولونيا أفرجك على اللي بيجرا فيها . أنا ناوية أجننك هنا .

أريح رأسي على ظهر المقعد مستمتعاً بحلاوة اللحظة . ترمقني بدلال وأصابعها الطويلة تزيح شعرها إلى الوراء.

أقول :

- والله أنا صعبان عليه جدي . حابس نفسه في الجحر ده ليه . مش كان ييجي يسكن في الدنيا الحلوة دي.

- جدك !

وتضحك ضحكة عالية وهي تستدير نحوي . يفلت صليباً ذهبياً صغيراً كان مخفياً وراء فتحة البلوزة هو وجزء من السلسلة المتدلية من عنقها .

أنظر إليه مستغرباً.

تقبض عليه بين أصابعها ووجنتاها تتضرجان بالدماء ، وبحركة خاطفة تفك زرار البلوزة وتداريه في حمالة صدرها فينكشف جزء ليس

بالهين من ثديها . لم يكن لونه خمرياً كما توقعت وإنما شديد البياض وكأن حمرة خفيفة تضرب فيه ، وفي الأعلى من الناحية المتجهة إلى الإبط ألمح شيئاً غامقاً أشبه بالوحمة وحوله شعيرات قليلة صفراء اللون.

تسارع قائلة :

ـ دا شغل . متخليش دماغك تروح لبعيد .

أزداد انتباها ، فتكمل :

ـ إنت عارف إني بشتغل في السياحة ولحسابي الخاص لا تبع شركة ولا تبع أي حد . تبع نفسي . وشغلي كله على العرب . وهما زي ما انت عارف عندهم حساسية من اليهود.

وصمتت لحظة :

ـ واحد ابن كلب طلع إشاعة في قهوة الفوكيت اللي شغلي فيها إني يهودية . فضلت أكدب فيها لما لساني وجعني وتلاقيني أول ما أروح هناك أكون مجهزاه معايا . وقبل ما أدخل القهوة أبينه على صدري .

قلت مبتسماً.

ـ طب ما كنتي تعلقي مصحف دهب أحسن.

ـ إنت بتقول فيها ! جه في بالي بس لقيتها هتبقي زايده حبتين ويمكن تنكشف . وإنت عارف إن رأسمالي هو سمعتي ..

تشاغلت بالنظر إلي الطريق وبقايا الابتسامة لا تزال على وجهي .

ـ مش مصدق إياك .

ـ وجدي عارف كده ؟

ـ بتقول جدك .. جدك دا أيه .. جدك معدش له لزوم في دنيتنا وأحسن له يدور على تُربه ويدخل فيها من دلوقتي .

ـ جدي !

ـ أيوه يا خويا جدك . دا من مخلفات الماضي . ياريتنا كنا سبناه في مصر وفضل عايش في الحي اللي أسمه أيه ده ..

قلت وأنا أهز رأسي مغتاظا ..

ـ قصدك حي الضاهر ..

ـ أيوه هو ده . حي الضاهر . وإنت بقي مشروعاتك أيه هنا .

رددت وعيناي تتأملان أنفها الذي لم ألحظ من قبل تقوسه إلى هذا الحد .

ـ مشروعات أيه ! وبتاع أيه ! أنا كلها شهر وراجع مصر .

ـ مصر !

أجبت بإصرار :

ـ أيوه مصر .

ـ أمال تانت ..

وتوقفت عن الكلام . ولما سألتها راوغت وقالت كلاماً آخر ، فبدا عليّ الضيق :

ـ متاخدش في بالك يا جلال . أصل تانت كاميليا فكراك قاعد شويه فقالت لي أدبر لك حاجة تتسلي فيها . قلت نبتدي الأول بجمع العنب . لسه فاضل شوية على الموسم وأقدر أشوفلك شغل هناك .

ـ عنب ! عنب أيه !!

ـ بقولك مؤقتاً ..

وتوقفت بنا السيارة قرب ميدان الأوبرا ..

سرنا على الأقدام حتى شارع أوسمان ثم دلفت بي إلي محل كبير للملابس اسمه (لافاييت) ، ثم أخذتني إلى محل آخر لايقل عنه فخامة

اسمه (البرانتون) . اشترت قمصان وبنطلونين وحذاء كوتشي وسويتر للمطر له غطاء علي الرأس ، حتى الملابس الداخلية اشترت منها دسته من كل نوع وكله على مقاسي. ولما بدت الدهشة علي وجهي قالت :

ـ دول لأندريه . أندريه صاحبي . أصل مقاسك هو مقاسه بالظبط .

وألقينا بأكثر من سبعة أكياس كبيرة في المقعد الخلفي ، واتجهنا صوب الشانزليزيه .

شارع مجنون تخاله يغمز لك بعينيه ، وإذا ضحك عليك وسحبك إلى داخله فقل على نفسك السلام .. طويل وعريض وعلى جانبيه صفوف متوازية من أشجار المارون والبلاتين أو الكستناء . بريق ووسع . ومحلات لا تمل حتى ولو وقفت أمامها نصف نهار . ومطاعم وبوتيكات .مسرح الليدو بمدخله الذي تعلوه لوحة كبيرة عن عرض المساء. وصالة (اسباس كاردان) التي يؤمها الرسامون والنحاتون وأعلام الموسيقي والغناء . وقوس النصر ببنائه المتين الذي يلوح من بعيد. والمسلة المصرية التي تقف غريبة في آخر الشارع عند ساحة الكونكورد . والمقاهي ذات المداخل والفتحات التي تعلوها تندات حديد مغطاة بقماش سميك لونه برتقالي أو أزرق داكن ، بروادها الذين ينعمون بالموسيقى وفي يد كل منهم جريدة أو كتاب أو يثرثرون إلا إذا كانوا من العرب أو الأفارقة فالثرثرة عندها تكون بصوت عال وإشارات الأيدي في كل الاتجاهات .

والغريب أنك تفاجأ أحياناً بأصواتهم المرتفعة هذه تسكن مرة واحدة وتقترب رؤوسهم من بعضها البعض ، ويبدو الحديث خافتاً والوجوه تشي بأن في الأمر شيئاً ليس بالعادي وإنما أمر كبير . أعتقد أنهم يلمحون

في هذه اللحظة عميلاً من عملاء استخبارات بلادهم يمضي في الطريق ، أو ربما امرأة يخططون لاصطيادها .

مشيت إلى جوار راشيل حتى منتصف الشارع حيث مقهى الفوكيت . لم نكن قد وصلنا إلى منتصف النهار بعد ، ومع ذلك أغلب الطاولات كان مشغولاً . عرب من الخليج وشوام وهم الكثرة وسواح من بلاد العم سام ومن اليابان واثنان من الأفارقة . رجل وامرأة. الرجل ببدلة سفاري غامقة وعلى رأسه غطاء داكن وسحنته نفسها مكفهرة وأشد قتامة من البن الأسود ، أما المرأة فكانت شديدة المرح وتتألق بملابسها الوطنية المزركشة وذراعاها العاريان تماماً يلمعان تحت شعاع الشمس الآتي من النافذة ويبدوان بلون الباذنجان الأسود الخارج لتوه من الحقل . ولم يكن موجوداً من الفرنسيين أهل البلد سوى رجلان وامرأة والثلاثة تخطوا السبعين.

أجلستنى راشيل على طاولة في أول المقهي وطلبت لي آيس كريم ، ثم اتجهت إلي طاولة يجلس عليها رجلان من الخليج أحدهما قصير وسمين وياقة قميصه الواسعة تكشف عن لغد مترجرج وواضح أنه محنك وذو خبرة ، أما الآخر فكان أنحف منه وأصغر سناً ويبدو أنه لا يزال تحت التدريب.

سلما عليها بحفاوة فهمست لهما بشيء . إلتفتا إليّ مرة واحدة لفتة خاطفة وبلا اكتراث . ربما قالت لهم أني السائق الذي يقود سيارتها أو قريب فقير ومن بعيد . الجونلة التي كانت ترتديها قصيرة . تصل بالكاد إلي منتصف الفخذ ومع ذلك وضعت ساقاً على ساق . كان منظرها مثيراً والحركات التي تبدو منها وإنثنائة نصفها العلوي بين الحين

والحين قادرة على قصم ظهر أي مقاومة . لكن والحق كان الرجل الكبير عاقلاً وعيناه اللتان يغطيهما جفنان دسمان تحدقان بلا انفعال أو نوايا ظاهرة .

المشكلة كانت في الخليجي الصغير ، لم تكن هناك أية قوة أو نفحة من ضمير ولا أدوية أو مهدئات قادرة على كبح جماحه . كان المقعد يهتز أسفل منه وقدماه تتقلقلان بلا انقطاع كالطفل الذي سوف يفعلها على نفسه إن لم يدخلوه على الفور إلي الحمام. والغريب أنه أدخلني طرفاً في الموضوع وكان بين لحظة وأخري يرمقني بنفور وكأنما سحنه وجهه تقول لى ..أذهب من هنا .. ما الذي تفعله معنا ..

وجرى الدم في رأسي أنا الآخر ووددت أن أتجه إليها ، أزجرها بكلمتين وآخذها من وجه هذا الولد التلفان .

وعندما غادرنا المقهي ، قالت : سوف آخذك الآن لتري الحي اللاتيني وكاتدرائية نوتردام . تعللت بالصداع وبأني أود العودة إلى البيت لأنام.

* * *

(٣٨)

- تاني يا جلال . تاني !

ويعلو الصوت .

- هترجعنا لأيام مصر تاني .. للزعيق والخبط على ضهر السرير علشان تصحى .

كان صوت أمي تشوبه مسحة غضب ، وكأنه آتيا من مكان بعيد وأنا ونادية في دنيا أخرى.

كنا في غرفة نوم جدي القديمة .. في شارع عباس .. على بعد خطوة من دولابه العتيق ذى المرآة الكبيرة .. لفت نظري الشباك الكبير ذو الضلفتين الخشبيتين ومقبض المزلاج الصديء المتآكل .. ولم يكن هناك أيضاً باب .. الغرفة مصمته إلا من كوة في أعلي الجدار تأتي منها نسمة هواء لاسعة مصحوبة بنداءات الباعة الذين في الشارع .. ونادية بين يدي .. ألملم شعرها فأري ندبة عميقة على صفحة عنقها .. لم تكن قد اندملت بعد وشكلها يؤلم .. جال في خاطري لحظتها أنها ربما حدثت بفعل مخلب أو شيء حاد .. هممت بسؤالها إلا أن لساني لم يطاوعني.. كان ثقيلاً .. وكلما تكلمت بدا الصوت كما لو كان خارجاً من فم رجل أبكم فسكت .. وعندما أحسست بأنه لا حركة تأتي منها حسبت أنها غفت على صدري ، وجلت أنا بعينيّ في المرآة التي

أمامي.. كان شعرها الأسود المنسدل على كتفيها مختلطاً بشعيرات بيضاء ومتقصفاً من عند الأطراف .. وفى الأسفل سمانتا قدميها مترهلتان وعليهما تشققات بلون الجلد . وقدماها اللتان كالقالب المنحوت أصبحتا مثيرتان للشفقة.. ضممتها إلى صدري فلم أشعر بأية حرارة في بدنها . هززتها .. لا نبض ولا حركة .. ولونها شاحباً ويداها اللتان تلتفان حول عنقي واهنتين ولا وزن لهما.

تنفرج عيناي .

الدنيا مشوشة قليلاً وأمي واقفة بالقرب من السرير تتأملني وشفتاها انطبقتا للتو . يبدو أنها كانت تنادي عليّ وتوقفت لما فتحت عيناي . أتابعها بعينين نصف مغلقتين وهي تتجه صوب النافذة المفتوحة ، وبحركة تلقائية أشد الغطاء على صدري إتقاءً لصاروخ الهواء الآتي منها . تنشغل بإغلاق ضلفتي النافذة .. ويأتيني أنا ما سبق من الحلم .

الأستاذ فوزي مدرس الألعاب في مدرستنا .. الوسيم صاحب الشعر الناعم والعينين العسليتين .. الذي لم أرتح له يوماً وطالما بادلني نفوراً بنفور .. كنا على وشك العراك بالأيدي بسبب نادية.. يقول إنها خليلته وأنجب منها ولداً وجهه كطلعة القمر ، وأنا أصيح فيه وأقول له أنه غير محترم .. يضحك من قولي فتبدو أسنانه الأمامية مطلية بالذهب وحجمها أكبر من المعتاد . أندهش لأني لم أره من قبل على هذه الهيئة.. وأسنانه . أسنانه عرفتها سليمة لا مرض أو خدش فيها .. تموت رغبتي في العراك وينتابني الخوف .. يقترب مني بخطوات عدائية وأفقد أنا السيطرة على أعضائي .. تتيبس مني .. أعجز عن تحريك قدماي طلباً للفرار .. وحلقي .. حلقي يمعق مني الصراخ .

أنظر إلي أمي . تقول :

ـ يللا قوم .. يللا يللا .. دي راشيل جت من بدري ومستنياك في الصالة .

أنتبه إليها ..

تمسك بيدها كيساً من الأكياس التي اشترتها راشيل عندما كنا معاً بالأمس..

تخرج قميصاً وبنطالاً . تطلب مني ارتداؤهما . باقي الأكياس على مقعد مجاور . التفت نحوها . تقول وبريق رضا يلمع في عينيها : إنها كلها لي وأن راشيل لم تشأ إخباري بذلك ساعتها . أحبت أن تكون مفاجأة لي . وتلوح ابتسامة على وجهها وهي تضيف : إنه ليس في الدنيا مثل راشيل . حلوة وابنة حلال وبارة بأهلها .

تتأملني متوقعة أن أجاريها في الكلام .

أشيح بوجهي قليلاً .. ووخز خفيف يمتد من أول رسغ يدي حتى الكوع . . إبر لاحصر لها .. دقيقة ودؤوبة ولا تجدي معها أية حكة بظاهر الجلد .

وعندما يزداد صمتي ، تردف أمي :

ـ وكمان يا جلال يا ابني القرش بيجري في ايديها . معارف وشغل هنا وهناك . أيه النصاحة دي .

وبنظرة من عينيها أفهم أنها قالت ما عندها والباقي عليّ.

أشعر بالغثيان .. شيء لزج وقبيح عالق بأمعائي .. وعصارة حمضية تصل إلى حلقي ، طعمها حارق وكريه .

أدفع بالكيس بعيداً وأقول لأمي :إني مريض .. وأضع الغطاء على

وجهي قبل أن أسمع ردها .

يأتون كلهم .. جدي وجدتي وراشيل .. يلتفون حولي وأنا أزداد إصراراً على أني مريض .. أري الجزع على وجه جدي وأمي يساورها القلق ، لكن شيئاً آخر لم أتبينه لحظتها لاح على وجهها.

تربت راشيل على كتفي مشجعة . تقول لتستحثني على النهوض.

- يللا يا جلجل بلاش كسل .. دا أنا النهارده محضرالك حتة برنامج ومش هنرجع إلا آخر الليل.

تقترب أهدابي من بعضهما ، وتبدو عيناي شبه مغمضتين.

- في الأول هنركب (الباتو موش)[1] وأفرجك على نهر السين وبعدها نتغدي في مطعم يوناني تحفة في الحي اللاتيني . محشي ورق عنب وكباب وكل اللي قلبك يحبه.

أفتح عيناي وأهزهما ..

- ومعايا تذكرتين في (المولان روج)[2]. دا فيها عرض يجنن . وبالمره أوريك حي بيجال .

تسرح عيناي في الأستاذ فوزي .. لم يكن ضمن اهتماماتي في أي يوم .. أو حدث أن كلمته سوي مرة أو اثنين أيام المدرسة الثانوي .. ولايعرف نادية أو سمع عنها .. يجيئني هكذا .. وفي الحلم .. ومع نادية ..

- قوم بأه . قوم . دا إنت لو منزلتش معايا النهارده هيفوتك نص عمرك .

(١) مراكب سياحية يستقلها السواح وأهل باريس ، ويجوبون بها نهر السين جيئه وذهابا.
(٢) ملهى ليلى كبير فى حى بيجال .

لا أجيب ..

تشعر بثقل دمي وينتاب الملل جدتي فيتركاني ، ووراءهما أمي تبحث لي عن مُسكن أو حبة أسبرين . جدي هو الذي بقي جالساً على حافة السرير..

وددت أن أبوح له بالحقيقة وأقول له أني مكتئب من الدنيا كلها، غير أني لم أفعل.

* * *

أربعة أسابيع وأنا أصلى الجمعة في مسجد باريس الكبير.

أقوم إلي الحمام وأتحمم كما يفعل المسلمون صباح هذا اليوم ، وأصلي الصبح والسنة وأختم الصلاة على أصابعي وأنا جالس على سجادة الصلاة . ثم أضع المسبحة في جيب القميص تاركاً شرابتها الخضراء مدلاة من فتحة الجيب ، وأضع الطاقية البيضاء على رأسي وأنزل إلى الشارع .يكون عم الشيخ منجي العياري وهو رجل تونسي مستوطن في فرنسا ويملك محل الجزارة الذي في أسفل العمارة ، قد أغلق المحل وواقفاً في انتظاري . نتجه معاً صوب محطة المترو.

عندما كنت في مصر لم تكن تشغلني هذه الطقوس التي تسبق الصلاة ، و ساعات كثيرة كنت أسمع أذان الجمعة وأنا في الشارع فأتجه إلي أى صنبور أو آخذ جردل ماء من الست شوق زوجة البواب وأطس وجهي وأتوضأ ، وإلى الجامع بلا مسبحة أو طاقية على الرأس .

لا أعرف ما الذي جعلني أتمسك بهذه الطقوس هنا في باريس. الحمد لله أنهم اعتادوا عليها ، واكتفت جدتي بمصمصة شفتيها إذا رأتني أو الاحتجاب في غرفتها فترة الصباح حتى (أنكشح) من البيت .

المشكلة كانت في أول مرة .

يبدو أن جدتي كانت محصورة في البول يومها . اندفعت من باب

غرفتها وطيران كما الريح نحو الحمام ، وفي قدمها فردة شبشب واحدة . لمحتني خطفاً ، وأنا جالس علي مقعد في الصالة أتلو القرآن من مصحف صغير في حجري .

كان صوتي متسارعاً وبنغمة خافته تحاكي أزيز النحل ، ورأسي تهتز هزات متواترة إلى أسفل وعيناي شبه مغمضتين . وعندما سمعت تكة ترباس الحمام ورأيتها خارجة منه توقفت عن التلاوة إلا أني ظللت منحنياً على الكتاب الكريم ، وعيناي تختلس النظر إليها .

كان شعرها منكوشاً وقطرات من الماء تسيل خلف أذنها وأكيد عرفت ما الذي أفعله ، مشت خطوتين على أطراف أصابعها ثم توقفت والتحفز يأكلها أكلا. وبدأ قلبي هو الآخر في الدق . لم تتحمل المسكينة ويبدو أن غدد الشر والقتال التي تسبح في دمها واتتها فرصة لا تعوض ، فانتفضت للعمل وبأقصي طاقتها .

باغتتني .. باغتتني الملعونة أم منقار وفي غمضة عين كانت مطفأة سجائر بلاستيك تطير فوق رأسي وتصطدم بالحائط ، وعندما تزحزحت مذعوراً عاجلتني بشريط كاسيت كان ملقياً علي مقعد مجاور . أصابتنى به إصابة مباشرة بطرف أنفي ثم استقر تحت أقدامي .

فعلتها أم منقار ووقفت واضعة يدها في خاصرتها تتحداني ، وأنا أحملق فيها غير مصدق . نعم فعلتها ! ولو كانت صحتها تساعدها لكانت قفزت عليّ كما الهرة وأطبقت على عنقي مثلما كانت تفعل أيام زمان .

قمت ثائراً بالطبع وكف يدي اليمني يقبض على أنفي الذى ينزف . ودارت بيننا معركة كلامية ، أتي جدي على أثرها مسرعاً وهو نصف

نائم ويتثاءب ووراءه أمي .

تزعق جدتي بأعلى صوتها وتقول « خلي بالك .. آه .. احنا هنا مش في جامع السيدة ولا الحسين ولا قاعدين في حلقة ذكر » ، وأنا أرد عليها بكلام ثقيل فتزداد هياجاً وأمي تكتم الدم بمنديلها وتزيحها بعيداً عني . وجدي الحائر بيننا يقول كلمة هنا وكلمة هناك .

لم يحسم الأمر إلا لما قالت :

ـ لما تكون عايز تقرا قرآن ابقي روح إقرا عند الشيخ منجي اللي ساكن في الدور التحتاني . آهو راجل ناقص ووسخ زيك.

فعندها ثارت ثائرة جدي.

كانت الأمور سوف تمضي حتي لو قالت لي جدتي لفظاً أقذع من ذلك، فأنا في النهاية حفيدها ـ كما قال ـ وكل ما يبدر عنها من وراء قلبها.

المشكلة في الشيخ منجي .

فقد كان للرجل تاريخ طويل وحافل مع جدتي ، وعندما نطقت باسمه خاف جدي أن يتجدد الماضي فأوقفها عند حدها منهياً الموضوع لصالحي .. وكانت المرة الأولي التي تربت فيها على كتفي معتذرة.

فالشيخ منجي من سكان العمارة الأوائل ، وعندما جاء جدي للسكن فيها كان كل واحد منهما يبادل الآخر مشاعر حياديه . فلم يكن بينهما ود ولا خصام . لكن مع جدتي كان هناك كلاماً آخر .

تبادل الاثنان المشاعر العدائية من اللحظة الأولى ، ولم يستسغ أي منهما الآخر ..

الرجل طول بعرض ولحية جبارة ويدخل ويخرج من الباب ـ فالمحل فى

نفس البيت ـ وبخاصرته نطاق مليء بالسكاكين فضلا عن ساطور محترم له نصل لا حل له ، ومبدأه في الحياة عدوك عدو دينك ولا مهادنة مع الظالمين . ولذا لم تقترب منه جدتي . قصرت نشاطها على زوجته الست زهيرة بوصاف ضئيلة الجسم السهتانة البهتانه أم رجل مثل أرجل المعيز كما كانت تقول جدتى .

استفزازات وشتائم خفيفة، وفي مرة كانت جدتي تصعد على السلم فألقوا عليها ثمرة قلقاس وكانت هذه نقطة تحول في الخلاف بين العائلتين واستخدام الأيدي في حسمه..

اقتحمت جدتي الشقة وعاثت فيها فساداً ، ضربت زوجه الشيخ علقة ساخنة اسفرت عن تسع إصابات في الوجه والرقبه ، فضلاً عن الاصابات التى طالت ثلاثة أطفال أحدهم لايزال يحبو ناهيك عن التلفيات التي قدرت وقتها بمائتي فرنك ، ولم ينته الأمر إلا في مخفر الشرطة !

ثلاث سنوات من المعارك وقفت فيهما جدتي مرتين أمام المحاكم متهمة بالضرب والاتلاف وحكم عليها في الأولي بالغرامة وفي الثانية بالحبس شهراً مع وقف التنفيذ والالتزام بتعويض التلفيات ، والشيخ منجي هو الآخر صدر عليه حكم بالغرامة لأنه كسر نظارة جدي ..

انقضت هذه المشاكل الآن ، لكن كل واحد في حاله ولايكلم الآخر . ولم يجد جدي أية غضاضه في العلاقة التي نشأت بيني وبين الشيخ منجي . وربما قال في نفسه . ما المانع من هذه العلاقة .. ألا يجوز أن تكسر حالة اللا سلم واللا حرب الدائرة بين العائلتين.

* * *

(٤٠)

نقصد أنا والشيخ منجي العياري محطة مترو (بارباس) . يشتري لي جريدة باللغة العربية من الكشك الملاصق للمحطة أو قالب شيكولاته، فتأخذني الحمية وأمد يدي لأدفع الحساب أو أشتري له شيئاً بالمقابل . يمسك بيدي غاضباً .

كان ينظر إليّ على أني أخ أصغر له أو ربما ابن ، وكنت أشعر بالراحة وأمشي إلي جواره وديعاً ممتناً.

يتقدمني داخلاً من باب المحطة ، ونظل نهبط على السلالم الكهربائية حتي نصل إلى الرصيف الخاص بالمترو المتجه إلى محطة (جوسي).

يكون الجو هادئاً في ذلك الوقت ، وربما نجد بعض السياح الذين فرغوا لتوهم من زيارة كنيسة (الساكركير) والتجول على تلة (موغارتر) القريبة من المحطة وفي طريقهم الآن إلى فنادقهم . وعلى طول الرصيف يقف فرنسيون وفرنسيات بالطبع ، لكنهم غالباً ما يكونوا قليلين وكباراً في السن وفي أيديهم أكياس أو كتب صغيرة يقرأون فيها ، وكما هي العادة هنا لا صوت يصدر عنهم وكل واحد في حاله .

الجلبة تحدث عندما يستيقظ الكلوشار من نومهم.

الكلوشار هؤلاء جماعة من الناس تستحق الرثاء ، منهم الرجال

والنساء ، والعجائز والشباب . هزمتهم الدنيا التي على سطح الأرض فنبذوها ونزلوا إلى الجحور . أقاموا مستعمرات لهم تحت الأرض .. على الأرصفة وفي زوايا وأركان محطات شاتليه وسان دوني وبيجال وبارباس وسان لازار . فيهم العاطل ، والمصاب بعقدة نفسية ، أو سياسي من الدرجة الرابعة مهزوم للمرة العاشرة في الانتخابات المحلية واتخذ الحزب قراراً نهائياً بطرده ، ومن اكتشف أنه أهدر عمره سدي فنزل إلى باطن الأرض حيث الدنيا الحقيقية . وقد تجد فيهم محاربون قدماء وأصحاب مبادئ نبيلة ، وفنانون كانوا ملء السمع والبصر .

يتمددون أغلب الوقت (بالهلاهيل) التي على أبدانهم وبروائحهم الكريهة وإلي جوارهم زجاجات الخمر الرديئه ، ولا مانع من أن يقوم أحدهم من عز النوم ليأخذ رشفتين من زجاجته أو يلقي بشتمتين في وجه الناس ويعود للنوم في نفس اللحظة ويبدأ في الشخير . كنت أقف مشدوهاً ولو كانت معي ساعة (استوب ووتش) لحسبتها بالثواني ، هي دقيقة ، وربما أقل ، التي يستيقظ فيها الكلوشار ويفعل فعلته ثم ينام ويشخر .. وليس شخيراً خافتاً ومحترماً وإنما شخيراً من النوع الذي يوتر أعصابك ويلفت نظرك ولو كنت علي مسافة . وأقول في نفسي من يدلنيّ على أستاذ في علم النوم كي يفسر لي هذا اللغز .

نومهم ـ والله ـ رحمه ، لأنهم إن استيقظوا يبدأون في الشحاذة . فرنك . ساندوتش . كيس شيبسي . علبة عصير . سيجارة . أي شيء يرونه في يدك . ويبدأون بعدها في تبادل الشتائم مع بعضهم البعض بأقذع الألفاظ وبأصوات عالية . وتري وجوههم محمرة وعروقهم منتفخة ويشيحون بأياديهم في وجه بعضهم ، فتحسب أن مشاجرة سوف تقع ولا

محالة وتبتعد عنهم خوفاً من أن يصيبك أذى . لكنهم يخيبون ظنك بسكاتهم فجأة وبلا سبب منطقي وقد يكتفون بالبصق في وجوه بعضهم أو تبادل الإشارت البذيئة ولا حياء ولا خجل .

والأسباب غالباً ما تكون صراع على مناطق النفوذ ، حيث أن لكل كلوشار منهم قطعة من الرصيف متر في مترين يعتبرها مملكته ينام فيها أو يستقبل ضيوفه أو يضع حاجياته ومحظور على أي كلوشار آخر الاقتراب منها إلا بإذنه ورضاه . أو قد يكون النزاع على إحدي الكلوشارات والتي عادة ما تكون قد تجاوزت الستين ، أو على كسرة خبز خطفها أحدهم من يد الثاني أو غافله وهو نائم وشرب من زجاجة الخمر التي تخصه .

ولو تريثت قليلاً على الرصيف لوجدت كلوشاراً عاقلاً ومحترماً يخرج من أحد الأركان متقدماً بمبادرة صلح بين الطرفين المتشاجرين ، ولا تكل قدماه من المشاوير المكوكية التي يقوم بها من هذا إلي ذاك أو العكس حتى تصفو النفوس ويلتئم الشمل ثانية ويعودون للقهقهة وقلة الأدب.

الجلبة الحقيقية هي التي تحدث عندما يأتي رجال البلدية ليجمعوهم بالقوة ويصعدون بهم إلي سطح الأرض ، لإجبارهم على أخذ حمام ساخن في حمامات البلدية .

يكون هذا اليوم يوماً أسوداً على رؤوس الركاب ، لأن الكلوشار لا يذعنون أو يستسلمون بسهولة . يفعلون مثلما يفعل الأطفال الصغار في البيوت عندما تصمم أمهاتهم على ادخالهم الحمام . كانوا يفرون من أمام رجال البلدية ، يجرون هنا وهناك وتنقلب المحطة إلى سيرك أو

فصل من مسرحية هزلية .

ونسمع قائد فيلق البلدية ، وهو يصيح في أحد رجاله .

ـ أمسك يا جاك بهذا العجوز المختبئ وسط الركاب .

يسرع جاك للإمساك به ، فيزعق فيه القائد .

ـ لا يا أيها الغبى ! ليس هذا . هذا سائح من اليابان أتود إدخاله الحمام هو الآخر . أمسك بهذا العجوز الذي يمسك بقنينة خمر في يده .

ويستشيط القائد غضباً :

ـ ليس في هذه الناحية أيها الأعمي . هنا . هنا . المختبيء وراء المرأة السمينة .

تلتفت المرأة السمينة إلي الخلف منزعجة . ونري رجلاً آخر من رجال البلدية قادماً يلهث من بعيد وهو يمسك برجلين من الكلوشار من أقفيتهم كما الأرانب ، وكلوشاراً يقفز من رصيف إلى رصيف وفي ذيله رجلان والقائد يصيح فيهما مشجعاً :

ـ أحسنتما . أحسنتما . عليكما بابن اللئيمة هذا ولاتتركاه أبداً.

ويلتفت إلى رجل آخر من رجاله :

ـ وأنت يا مكسيم هل سوف تبقي واقفاً هكذا بلا عمل ؟ عليك بهذا الكلب العجوز الذي يجري بلا سروال .أسرع . أسرع . فقد اندس قليل الحياء بين الناس .

كنا أنا والشيخ منجي نتحاشي هؤلاء الكلوشار حتى لاينقضوا وضوءنا كما يقول ، ولم يكن الرصيف في أيام الجمعة يخلو من المسلمين المتجهين للصلاة . كنت أعرفهم من ملابسهم. البدلة السفاري الضيقة من عند الإبط .. وطاقية الرأس أو المسبحة في اليد .. والحذاء الذي

تجاوز عمره الافتراضي بسنة على الأقل . كانوا فقراء وبسطاء والطيبة تعلو وجوههم . يعرفوننا هم الآخرين ، ويسلمون علينا بإيمائة أو إشارة من اليد . أما زبائن الشيخ والذين لايشترون اللحم إلا من عنده ، كانوا يقبلون علينا ويشدون على أيادينا بحرارة ، وإذا عاتبه أحدهم على قطعة اللحم التي اشتراها منه آخر مرة لردائتها أو للشغت والدهن اللذان يملأها ، كان الشيخ يروعه بنظرة من عينيه وإذا أطال في الكلام يقول له الشيخ بحسم . إننا في طريقنا للصلاة والعبادة ولسنا في مقام لهو أو تجارة .

ويأتي المترو .. ونجد المقاعد شبه خالية ، فنجلس متقابلين بجوار النافذة.

الشيخ منجي يعرف حكايتي كاملة ، ولا يمل أبداً من نصحي بلهجته التونسية اللطيفة .

ـ اسمع يا ويلدي باريس هاذي كيلغول (زي الغول) اللي يعيش فيها تبلعه . ليش تقعد فيها :

أصمت .

يمرر أصابعه على لحيته قائلاً بنغمة تختلط فيها السخرية بالشفقة..

ـ ليش تقعد فيها . أيش تعمل . تخدم عند ززار (جزار) ولا تخدم في حانوت ولا تكنس في الطريق . هذا اللي تنجمه (تريده) .

أحملق في وجهه .

ـ كأنك محتار . استخير ربك . تعرف تستخير ربك ولا متعرفشي.

يبدو على وجهي أني لا أعرف الاستخارة ، أو حتي سمعت بها من قبل . فيقول :

- متعرفشي !

أهز رأسي مؤكداً ، فيبدأ الشيخ في تعليمي الاستخارة ..

أن أتوضأ أولاً ثم ..

يتأفف من صوتنا المرتفع رجل فرنسي كان قد صعد من المحطة السابقة وجلس إلى جانبي . يلحظه الشيخ منجي إلا أنه لا يأبه به ، ويستمر في الكلام وبصوت أعلى وعيناه ولحيته بين الحين والحين تجوسان في وجه الرجل وكأنه يقول له : هل من مبارز .

يفهم الرجل أنه لا حيلة له مع هذا الشيخ الملتحي، فينسحب من المكان وهو يبرطم بألفاظ فرنسية غاضبة . أعتقد أنها كانت ألفاظ بذيئة وشتائم في الشيخ ، لأن الدم غلي في عروقه وبدا مغتاظاً لكنه تماسك وقال وهو يشيح بيده :

- سيب عليك منه (سيبك منه) تافة هاذاك ، وربي كان مجتش رايح نصلي وخايف نتعطل كنت ندقدقه (نكسر عضمه).

لم يكن الرجل الفرنسي قد ابتعد كثيراً .

يشعر بأن الكلام عليه والشيخ يشتمه باللغة العربية فيقف ويلتفت نحونا مشيحاً بيده ، ويقوم الشيخ هو الآخر نصف قومه وهو يقول غاضباً:

- وربي لو ماتركنا في حالنا لندقدقه.

أمسك بيد الشيخ وأهدئ من ثائرته ،وهو يصيح بالفرنسية في وجه الرجل.

- مارش لوا .. مارش لوا (إمشي بعيد) .

يدرك الفرنسي أن الشيخ غير هازل وأنه عقد العزم بالفعل على

الشجار ، فيتجه مسرعاً نحو الباب كي ينزل فى أول محطة ويترك لنا المترو كله.

وبعد برهة يهدأ الشيخ ويقول بنغمة قاطعة :

ـ ارجع لبلادك . ولي (اصبح) طبيب ولا مهندس واكبر في بلادك. مهما كبرت في باريس ومهما عملت متوصلش حتى حاجة .

أقول .

ـ طيب وإنت عايش هنا إزاي .

ـ نقولك حاجة يا ولدي . احنا هنا عايشين وكأننا في تونس . مكلتنا وشرابنا تونسي مياه (ميه) في الميه . منعرفوش عن فرنسا غير البسبور.

أزداد إنصاتاً ، فيكمل :

ـ وكمان إنت حالتك مش كيف حالتي . أنا عايش في وسط توانسه. وإنت إشكون عندك هنا (وإنت عندك مين هنا).

أقول مندهشاً :

ـ عندي أمي يا شيخنا .

ـ أمك يا ولدي اختارت تقعد هنا لأن معندهاش مشكل . أمك عايشة في وسط أهلها . أمها وبوها وأخواتها ناس كيف كيف يهود . وإنت معندكش مجتمع كيف مجتمعها .

أصمت .

ـ وبعد أمك إشكون عندك من ناس . تبقي مع الجداه بتاعتك. حد يطيق يعيش معاها العزوزة الشمطة دي (العجوزة) . دي كلبة بنت كلب .

ينتابنى الضيق . ورغم ما بيني وبين جدتي من حب ضائع اكتشف فجأة أني لا أقبل أن تهان ، إلا أن الشيخ لا ينتبه ويستمر قائلاً:

- وبراس أمك فهمني حاجة . كيفاش وليدٍ كيفك (مثلك) ناس ملاح ويلد أصل (إبن أصل) يعيش مع جداه مثل هاذي . وربي لو كان مجيتش في الدنيا هاذي مسلم ونخاف ربي راني كنت أعطيتها طريحة نباش لقبور (علقة ساخنة) وارتحت من خلقتها المشؤومة .

أزداد كدراً وهو لا يزال يتكلم .

- أما جدك مسكين وبحبوح .. لكن يا ولدى جدك هذا تافه وكمان شخصيته ضعيفه وكراكوز (أراجوز) .

ونفترق عدة لحظات . كل منا يدخل تذكرته في الماكينة الحديدية التي بحذاء الرصيف كي تدور عجلاتها وتسمح له بالعبور ، وأجده يلحق بي وهو يتكلم بفمه ويده ووجهه مؤكداً وجهة نظره في جدتي :

- عمرك شفت امرأة تهاجم البيوت الآمنة وتعيث فيها فساداً . لا يسلم منها لا كبير ولا صغير ولا اللي يدبي (يحبو) على الحصير . حتي وليدي الصغير على زين العابدين المسيكن (تصغير كلمة مسكين) مسلمش منها . ركلته بقدمها . وخالتك عزيزة مرتي كومبليكيه منها (عندها عقدة منها) . تصدق حتي لتو الجداة بتاعتك بتجيها في الكوابيس .. مره شاده موس (ماسكه سكينه) .. ومره جايه متحزمه بسلاح تقولش عليها ماشيه الحرب . الله لا يربحها.

نخرج من المحطة ونمشي خطوات قليلة ، فيلوح أمامنا مسجد باريس الكبير بزخرفته الإسلامية ومئذنته الشامخة . يتوقف الشيخ منجي عن الكلام وأري عينيه منشغلتين بالواقفين حول المسجد . تنفرج أساريره

مرة واحدة ويلتفت إليّ متبسماً . يكون قد لمح صديقاً أو أحداً من معارفه . يشب بوجهه وتخرج من فمه صيحة فرح مكتومة .

يصيح ملوحاً بيده :

ـ يا زين العابدين إيجه . إيجه (تعالى . تعالى).

يرفع زين العابدين ذراعه قائلاً وهو يتجه نحونا :

ـ آه منجي جيتك . هاني جيتك .

يلتفت الشيخ ويقول :

ـ باهي جلال بالسلامة تو ونتقابلو العصر في الحانوت .ولا إسمع إيجا أتعشي معانا . خالتك عزيزة عامله عشاء قمقوم (لذيذ). كسكسى بالعلوش وسلاطة مشوية وكعبات بريك بالتون .

ويتركني .

تجمعات المسلمين تلتف بأركان المسجد وعند الباب . أفارقة من السنغال وتشاد وجيبوتي بملابسهم الزاهية الفضفاضة ، ومغاربة وتوانسة وأبناء الجزائر .

الشباب منهم بملابس على الطراز الفرنسي ، والكهول والشيوخ بالبرانيس البيضاء والبيج والبني المحروق وفي أقدامهم البلغ . أصواتهم عالية . كنت أسمعها قبل أن أصل إلى المسجد، تنطلق من أفواههم حادة وسريعة كشرارات الكهرباء وبلكنة أبناء شمال أفريقيا المطعمة بالكلمات الفرنسية.

ويقف باعة البخور والمسابح والعطور الشرقية إما على طاولات صغيرة أو يفترشون الرصيف ، ولا يخلو المكان من رجل أو اثنين يبيعان شرائط كاسيت لمقرئي القرآن الكبار عبدالباسط والحصري والشيخ

مصطفي إسماعيل وأحاديث وخطب الجمعة للشيخ كشك والشيخ البدري، وكتب الدين التي تخيف الناس من أهوال يوم القيامة ، والملائكة التي تحمل عصي غليظة وأسياخ من الحديد تضرب بها تارك الصلاة أو المرأة التي لاتسمع كلام زوجها . ولا مانع من أن تجد في هذا الزحام كتاباً عن أصول المعاشرة الزوجية ، أو في فن الغزل .

كانت البلدية تتساهل معهم في هذا اليوم ، وعلى مقربة تقف سيارة شرطة لمتابعة الأمن والنظام وحولها عساكر طوال على رؤوسهم القبعات المستطيلة .

بعدما أفرغ من الصلاة أستقل المترو ، ومحطة في محطة حتى أصل إلى الحى اللاتيني .

تصادفني مكتبة (جلبير) وتوجد أيضا مكتبة أخري في الأزقة الداخلية . المكتبتان متخصصتان في بيع الكتب المستعملة ، وروادها من كل الأشكال . المثقف . والتافة . والصغير . والكبير . والمتسكع . والجاد . والأرفف مليئة بكل ما تشتهي الأنفس .كتب في الجغرافيا وفي التاريخ والفلسفة والقانون والفيزياء وإلي جوارها كتب الجنس والتفاهات والصور الفاضحة، وإذا قلبت جيداً سوف تعثر على كتاباً لسيمون دي بوفوار أو ألبير كامي أو مختارات من شعر بلزاك أو لمستشرق كبير مثل دور كايم أو مرجليوث . والسعر واحد بالنسبة للجميع عشرون فرنكاً في الغالب . وعلى طاولة عتيقة ومزوية على جنب كنت أجد كتباً كبيرة ومجلدة ، أتصفحها فأجدها قديمة والأوراق صفراء وبها ثقوب وخدوش وبين الثنيات وفي الكعوب حشرات ضئيلة وميته من زمن بعيد . والعناوين حسبما قرأت وترجمت لنفسي رأس

المال لكارل ماركس، ونظرية فائض القيمة لآدم سميث ، والبؤساء لفيكتور هيجو وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز أو الأم لميخائيل شولوكوف ، والسعر مخفض إلى عشرة فرنكات . ولا أحد يشتري . الكل منكب على الحداثة والكتب المليئة بالصور وما لا معنى له.

وتأخذني قدماي إلى داخل الأزقة والشوارع القديمة .

خطوتان وأفاجأ بمهرج صبغ وجهه بالألوان وأنفه أحمر كالدم يأتي في مواجهتي ، يداعبني أنا والناس التى تسير إلى جواري فأشيح بوجهي عنه . وساحر يعرض ألاعيبه وخفة يده ويدعوك لمشاركته في العرض الذي يقدمه ، أقف دقائق أمامه وأشعر بالملل فأنصرف . وحلوى غريبة ولها مذاق خاص تباع في محلات يديرها توانسة ومغاربة ، ومأكولات يونانية وتركية وتذكارات لبرج إيفل وقوس النصر . وحلقة عن بعد اقترب منها فأجد رجلا نصفه العلوى عارياً وفي يده عصا طرفها يشتعل ناراً ، يقربها من فمه مخرجاً منه سائلاً رشاشاً فيشتعل ولا تعرف ما إذا كانت النار آتيه من فمه أم من العصا . أبتسم متذكراً يوم أن أخذنا جدى زكى إلى جبل الدراسة ورأينا هذا العرض في سيرك أولاد عاكف . وأمشي غريباً تائها فيوقظني من شرودي فنان عجوز ، يمسك بآلة كمان يعزف عليها ألحان من الفلكلور الفرنسي . . ألحان كلها شجن يقولون إنهم كانوا يعزفونها في القرون الوسطي عند وداع أبنائهم الراحلين لنهب كنوز الشرق باسم الصليب .

أظل وراء الرجل من شارع إلى شارع وأتوقف بالقرب منه كلما توقف.. وتهفو نفسي إلى جدي الذي مات .. وجدتي الشاحبة الخجولة.. ونادية التي أكلتها الدنيا .

وأشعر بمرارة في حلقي وشيء يطبق على صدري ، فأترك المكان وأخرج إلى الشوارع الواسعة سان ميشيل وسان جرمان.

كنا في شهر أكتوبر والغمام كثيفاً ، والأشجار الكبيرة التي على جانبي هذين الشارعين عارية وأوراقها الصفراء ملقاة على الأرض فأزداد كآبة .. وصوت أم كلثوم ينساب في أذني رقيقاً أملساً باكياً ، وهي تغني وتقول « علي بلد المحبوب وديني دا الوجد والبعد كاويني .. يا مسافر على بحر النيل أنا ليه في مصر خليل .. من حبه مبنام الليل . على بلد المحبوب وديني ».

* * *

(٤١)

ساقتني قدماي إلى كاتدرائية نوتردام . ووقفت على مقربة من الأكشاك الخشبية ، التي يعدونها للاعتراف..

رجال الدين بالداخل .. والنساء والرجال الذين يرغبون في الاعتراف يقبعون مهمومين صامتين على مقاعد خشبية .لا يلتفت أحداً منهم إلى الآخر ، وإذا إلتقت نظراتهم صدفة يومئون برؤوسهم ويعود كل منهم إلى حاله . وتري الواحد منهم يخطو بأقدام ثقيلة ووجه مظلم ويدخل إلى رجل الدين المكلف بتلقي اعترافه ، لكن كل طرف منهما يظل محجوباً عن الآخر بساتر خشبي به كوة صغيرة تسمح بنقل الكلام.

وأراهم خارجين أكثر راحة .. وكأنهم ألقوا بعبء ثقيل . والغريب أن البعض ، ومنهم شباب ، كانوا يبكون بالداخل ويخرجون ولا يزال الألم مرتسماً على وجوههم . كنت أشعر بالرثاء لهم .. وأسأل نفسي عن الرجل الطيب الذي بالداخل . يظل ينصت إلى ما يعذب الناس ويؤلمهم.. ولكن ما الذي يفعله بكل هذا الكلام.

واتجهت صوب المكان الذي توجد به أجراس الكاتدرائية.

لم أكن أحسب أنها مهولة بهذا الحجم ، وطافت ببالي رواية أحدب نوتردام التي اشتريت نسختها المترجمة من على سور الأزبكية . كنت أيامها في الإعدادية ، وصنعت في مخيلتي صورة للأحدب العاشق بطل

الرواية .. محنياً بفعل الحدب لكنه قوي ومتين .. وشعره الأشقر المتسخ يطلُ من غطاء الرأس الذي كانوا يرتدونه في ذلك الزمان .. وقدماه تتنقلان بصعوبة وحذائه مليء بالفتحات والثقوب .

لاح المسكين في ذاكرتي وهو يدق الأجراس ويتعلق بها منتشياً ، بعدما عطفت عليه (أزميرالداً) بنظرة حانية .

وخرجت أمشي علي مربعات البازلت التي أمام الكاتدرائية وأنا أقول لنفسي. هنا نصبوا للأحدب عموداً وربطوه فيه بالسلاسل ، بعدما عرفوا أن له قلب يحب كما تحب قلوب الناس .

كان الغمام قد وصل إلى منتهاه في هذا اليوم وزخات مطر خفيفة محملة بقطع ثلج في حجم الفراشات وأنا بلا مظلة ، لكني لم أعبأ أو أفكر في العودة إلى البيت . تركت نفسي للمترو فحملني إلى محطة الأوبرا .

وعندما صعدت إلى سطح الأرض كانت زخات المطر أكثر شدة، وحبات الثلج صارت في حجم ندف القطن.

وتهدأ الدنيا فجأة وأشعر بشعاع شمس نحيل وخجول يتلألأ في السماء ، أرفع رأسي فأجد الشمس شقت لها طريقاً بين السحابات الثقال التى تملأ الأفق والتي سرعان ما تلتحم مع بعضها وتصبح الدنيا بلون الرماد .. والناس لايكترثون ، يسيرون هنا وهناك والمظلات والبلاطي الووتر بروف تعرف أن هذا هو وقتها فتؤدي عملها وتذود عن الناس .

أسرعت أسفل البواكي التي تغطي الأرصفة إلي أن بلغت أحد الشوارع الجانبية ثم وقفت عند مدخل أحد البنايات . وقفت أتأمل ثلة

من طلاب المدارس يمضون أمامي مسرعين ، وقد تدثروا من أعلى بملابس صوفية تعلوها سويترات ذات أغطية رأس محكمة ، والحقائب مشدودة على ظهورهم بأربطة تعلو أكتافهم . ويلهون ويلعبون . منهم من يدفع زميله مازحاً تجاه سيارة تأتي مسرعة، أو يرشقه بحبات الثلج الناعمة في وجهه ، أو يتسلل خلفه بحذر ويزيح ملابسه بغتة من عند العنق ويلقي على ظهره العاري كومة ثلج في حجم كف اليد .

ظللت أتابعهم بملابسي البسيطة ذات الطابع الشرقي ، القميص الذي اشتريته من (عمر أفندي) والبنطلون التفصيل والشرز الصوفي المفتوح من على الصدر .. وأتذكر الطريق الذي كنت أسلكه كل يوم متجهاً إلى المدرسة .. والترام .. والكمساري الذي كان يطاردنا من عربة إلى عربة.. وأقول لنفسي لو عشت هنا العمر كله ما الذي أفعله مع هؤلاء الناس شديدي البياض ، الذين يلبسون الأحذية الطويلة ذات الجلد السميك وعلى رؤوسهم القبعات .

وتمر أمامي فتاتين من طالبات المدارس، فأهيم بقلبي ناحية شارع عباس .

* * *

(٤٢)

لم يمض أسبوعاً إلا وأنا أوقظ أمي من النوم .

لم تصدق وأنا أقف أمامها بملابسي كاملة ، وفي يدي تذكرة السفر والجواز .

ودخلنا في جدال أشبه بالشجار ، واقتحم جدي علينا الباب. حاولوا كلهم إثنائي عن السفر ، حتى جدتي بدا عليها الانزعاج وحاولت خطف الجواز من يدي .

لم يفلح أي شيء معي ، لا بكاء أمي ، ولا عينا جدي المتوسلتان .

وجلست أمي على حافة السرير ، تعاتب الدنيا على العمر الذي راح، والزوج الذي مات ، وولد كأنه ضاع .

وظللت كآبه معتمة على سيارة الأجرة التي تقلنا إلي المطار.

قال جدي :

ـ يعني شوية وراجع يا جلال .

تطلعت في وجهه دون أن أتكلم .

ـ ريحنا يا ابني .

ـ إن شاء الله يا جدي . إن شاء الله . بس أطمئن الأول علي مستقبلي.

قالت أمي بصوت عاتب :

ـ مستقبلك . وهو مستقبلك هناك بس !

قلت وأنا أضغط على معصم يدها :

ـ متقلقيش يا ماما .. وهيكون بينا جوابات .

ـ جوابات ! جوابات أيه يا جلال .. بأه هان عليك تعملها وتسيبني.. وهتعرف تنام لوحدك إزاي .

وقال جدي :

ـ سيبيه دلوقتي يا كاميليا .. جلال ابننا وملوش غيرنا وهيرجع تاني. مش كده يا جلال .

قلت بصوت خافت :

ـ كده ..

وبعد برهة صمت

ـ معاك فلوس يا ابني

ـ الحمد لله يا جدي

أخرج مظروفاً من جيب الجاكت وقال :

ـ دول اللي كانوا في البيت .. ألفين فرنك .. فلوسنا كلها في البنك يا ابنى وإنت سافرت على غفلة ..

واستدار ناحية أمي ..

ـ إقلعي يا كاميليا السلسلة الدهب اللي على صدرك دي . وإنتي يا إيفون إخلعي الخواتم .

ففعلاً .. وناولني هذه الأشياء ، ولما رفضت وضعها عنوة في جيب القميص .

وافترقنا على باب المطار .

سلمت التذكرة ووضعت الحقيبة على الميزان ، ثم جلست على مقعد قريب .

هي ساعة وانتهي كل شيء .

أغلقوا الكاونتر وانصرف الحمالون ، وبدأوا في النداء على الركاب للتوجه إلى الطائرة .

وعندما اكتشفوا غيابي بدأوا في النداء على اسمي مرة واثنين وعشرة .. وأنا جالس أنظر .. لا أنا قادر على الاستجابة.. ولا أنا عارف ما الذي أفعله .

لم أقم .. أو أتحرك .. أو حتى أحسب الأمور .. أو أفعل أي شيء .. كنت عاجزاً ورأسي فارغة وبدوت أمام نفسي كالمهزوم .

نادوا على اسمي بعد برهة انقطاع .. قالوا إنه النداء الأخير..

ولم أجب بالطبع ..

فقد كانوا ينادون على شخص ميت !

* * *

الأنا والآخر
فى رواية قلوب منهكة
لكمال رُحيّم
قراءة للروائى صفوت عبد المجيد

عندما فاز الأديب كمال رُحيِّم عامين متتاليين بالجائزة الأولى لمسابقة القصة القصيرة فى نادى القصة عن قصتيه «مشوار» ، «آلام صغيرة» واللتان نشرهما فى مجموعته القصصية استبشرنا بقاص جيد ، لكنه فاجأنى بأصول روايته « قلوب منهكة » وعندما قرأت الفصول الأولى منها أدهشنى أننى أقف أمام روائى متمكن ، وأنه يعالج موضوعاً جديداً على الرواية المصرية وبأسلوب متميز مما اضطرنى إلى العودة إلى كتب النقد الكلاسيكى أبحث فيها عن تصنيف أضع فيه هذه الروايه .

حيث يقول أحمد أمين فى كتابه النقد الأدبى عن تصميم الرواية :

« كل أديب يستطيع أن يجد موضوعاً للرواية مما يشاهده أو يقرأه أو يسمع عنه من أحداث لأي ناحية من نواحى الحياة ، والروائى الكبير من كانت تصميماته لها قيمة ذاتيه في نفسها ، ومعنى إنسانى صادق، ولا يتناول الشئون التافهة التى تقع فوق السطح بل يتناول العواطف والصراعات والمشاكل التى مهما اختلفت صورها فهى تنتمى إلى الماهية الإنسانية ، فالرواية العظيمة هي التى تهتم بالأشياء التى تجعل الحياة جياشة وذات قيمة أخلاقية . والرواية قد تكون كذلك وهى مستمدة من أبسط قصة ومن أوضع الناس ،كما تكون كذلك فى الحركات العظيمة فى التاريخ والبطولة ، وليس معنى هذا أن الرواية يجب أن تقتصر على

أنواع المآسى ، وإنما نعنى أن الرواية لاتكون عظيمة حقا إلا حين تضرب بجذورها إلى مدى واسع وعميق فى الأشياء التى تتعلق بنا أشد تعلق» .

والحقيقة أن رواية « قلوب منهكة» تؤدى واجب المتعة الفنية بتناولها العواطف والصراعات والمشاكل فى مختلف صورها ، وتقدم لنا تصميما لشخصيات أتقُن بناؤها بيد روائى يؤكد تمكنه من الفن الروائى . ولنقف قليلاً أمام هذه الشخصيات والبناء المتمكن الذى نظمه الروائي على شكل بديع .

فنحن أمام شخصية (جلال) وهو مازال طفلا يحبو ويحاول أن يتمرد على المرأه التى أرضعته (أم حسن) حيث يقدم لنا ومن منظور الراوى هذه الشخصية ، فنعرف أن أباه قد استشهد وهو فى طريقة إلى بورسعيد للقتال دفاعا عن وطنه وأن أمه كاميليا ، هى سيدة يهودية أحبت أبيه وتزوجت به رغما عن أمها وعن أبيها ، كما نعلم أنهم يعيشون فى حى الظاهر أحد أحياء وسط القاهرة القريب من الفجالة والعباسية .

ويمضى المؤلف فى تصوير شخصيات الرواية من خلال الحوار الهادئ على لسان الجدة اليهودية :

ـ البابا هو اللى هيربى . دا بيصلح ساعات ورزقه يوم بيوم . وأنا خلاص نظرى راح وبطلت خياطه . وهيه ـ أشارت إلى أمي ـ خاليه شغل من ساعة لما خلاها تسيب بنك صيدناوى .

وهكذا قدم لنا فى جملة حوارية ،أسلوب الأسرة فى المعيشة وكيف تعتمد على الجد زكى .

وتتشابك خيوط الرواية وتنمو العقدة ونقف أمام الآخر ، الذي يتجسد في شخصية (اليهودي)، وتتبلور العقدة عندما يكبر جلال وتذهب به أمه إلي قرية أبيه ، حيث يلتقى هناك بجده لأبيه وعمه وعماته ورغم الاستقبال الفاتر فهم لاينكرونه ولاينكرون حق أبيه لكنه يتعامل معهم كأنه غريب عنهم.

ويتبلور الصراع بين الأنا والآخر فى رواية (قلوب منهكه)، عندما يحب جلال نادية إبنة حى الظاهر التى تنتسب إلى عائلة ثيوقراطية . إذ يتحدث عنها مع أمه فيقول :

ـ أعرف أن لها خال اسمه الشيخ محمد !

ـ أيوه عليك نور وبيلبس عمه وكاكوله وبييجى يزور أخته مرة كل شهر. وأول ما يدخل من باب العمارة يفضل يقول يا ساتر يارب وعينه متترفعش من على الأرض طول ما هو طالع على السلم . وخالها التانى الشيخ مصطفى. جنبنا هنا . إمام جامع الشعرانى . وبيقولوا إنه ألعن منه . لا بيخلى أهل بيته يتكشفوا على رجاله . ولا حتى على ستات . وأمها زى ما إنت شايف الإيشارب على راسها ليل ونهار ومبتعرفش تقول إلا قال الله وقال الرسول . تفتكر دول يوافقوا عليك . على واحد أمه يهودية ، وياريت كده وبس جده وجدته وخلانه وخالاته كلهم يهود ! تفتكر يا حبيبى !!

أوجزت أمه القضية كلها فى هذه العبارة .. وفى الجانب الآخر من النهر كان جده لأبيه فى قرية المنصورية ، حيث سافرت أمه وهو معها للبحث عن حقه فى مال أبيه كما قال جلال فى جملة سردية « قضيت ثلاثة أيام فى بيت جدى وكأننا فى منفى» ، ورغم أن الجد والجدة

يعطفان عليه إكراما لأبيه الشهيد ، إلا أن معاملة باقى أهل البيت تتسم بالفتور !

رفض الآخر :

ويتمثل رفض الآخر فى الرواية فى مظاهر كثيرة ، سواء فى بيت جده فى المنصورية أو عند عمه أو عند زملائه فى المدرسة ، ويبدو هذا الرفض واضحاً على لسانه حيث يقول :

«جاءتنى عزومتين بعدها من صاحبين لى بالشارع . لبيتهما بالطبع . سألت أمى إن كنت أستطيع دعوتهما على الإفطار أنا الآخر .تنشغل بأى شيء فى يدها وتبدو كأنها لم تسمعنى . يزداد إلحاحى فتوافق متبرمة. ألقاهما فى الشارع وأؤكد عليهما .. يصمتان وينظران إلىّ . وعندما ألح عليهما .. يقولان إنهما سيسألان أمهاتهما .. وتمر الأيام دون أن يأتينى رد ، فأعرف أنهما لايريدان الأكل من يد أمى ».

جذور عميقة نبتت فى عقل جلال راوى الرواية منذ طفولته وتشعبت. وكانت علاقته (بحسن) ابن الجيران وأخيه فى الرضاعة وحواراتهما تغذى هذه الجذور العميقة من الرفض للآخر:

ـ مسلم !!

ـ أيوه مسلم .

وجدني أنظر إليه فأردف مدهوشاً :

ـ وهو إنت يا خايب متعرفشى إنك مسلم. دا إنت مسلم ونص . أمك وأهلها يا حفيظ يارب هما اللى يهود .

ويتصارع الأنا والآخر داخله حول ما يدور حوله فى الحى والمدرسة والشارع ، وبين ما يجرى فى البيت . ويحاول أهل أمه أن يضعوا حاجزا

حوله ويدخلوه شيئاً فشيئاً فى هويتهم فيقول له جده :

- وحفظت حاجة من مزامير داوود .

- مين داوود دا يا جدى .

- داوود . وحد ميعرفش داوود. دا نبى من أنبيائنا.

أردف بعدها :

- وزكريا كمان نبى ويعقوب وإسحاق وموسى . كل دول أنبيا وغيرهم كتير.

ويتصدى جلال - من حيث لا يدرى - لعملية غسيل المخ التي يحاول جده ممثل الآخر أن يغرسها فى وجدانه ، فيسأل هذا الجد بفطرية وسذاجه.

- وسيدنا محمد هو كمان راخر نبى ؟

انحنى بقامته نحوى ، وقال بصوت أقرب إلى الهمس :

- بتقول أيه ! سيدنا مين !

- سيدنا محمد يا جدى أصل أنا بسمع الأولاد فى الشارع بيقولوا سيدنا محمد . وبيحلفوا بيه كمان .

شمخ برأسه قليلا إلى أعلى ،ثم إلتفت إلّى وهو يهرش أسفل شاربه:

- ولاتزعل يا أستاذ جلجل ومحمد كمان نبى .

الآخر في باريس :

ولايكتفى الكاتب كمال رُحيِّم بتحليل الصراع بين الأنا والآخر فى مصر بل ينقله إلى العالم الغربى ، حين ترحل الأسرة إلى فرنسا وبعضهم إلى إسرائيل ، لكنه هنا يقف فقط عند باريس وكيف يشعر جلال المسلم بما يشعر به أهل باريس بكل عقائدهم حيث يقول «أربعة أسابيع وأنا أصلى الجمعة في مسجد باريس الكبير .. أقوم إلى الحمام وأتحمم كما يفعل المسلمون صباح هذا اليوم ، وأصلى الصبح والسنة وأختم الصلاة

على أصابعى وأنا جالس على سجادة الصلاة. ثم أضع المسبحة فى جيب القميص تاركا شرابتها الخضراء مدلاة من فتحة الجيب ، وأضع الطاقية البيضاء على رأسى وأنزل إلى الشارع . يكون عم الشيخ منجى العيارى وهو زجل تونسى مستوطن فى فرنسا ويملك محل الجزارة الذى فى أسفل العمارة قد أغلق المحل وواقفا فى انتظارى . نتجه معا صوب محطة المترو ».

وفى فرنسا يجد راشيل ابنة خالته ويقارن بينها وبين نادية فتاة الظاهر والفارق كبير . ولا يستريح لكل ما يجده فى باريس من أخبار عائلته اليهودية ويقرر أن يعود إلى مصر ، لكنه لا يفعل فى اللحظة الأخيرة.

ملاحظة واجبة :

الزمن فى رواية « قلوب منهكة » غامض .لا تستطيع أن تعرف متى وقعت الأحداث ، فالراوى لم يتعرض لأى من الأحداث السياسية الملازمة لأحداث الرواية وخاصة أن هناك أحداثا ضخمة وصراعات سياسية بين مصر وإسرائيل خلال هذه السنوات بداية من عام ٥٦ إلى نكسة ٦٧ ، ثم إحداث ٩ ، ١٠ يونيه ٦٧ وتنحى الرئيس جمال عبدالناصر ، ثم وفاته فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، ثم العبور وحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وهذه أحداث هى بطبيعتها ترتبط بحياة (جلال)، الشخصية الرئيسية فى الرواية ولم يكن من الممكن أن تمر دون أن يقف عندها .

لكن رغم هذه الهنات القليلة فرواية « قلوب منهكة » محاولة جيدة، لاستكشاف العالم الآخر أحسن الروائي كمال رُحيِّم فى تصويره بالتفاصيل الدقيقة والشديدة الخصوصية .

صفوت عبد المجيد